

تاريخ الاسماعيليه

نويسنده: تامر، عارف

زبان: عربى

تعداد جلد: ٤

ناشر: رياض الرئيس للكتب و النشر

مكان چاپ: لندن

سال چاپ: ١٩٩١ م

نوبت چاپ: اول

##PAGE=11##

محتويات الكتاب

تصدير ١٣

كلمة عابرة ١٩

مقدمة ٢١

الاسماعيليه فى المصادر العربية ٢٣

المصادر الاسماعيليه ٢٧

المصادر الاجنبية و المستشرقون ٣٠

ما قبل الإسلام ٣١

المجتمع الجاهلى ٣٣

فى ظل الانبثاق ٣٧

التبشير بالدعوة ٣٩

النشيع و الخلافة ٤٢

الخلفاء ٤٥

الخلفاء الراشدون ٤٧

الأمويون و العباسيون ٤٩

الدولة الأموية ٥١

الدولة العباسية ٥٦

الاسماعيلية و الإمامة ٧١

الإمامة ٧٣

الفرق الشيعية ٨٣

تاريخ الأئمة ٩٥

الأئمة العلويون ٩٧

الأئمة بالنص المعترف به ١٠١

الإمامة الاسماعيلية ١١٧

الاسماعيلية فكريا و تنظيميا ١٢١

تنظيم الدعوة الاسماعيلية ١٢٣

تسلسل أئمة الاسماعيلية ١٣٠

المراجع ٢٨٩

##PAGE=12##

رسائل اخوان الصفاء ١٣٥

القرامطة ١٤٧

الاسماعيلية الفاطمية ١٤٩

المهدى و القرامطة ١٧٥

سلمية المركز الأول للإسماعيلية ١٧٧

سلمية فى التاريخ ١٨٨

قلاع الإسماعيلية فى بلاد الشام ١٩٤

الإسماعيلية فى شمالى أفريقيا ٢٠٣

الفتح العربى شمالى أفريقيا ٢٠٥

الاسماعيلية فى شمال أفريقيا ٢١٤

عبد الله المهدي الخليفة الفاطمي الأول ٢٢٥

المهدى و معركة البناء ٢٣٦

احداث و مفاجآت ٢٤٣

الإسماعيلية فى مصر ٢٥٥

النسب الفاطمي و أسطورة القداح ٢٦٨

الاسماعيلية فى اليمن ٢٧١

فهرس الاعلام ٢٧٨

فهرس الأماكن ٢٨٤

فهرس القبائل و العائلات و الفرق ٢٨٧

##PAGE=13##

تصدير

ينتمى الإسماعيليون إلى مذهب الشيعة، أحد مذهبى الإسلام الرئيسيين، علما بأن السنة هي المذهب الآخر . و من الممكن تاريخ ظهور هذين المذهبين فى الإسلام بالفترة التى أعقبت مباشرة وفاة النبى محمد عليه الصلاة و السلام، عند ما واجهت الأمة المسلمة الناشئة أزمة الخلافة. فقد بدأت فى الظهور طائفة متنوعة من وجهات النظر المتعلقة بطبيعة الخلافة، و استمر ذلك حتى العصر العباسى عند ما تبلورت تلك الآراء فى نظرية بسطها المؤرخون و فقهاء الشرع و علماء الكلام . غير أنه كان هناك منذ البداية فرق واضح فى الآراء حول هذا الموضوع بين مناصرى س لطة على الذين عرفوا فيما بعد باسم الشيعة، و بين تلك الجماعات التى انتهى أمرها إلى التجمع ليتألف منهم أهل السنة، مذهب أكثرية المسلمين.

فوفقا لرأى أهل السنة، كما عبر عنه فى النهاية فقهاء الشرع و علماء الكلام على السواء، كان نظام الخلافة يضم جميع الوظائف التى تتعلق من جهة بالحفاظ على شريعة الإسلام و تطبيقها، و تتعلق من جهة أخرى بتسيير أمور الدولة و تدبير شؤون المسلمين. أما مهمة تطوير الشريعة استنادا إلى القرآن الكريم و سنة الرسول عليه السلام و عدد آخر من المعايير الثانوية، فقد ترك أمرها للعلماء . و يتمثل رأى أهل السنة فى جوهره فى أن الوحى الذى أنزل على النبى و انتهى بوفاته، كقيل بهداية الأمة، و حسب العلماء أن يوضحوه و يشرحوه و أن يستنبطوا القواعد المناسبة . و أما الخليفة، الذى تنتخبه الأمة من حيث المبدأ، فينهض بمسؤولية تسيير دولة تصان فيها و تنشر مبادئ الإسلام و أعرافه.

و من جهة أخرى، رأى مذهب الشيعة أنه و لئن كان الوحى قد توقف بموت النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فقد ظلت قائمة حاجة أمة المسلمين إلى الهداية الروحية فى شكل تفسير متواصل لجوهر الرسالة الإسلامية . و يعود أمر الهداية إلى إمام الزمان وحده . و أول إمام هو على رضى الله عنه، زوج ابنة النبى، الذى كان النبى قد سمّاه فى غدير خم خليفة له؛ كما كان

##PAGE=14##

النبى قد قال إن عليا كان له ما كان هارون لموسى عليهما السلام . و وفقا لرأى الشيعة تظل الإمامة، أى قيادة الأمة، مستمرة بالوراثة من خلال على و فاطمة رضى الله عنهما؛ علما بأن إمام الزمان له حق مطلق فى تعيين خليفته بالنص من بين أى من أخلافه الذكور، أبناء كانوا أم أحفادا.

و بمرور الزمن، انقسم كل من الشيعة و السنة إلى مذاهب فرعية و طوائف متباينة.

و يشكل الإسماعيليون ثانى أكبر طائفة من المسلمين الشيعة . و قد انفصلوا عن مسلمى الشيعة الإثنى عشرين فى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م، عند ما اختلّفوا معهم على من يخلف الإمام جعفر الصادق، حفيد الإمام على كرم الله وجهه فقد كرس الإثنى عشريون ولاءهم للابن الأصغر للإمام جعفر الصادق، و هو موسى الكاظم . و هم يؤمنون بإثنى عشر إماما أولهم على كرم الله وجهه، و آخرهم غائب حسب اعتقادهم . و يشكل الإثنى عشريون، فى ظل قيادة المجتهدين، أكبر طائفة من مسلمى الشيعة و أغلبية سكان إيران.

و كرس الإسماعيليون ولاءهم للابن الأكبر للإمام جعفر الصادق، و هو اسماعيل الذى سماه على اسمه، و ظل الإسماعيليون على امتداد تاريخهم يعيشون فى ظل قيادة إمام تولى منصبه بالوراثة . و يتولى الإمامة حاليا سمو الأمير كريم أغا خان و هو الإمام التاسع و الأربعون، و هو من سلالة النبى عليه الصلاة و السلام.

و على الرغم مما بين مذهبي الإسلام أهل السنة و الشيعة، من خلافات على مفهومي السلطة و الزعامة، فإن أصحاب المذهبين و ما تفرّع عنهما من مذاهب، يشتركون معا في المعتقدات الأساسية التي تشد المسلمين كافة بعضهم إلى بعض.

فكلا المذهبين يؤمن بأن القرآن هو آخر ما نزل الله سبحانه و تعالى من وحى للبشر جميعا، من أجل هداية المؤمنين في كل عصر و إنارة أفئدتهم وفقا لما أوتوا من قوة فكر شكّلتها البيئة التي يعيشون فيها . و القرآن ذاته، بإعلانه شأن عقلانية الإنسان، و آياته التي تعبّر عن رسالاتها مجازا أو قصصا أو رمزا، يفتح أمام المؤمنين آفاقا تتيح لهم اشتقاق أفكار جديدة يستعينون بها في تلبية مقتضيات الزمان و الكون. لذلك فإن حكماء الأمة ظلوا دائما على حذر من جمود الفكر.

و يرجع التاريخ أصداء القوة الهائلة التي تنطوي عليها روح الرسالة الإسلامية، و هي رسالة تسمو على الحدود الضيقة للتفسيرات الحرفية التي تسعى إلى تثبيت فهم المرء للدين في سياقات زمانية مكانية معينة.

لذلك فإن علماء كل عصر و أتقياءه سعوا إلى فهم متجدد للرسالة مع تطبيق أساليب للتفسير أقرّ مجتمعهم شرعيتها.

##PAGE=15##

و إن قوة القرآن و الأحاديث النبوية باعتبارها مصدر الإلهام النهائي للمسلمين الذين يساورهم القلق على ما سيؤول إليه وضع الأمة في عالم سريع التحول، هذه القوة صوّرها سمو الأغا خان تصويرا بليغا أمام مؤتمر دولي عن سيرة الرسول عقد في كراتشي في مارس / آذار سنة ١٩٧٦، و شارك فيه باحثون و مفكرون مسلمون. قال سموه في خطابه الرئيسي:

«في مواجهة هذا العالم المتغير، الذي كان يوما بالنسبة إلينا عالما فسيح الأرجاء و لا يعدو اليوم أن يكون جزيرة مكتظة بسكانها، و إذ يجابهنا تحد أساسي بأن نفهم زماننا، و يحاصرنا أسطول غريب من سفن ثقافية و أيديولوجية أفلتت من مراقبتها، أجدني أتساءل: هل لدينا فهم واضح و راسخ و دقيق لما سيكون عليه المجتمع الإسلامي في الأزمنة المقبلة؟ و إذا كان الجواب، كما أعتقد، يكتنفه الشك، فأني لنا أن نستجليه إن لم يكن في القرآن الكريم و في سيرة خاتم الأنبياء؟

إن حياة الرسول عليه السلام تمدنا بكل ما نحتاجه من مبادئ رائدة لحل مشكلتنا هذه بأقصى قدر من النجاح يؤهلنا له ذكاء الإنسان و فطنته. فقدوته التي سنّها بكماله و ولائه، بأمانته و سخائه، بجهد و وقته، و برحمته بالفقراء و الضعفاء و المرضى، و باخلاصه في صداقته، و بتواضعه عند ما يحالفه التوفيق، و بشهامته عند النصر، و ببساطته، و بحكمته التي مكّنته من رؤية حلول جديدة لمشكلات لم تكن لتحل بالألّ ساليب التقليدية، و ذلك دون النيل من المفاهيم الأساسية للإسلام- ما من شك في أن هذه كلها أسس و مبادئ لا بد أن تمكّننا- إن نحن فهمناها على حقيقتها و فسرناها بصدق و اخلاص- من أن ندرك ما ينبغي أن يكون عليه مجتمع إسلامي ديناميكي و حديث حقا في السنين القادمة».

و في مذهب الشيعة، تتبنى ممارسة شعائر الدين و سلوك المرء في حياته اليومية على اعطاء عقل الإنسان دورا صادقا ينهض به بتوجيه من إمام الزمان الذي يزود أتباعه بما يلزمهم من قيادة لخوض غمار عملية التغيير الحاصل في العلاقة بين الزمان و المكان و ممارسة شعائر الدين . فالإمام يساعد المؤمنين على بناء جسر بين الدين و بين مجتمع متطور، جسر تنبّت أركانه مبادئ أخلاق الإسلام.

و من النتائج الموفقة في تاريخ الإيمان بالجدوى العالمية لرسالة الإسلام، القدرة الذاتية للتقاليد الإسلامية على التعايش المبدع مع البيئة المتطورة في مجتمعات متعددة وثقافات وأماكن ولغات متنوعة . و أهل السنة و أهل الشيعة يقبلان كلاهما - أن التنوع البالغ في الثقافات و الممارسات

##PAGE=16##

و العادات و التقاليد التي تتخلل أرجاء الأمة طولا و عرضا هو مصدر من مصادر قوتهم.

إن هذا التطور في الزمان و المكان قد أفضى إلى إثراء متبادل للفكر و الثقافة في الإسلام و ما جاوره من تقاليد . فقد ساعد على ازدهار طائفة متنوعة من الأشكال الأدبية و التعبديّة و الفلسفية التي اتخذت وسيلة للتعبير عن المذهب و العقيدة . و ما دام الجوهر لم يضار، فقد حظى هذا التنوع الخصب بالاحترام باعتباره مرآة تنعكس عليها حيوية التراث . و قد أثبتت التجارب أن المحاولات المتمتعة لاقتلاع الزخارف الثقافية من ممارسة شعائر الدين أو من تعابيره أو أعرافه، لا تسفر إلا عن تغريب المؤمنين. ذلك أنه ما من دين يمكن أن يمارس في فراغ اجتماعي أو ثقافي.

و في الشيعة يتمثل دور إمام الزمان في الأخذ بيد المؤمنين نحو الجوهر و الابتعاد بهم تدريجيا عن الالتباسات التاريخية و عن الشوائب الثقافية الدخيلة التي أضفيت على ممارسة التراث أو الإفصاح عنه و لكن طال عليها الأمد ففقدت جدواها كوثار ثقافي . و يتمثل التفويض الأساسي لإمام الزمان في وضع الشريعة في سياقها الصحيح من حيث الزمان و المكان و في القيام بالعملية المصاحبة، عملية دعم أركان الدين.

و مؤدى ذلك أن كلا من السنة و الشيعة يمثل تفسيراً مشروعاً للرسالة الإسلامية، و كلا منهما يوفر منظورا إسلاميا يرى من خلاله العالم الذي يستلهم هذه الرسالة .

و في قلب هذه الرؤية يمثل الإنسان الفرد الذي أوتى عقلا يسعى به إلى معرفة أصوله، و يتأمل فيما يحيط به، و يسبر أغوار قوى الطبيعة التي سخرها الله له . و العقل الذكي يحتفي بالوحيّة خالقه و يفوض أمره إليه، و يتوخى العدل في رعاية مخلوقات الله، و يكبح جماح نفسه في سبيل إخاء بشري أسس على التوافق و السلام و التسامح، فالغرض من المجتمع في الإسلام هو مساعدة الفرد على أن يحقق كامل إمكانات شخصيته . و على الرغم من انحرافات تقع بين الحين و الحين، فإن للتاريخ معنى من حيث أنه يشكل تأكيداً للسعي نحو ذلك المثل الأعلى الذي يجعل من الإنسان أفضل مخلوقات الله على ما جاء في القرآن الكريم.

يقول النبي محمد عليه الصلاة و السلام و أيضا على كرم الله وجهه «من عرف نفسه فقد عرف ربه .» إن في خلق السماوات و الأرض و في ظواهر الطبيعة آيات لأولى الألباب، آيات لأناس يفهمون و يسبحون بحمد ربهم و يتأملون عجائب الخلق بأفئدتهم و ألبابهم.

و حثّ الإنسان على التأمل و التفكير كثير الورد في القرآن.

و على ذلك فإن الحق في الاجتهاد الشخصي أمر كرسه الإسلام. و قد كرس

ولاء لهذا الاجتهاد الفردي شيعة علىّ و المذاهب الباطنية في الشيعة و السنة على السواء . و تقع على كاهل إمام الزمان مسؤولية صون هذا الحق و تسخيرهُ للسمو بنفس المؤمن و لإقامة نظام اجتماعي يناسب ظروف الزمان و المكان، الأمر الذي يتيح للفرد أن يحيا حياة مليئة في نطاق مبادئ الدين و أخلاقياته.

و التاريخ، على الرغم من صروف الأيام، إنما هو تفتح لرؤية الكون كما يلهمها الإسلام، و رائد هذا التفتح في مذهب الشيعة الإسلامية هو إمام الزمان الذي ورث سلطة النبي و غدا أميناً على تراثه.

و قد كان الأئمة الإسماعيليون، على امتداد فترات طويلة من تاريخهم، حكاماً زمنيين أيضاً . فقد شهدت خلافة الفاطميين في مصر ازدهاراً رائعاً للحضارة يعززه اهتمام بالتعليم باعتباره مفتاح تنمية عقل الإنسان.

و اجتذب الجامع الأزهر، الذي أسسه الفاطميون فكان واحداً من أقدم جامعات العالم، علماء مرموقين من شتى الأرجاء بصرف النظر عن عقائدهم أو أجناسهم . و يشير لويس ماسينيون إلى هذه الفترة بوصفها «المائة عام الإسماعيلية للإسلام». و كان هذا العصر مصدراً إلهاماً للكتاب و العلماء و الفنانين و المعمارين و كبار رجال التجارة و الصناعة، و كان هؤلاء جميعاً شركاء في جهد جماعي يستهدف تحسين نوعية الحياة.

و أخيراً، آل عهد الفاطميين في مصر إلى نهايته و قد مزقته انقسامات عميقة على إثر نزاع أسرى فعجز عن مقاومة أعداء أقوياء و فدوا من الخارج.

و في تلك الأثناء كان الحكم الإسماعيلي قد رسّخ أقدامه في المرتفعات الشمالية لبلاد فارس . و من هناك شرع الإسماعيليون في انشاء دولة قوية متماسكة تضم شبكة من المعاقل المتناثرة على مساحة تمتد من شرقي فارس إلى سورية. و على الرغم من انشغالها بمقتضيات البقاء في مواجهة قوى عارمة، لم تمس الدولة الإسماعيلية حق الفرد في الاجتهاد، و ظلت أراضيها ملاذاً آمناً يستهوى قلوب الباحثين و العلماء أياً كانت عقيدتهم.

و بعد عهد حافل بالأحداث دام ١٦٦ عاماً، اجتاحت الدولة جحافل المغول الذين توجهوا بعد ذلك إلى عاصمة العباسيين في بغداد فعاثوا فيها تدميراً.

و على الرغم من هذه النكسات المفجعة و من خطر الاضطهاد الذي ظل يلاحق الإسماعيليين، تمكنت دولتهم من صون قدرتها على التكيف بتوجيه أئمة تعاقبوا على تولي مقاليد حكمها بالوراثة. و أنشئت مراكز نشاط جديدة في شبه القارة الهندية و في أفغانستان و المناطق الجبلية من هندوكوش و أعالي نهر الأكسوس، و في عدد من مناطق آسيا الوسطى تقع الآن داخل حدود الاتحاد السوفياتي و الصين.

و يتراوح عدد أفراد الطائفة الإسماعيلية اليوم بين ١٢ و ١٥ مليون نسمة يقيمون في أكثر من ٢٥ بلداً و ينتمون إلى تشكيلة واسعة من الثقافات و اللغات و الأجناس و الجنسيات.

و قد حققت المجتمعات الإسماعيلية المختلفة، فى ظل قيادة الإمام الحالى سمو الأمير كريم أغا خان الرابع، و سلفه السير سلطان محمد شاه أغا خان الثالث، شعورا متجددا بالوحدة و التلاحم فى بنية مؤسسية متينة تدعمها جهود متواصلة من الانماء و التطوير لتحقيق التقدم و الازدهار لأعضاء الطائفة و مواطنيهم فى شتى بلاد إقامتهم.

و حتى عهد قريب، كانت دراسة تاريخ الإسماعيليين و مذهبهم تعاني من روايات معادية آلف معظمها أعداء الطائفة و غيرهم ممن نسجوا على منوالهم . و يذكر من هؤلاء مؤرخو العصور الوسطى و من عاصروهم من علماء الكلام و مروجى البدع و هواة الجدل، و كذلك مؤرخو الأحداث الأوروب يون المعاصرون للصليبيين و الذين روّجوا لحكايات من بنات أفكارهم. و من حسن الطالع أن اكتشف مؤخرا مؤلفات اسماعيلية أصيلة كانت محفوظة فى الهند و إيران و سورية و اليمن فساعدت على بعث الحياة فى الدراسات الإسماعيلية و فضح ما فى كثير من الروايات السابقة من تشويه و تزيف.

و مع ذلك فإن هواة الجدل ما زالوا مصرّين على نهجهم : و لا شك أنهم سيظلون كذلك دائما . و فى حين أن انتماءاتهم يكتنفها الإبهام و الغموض، فإن حافزهم إلى ذلك هو بث روح الفرقة و عدم الإستقرار فى أمة تعاني بالفعل من الاضطراب و هى فى أمس الحاجة، أولا و فوق كل شىء، إلى الوحدة و السلام و الانسجام لكى تتمكن من مواجهة تحديات القرن الوشيك و ما يليه من قرون بثقة و ثبات إقدام . و هذا الكتاب هو محاولة للإسهام فيما يبذل فى الوقت الحاضر من جهود بحثية جادة تسعى إلى بلوغ الأصالة.

الدكتور فاقير محمد هونزاي

الاستاذ بلب شاه

باحثان فى مؤسسة

الدراسات الاسماعيلية فى لندن

##PAGE=19##

كلمة عابرة

أما بعد، فإنه لما يضاعف عزمنا كباحثين، و يغشى قلوبنا بالطمأنينة، كطلّاب علم، أن نجد الإنسان العربى فى عصرنا هذا، و قد أخذ يجدّ فى طلب العلم، و يسعى فى دروب التطور، غير عابىء إلا بأهداف يقصدها و قصاره التحرر من الأوهام السائدة و الرواسب المتحرّرة حتى يصل إلى المعرفة المجرّدة و الحقيقة الناصعة.

و لعمرى فإن هذا الإنسان لقمين بتشجيعنا و حدينا و من حقه علينا أن نكفل له حرية التفكير و السعى و العصمة من الأقدار الجائرة فلا تستبد به و من الأساطير الرثّة فلا تسد عليه الآفاق.

هذا و لا أعرف أعظم من الحقيقة هدية تقدّم إلى طالب علم، و لا أبهى من النور يضاء أمام خابط فى ليل دامس و لا أجلّ و أشرف من الواقع و قد بزغ فهتك حجب العصور.

عند ما عزمت على تأليف هذا الكتاب التاريخي وضعت نصب عينيّ هدفاً، هو الخروج به من المجال الضيق إلى الفضاء الرحيب، فاجعله، بذلك، مرجعاً تاريخياً عاماً أو دائرة معارف، تضمّ كل ما يود طالب العلم الإحاطة بخبره من تاريخ الإسماعيلية. ولكن كان عليّ - و الحال هذه - أن أذكر حقيقة أن هكذا أعمال ينوء بها الفرد الواحد فيتضاغر عليها، و يقوم بأمرها، عدّة من رجال الاختصاص، بدعم و مؤازرة من دول أو هيئات أو مؤسسات على علاقة مباشرة بالموضوع . و لكنني كنت أعلم أيضاً أن من شأن «الدعم الرسمي أو شبه الرسمي» - إن جاء - أن يغلّ يد الباحث المؤرّخ فيجرح حياده و يلزمه بآراء و مواقف لا يراها و لا يقفها، فما كان منّي إلا الخروج إلى حريتي الفكرية، مضطعاً بالعمل الشاق هذا وحدي، متوكلاً على الله ملهم الصواب و العاصم من الزلل.

و الإسماعيلية، موضوع، استهوى المؤرخين و الباحثين، قديمهم و معاصرهم، فكتبوا و أفاضوا، فعدل بعضهم و أجحف الآخر، و وفق نفر و خاب نفر، و تعصب قوم لأهواء قديمة، و ضلّت جماعة في غامض النصوص و مبهمها، و لكن آثار هؤلاء جميعاً، ليس في متناول طالب العلم أو الباحث عن الحقيقة، بل إن جمعها بات ضرباً من المستحيل، فكان لا بد من وضع هذا الكتاب المؤلف من أربعة أجزاء، تبسط تاريخ الإسماعيلية و عقائدها أمام الباحث على أيسر سبيل و حسي من ذلك أن أكون قد أدّيت واجب العلم و واجب البلاد بخدمة تراثنا و تاريخنا، و واجب الأخوة من طلباب العلم و المعرفة و المنقبين عن الحقيقة دون هواده.

عارف تامر

سلمية ١٩٨٨

الاسماعيلية في المصادر العربية

كتب الكثير من المؤرخين في الاسماعيلية و تاريخها، و لكن ندر أن تيسر لأحد منهم، اختراق حجب الستر و التقيّة، فيقف على نصوصها و ينزّه قلمه عن التعصب و الأخذ بأقوال المغرضين من المناوئين للدعوة الاسماعيلية كبنى العباس و سواهم . و لعل ابن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) هو أول من كتب عن الاسماعيلية و تبعه غريب بن سعيد القرطبي (ت ٣٧٠ هـ) فذيل تاريخ الطبري و استعرض ما فيه و زاد عليه ما كتبه عن قرامطة البحرين و لكن دون ربط بين الحركتين و دون تعريف بهما، فجاء ما كتبه ضحلاً غير ذي نفع.

أما المسعودي (ت ٣٤٤ هـ) فلقد أتى في كتابيه «التنبيه والاشراف» و «مروج الذهب» على ذكر الاسماعيلية و لكن الرجل كان أسير خياله و استنتاجاته و خصوصا فيما تعلّق بقرامطة المشرق و فاطمى المغرب . و أما حمزة الأصفهاني (ت ٣٥٠ هـ) فلقد قصر كلامه على نشاط الاسماعيلية العسكرية دون تعرض لعقيدتهم بشىء.

و كتب هلال الصابىء (ت ٤٤٨ هـ) و مسكويه (ت ٤٢١ هـ) فأفاضوا و أفادوا و كتب ابن رزام و لكنه تخيل و تقول فجاء كلامه بعيدا بجانب الحق و الحقيقة و تبعه فى ذلك نظام الملك (ت ١٠٩٢ م) و ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) و أبو الفداء (ت ١٣٣١ م) و رشيد الدين (ت ١٣١٨ م) فحذوا حذوه أسلوبا و مضمونا . و أما شهاب الدين النويرى (ت ١٣٣٢ م) فلقد استقى ما عنده - كما إدعى - من ثقاة و كتب بتجرد و عن فهم و خصوصا عن عهد «الستر» فى «سلمية» و عن نسب الفاطميين، و لكن قد يكون المقرئى (ت ١٤٤١ م) أكثر المؤرخين توفرا على الحقيقة و دقة و قصدا فى القول و أخصّ بالثناء

##PAGE=24##

ما جاء فى خططه و فى اتعاظ الحنفاء عن الفاطميين فى المغرب و مصر و الزمن السابق عليهما . و أمّا المتكلم الكبير أبو الحسن الأشعرى (ت ٣٢٤ هـ) فلم يتوان عن التفصيل فى كلامه عن الاسماعيلية، تفصيلا غنيا مفيدا، على رغم ما بينه و بينها من بعد عقائدى. و كتب الملطى (ت ٣٧٧ هـ) فى الاسماعيلية و لكن كبير عنايته توجه للتفنيد و الدحض و ليس للعرض و الشرح و الايضاح.

أما أبو منصور البغدادى (ت ٤٢٩ هـ) و الشهرستانى (ت ٥٤٨ هـ) فلقد أسهما فى الحديث و أخذوا بقسط من التفصيل فى ذكر المصادر وافر، و إلى هؤلاء جميعا نضيف جمال الدين بن الجوزى الحنبلى (ت ٥٩٧ هـ) الذى قدّم صورة عامة و موجزة للحركات الباطنية، و محمد بن عبد العزيز الكشّى (ت ٣٤٠ هـ) فى كتابه «معرفة أخبار الرجال» و إن يكن ما كتبه هذا الأخير قد جاء دون تخطيط.

و كتب النجاشى (ت ٤٥٠ هـ) عن الاسماعيلية فأضاف جديدا و قرب الأمر إلى الأذهان، و مثله فعل النوبختى (ت ٩٩٢ م) فى كتابه «فرق الشيعة» حيث تعرض للإسماعيلية بتجرد و اعتدال - كما إدعى.

و إلى هؤلاء ثمة أسماء كالاسترابادى و ابن خلدون و السيوطى و ابن القلانسى و ابن النديم و النيسابورى و ابن خلكان و ابن حوقل و ثابت ابن سنان و ابن عذارى المراكشى، تعرض أصحابها إلى موضوع الاسماعيلية و أجمعوا على اعتبارها من أعظم الحركات الفكرية التى انبثقت فى العالم الإسلامى.

هذا و لا يجوز إغفال ذكر الأمير المختار عز الملك المسبحى صاحب كتاب «أخبار مصر» فهذا المؤرخ كما سيرد ذكره، قد عاش فى ظل الدولة الفاطمية و كتب عنها بحياد المؤرخ و نزاهته، و مثله القاضى محمد بن سلامة الشافعى الذى عاصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله و كتب «المختار فى الخطط و الآثار» فأفرد للاسماعيلية صفحات تميزت بالدراية و الفهم العميق و الاعتدال و قد اقتبس القلقشندى و ال مقرئى عنه بعضا من أفكاره . كما لا يجوز إغفال ذكر ابن منجب الصيرفى (ت ٥٤٢ هـ) و كتابه «الإشارة إلى من نال الوزارة» و ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٣ هـ) و كتابه «رفع الأصر عن قضاء مصر» و لا يبررس المنصورى الداودار (ت ٧٢٥ هـ) فى كتابه «زبدة الفكرة»

##PAGE=25##

فى تاريخ الهجرة» كل شىء عن العقائد الاسماعيلية إلى جانب القضاء.

يبقى ذكر ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ) و كتابه «أخبار مصر»، و ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى و كتابه «الفخرى فى الآداب السلطانية» و «الدول الإسلامية» و قد تطرق على صفحات كليهما إلى الاسماعيلية و ذكر ابن عبد العزيز البكرى (ت ٤٨٧ هـ) و كتابه «المسالك و الممالك»، و الماوردى (ت ٤٥٠ هـ) و قد خصص قسما من كتابه للبحث فى شؤون العهد الفاطمى، و ابن إياس (ت ٩٣٠ هـ) و كتابه «بدائع الزهور» و ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ) و كتابه «النجوم الزاهرة» و أخيرا من القرن الماضى على باشا مبارك (ت ١٣١١ هـ) و كتابه «الخطط التوفيقية».

غير هؤلاء، كابن العديم و ابن العبرى و سواهما، فعددهم كبير و هم و إن اقتصروا فى ذكرهم للإسماعيلية على إشارات عابرة، إلا أن كتاباتهم لم تخل من قيمة و فائدة.

المصادر العربية الحديثة

قد يكون الدكتور طه حسين، عميد الأدب العربى، و العلامة أحمد زكى باشا، و محمد كرد على من الأوائل الذين فتحوا باب البحث فى الاسماعيلية على مصراعيه، فى عصرنا هذا، و كانت رسائل أخوان الصفاء مادتهم الأساسية الأولى، و لكن أبحاثهم جاءت ضعيفة قوامها الاستنتاج، و هم معذورون فالمصادر الاسماعيلية لم تكن فى متناول الباحثين فى تلك الآونة.

تلا هؤلاء الدكتور حسن ابراهيم حسن، فكتب أقوم الكتب عن تاريخ الاسماعيلية و الدولة الفاطمية و مثله فعل الدكتور محمد كامل حسين الذى اختص بالاسماعيلية و توفّر على تدريسها فى جامعة القاهرة و كتب ما أراه قمة فى هذا الميدان حيث تبعه طه أحمد شرف و يحيى الخشاب و الدكتور محمد مصطفى حلمى الذى تميّز فى كتاباته بفهم، للنصوص الفلسفية، عميق، كما كتب عن الاسماعيلية من الوجهة السياسية و الاجتماعية عطية مشرفة فكان موضوعا و معتدلا.

و من هؤلاء، فلقد كتب عادل عوا و محمد يحيى الهاشمى و جميل صليبا الذى أخطأ فنسب كتاب «جامعة أخوان الصفاء»

##PAGE=26##

للمجريطى، و عباس عزوى و عبد العزيز الدورى و عبد اللطيف الطيباوى و زكى نقاش و كانوا جميعا على جانب من الانصاف و الفهم و التجرد الذى لا ينكر.

أمّا عبد الرحمن بدوى و محمد عبد الله عنان فلقد جرفهما تيار التعصب الدينى الذميمة فانجرفا و جاء ما كتبا مليئا بالسباب و الشتم و الافتراء، و دليلا على الحقد و الجهل و المحل و الاستسلام إلى ما طواه الزمان من قديم الاحن و العداوات و نشرها و الخروج على الأدب و العلم و النزاهة.

##PAGE=27##

المصادر الاسماعيلية

النكبت المتتالية التي أحقت بالمكتبات الاسماعيلية، كنكبة «سلمية» على يد القرامطة و نكبة مصر على يد صلاح الدين الأيوبي الذي أتلف مكتبة الفاطميين و كانت تضم ملايين المجلدات، و نكبة طرابلس الشام على يد الصليبيين الذين نهبوا مكتبة «آل عمّار» و أتلّفوا ما لم يحملوه معهم إلى بلادهم و أخيرا نكبة «الموت» التي أباد مكتبتها هولاءكو، ناهيك بما فعله الأتراك بآثار الاسماعيليين في بلاد الشام، كل هذا يجعل من العسير القول عن عناية الاسماعيليين بالتاريخ، فما تبقى من كتبهم في المكتبات الخاصة يوحى بأنهم قد قصروا اهتمامهم على الفلسفة و العلوم و الآداب و لا أعرف سوى كتب قليلة العدد تعرض للتاريخ ككتاب «سيرة جعفر الحاحب» التي نقل فيها مؤلفها محمد اليماني وقائع انتقال عبد الله المهدي إلى المغرب و قيام الدولة الفاطمية و كتاب «افتتاح الدعوة» و كتاب «المجالس و المسابير» للنعمان بن حيّون المغربي الذي يؤرخ فيهما لفترة طويلة من تاريخ الدولة الفاطمية، و كتاب «عيون الأخبار» و كتاب «نزهة الأفكار» لإدريس عماد الدين و هما من المصادر الاسماعيلية القيّمة، و إلى هذا و ذاك فتّمّة مذكرات المؤيد في الدين، داعي الدعاء، التي أرّخت لفترة من عهد المستنصر بالله طويلاً، و كتاب «فصول و أخبار» لنور الدين أحمد و هو كتاب قيّم جدا و عندي منه نسخة مخطوطة فريدة و نادرة.

ثمّة أيضا «سيرة جودر الكاتب» التي كتبها رجل مغمور اسمه منصور الجودري العزيزي و كان قد دخل في خدمة جودر سنة ٣٥٠ هـ و صار ثقته و موضع سرّه حتى مات جودر فاتصل بالخليفة المعزّ لدين الله فعينه مكان جودر.

يقصّ هذا الكتاب سيرة جودر الصقلّي الذي دخل في خدمة عبد الله المهدي بالله أول خلفاء الفاطميين في المغرب، و كيف أن المهدي أهداه إلى ولي عهده القائم بأمر الله، فترسّخت أواصر الودّ و الثقة بين القائم و بينه حتى أن القائم بأمر الله و كان بعد وليا للعهد، استخلفه على قصره بمن فيه و ما فيه عند ما خرج إلى إحدى الحروب التي خاضها،

##PAGE=28##

ثمّ لما توفي المهدي خصّ الخليفة القائم بأمر الله جودرا دون سائر أهله و رجال الدعوة برتبة الوصاية على ولي العهد المنصور بالله و قد ظلّ الأمر سرّاً مدة ثلاثة أعوام حتى أذاعه القائم بأمر الله على الملأ.

و يروى الكتاب كيف ارتفعت درجة جودر في عهد القائم بأمر الله الذي أوكل إليه أمر بيت المال و النظر في خزائن الكساء و أسفره فيما بينه و بين الناس، فصار له من النفوذ و السلطان ممّا جعل الناس تهابه و توقّره، و لكنه كان محبّا للخير عطوفا على الفقراء، و الضعفاء و المحرومين، ثمّ لما توفي القائم بأمر الله كتم المنصور بالله الأمر فظلّ سرّاً بينه و بين جودر فلقد مضى المنصور بالله في تلك الأيام إلى حرب الخوارج مستخلفا جودرا على دار الخلافة، حتى إذا عاد من الحرب نعى أباه، و أكرم جودرا فأعتقه و لقّبه «مولى أمير المؤمنين» و أمره أن لا يكتنّى أحدا في رسائله و أن لا يقدم على اسمه اسم أحد من الناس إلّا اسم الخليفة و اسم ولي العهد، و أن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة و ولي عهده، إمعانا منه في تكريمه.

و يروى الكتاب كيف مكث جودر يتقلّب في نعمة أسباده حتى إذا أراد الانتقال إلى مصر للحاق بسيد الخليفة الفاطمي الرابع «المعزّ لدين الله» أدركته منيته سنة ٣٦٢ في مكان يدعى «مياسر» بالقرب من برقة.

هذا ما جاء في سيرة جودر التي لا تنحصر أهميتها بالتأريخ لمرحلة أولى من تاريخ الفاطميين في المغرب أو بالترجمة إلى أحد رجال دولة الفاطميين، ممن أغفل المؤرخون ذكره، بل تتعدى ذلك لتعرض خبر الانتفاضات العنيفة التي قامت في المغرب، و خبر العلاقة بين صقلية و الدولة الفاطمية، فضلا عن تقديم صورة لما كان يجري في البلاط الفاطمي آنذاك، فالكتاب يروى كيف طلب المنصور بالله إلى جودر أن يراقب أبناء عمومته و يرصد تحركاتهم عند ما توجه هو إلى حرب الخارجين على الدولة.

أما كتاب «سيرة جعفر الحاجب» فعلى سقم لغته و ركاكتها فإنه يروى خبر انتقال عبد الله المهدي من سلمية إلى المغرب و قد رافقه المؤلف محمد اليماني في رحلته، و أما كتاب «استتار الإمام» ففيه ذكر أسماء العديد من الدعاة الذين عاشوا في «دور الستر» و يؤكد أن بعضهم أدرك قيام الدولة الفاطمية في المغرب كأبي غفير و أبي

##PAGE=29##

سلامة و أبي الحسن الترمذي و جواد الخثعمي و أحمد بن الموصلي و أبي محمد الكوفي و غيرهم.

و أما كتاب «فصول و أخبار» فما زال مخطوطا و فيه قضايا تتعلق بأدوار الأئمة و مراتبهم كانت خافية على المؤرخين.

المصادر الاسماعيلية الحديثة

يعتبر عبد الله المرتضى، أول اسماعيلي وضع كتابا عن الاسماعيلية في عصرنا الحاضر و قد سمّاه «الفلک الدوار في سماء الأئمة الأطهار» و جاء بعده مصطفى غالب، فحقق و كتب العديد من الكتب الاسماعيلية و جلّها تميّز بالجهد الشاق.

أما محمد حسن الأعظمي فعلى رغم كل ما كتبه فإنه لم يفلح في تعريف الاسماعيلية و تقديم فكرة ذات غذاء فكري عنها، و أما حسين همذاني فكتابه و مباحثه عن تاريخ الاسماعيلية في اليمن من أقوم المصادر التاريخية و لا يمكن ان ننسى ابنه «عباس» هنا فلقد سار هذا على آثار أبيه.

أما آصف بن علي أصغر فيضي، فهذا العلامة لو لم يكن من أمره سوى أنه قدّم لنا كتاب «دعائم الإسلام» لكفاه ذلك فخرا، و مثل ذلك نقول في السيد زاهد على الذي شرح و قدّم ديوان الشاعر ابن هانيء الأندلسي فدلل على تمكن من اللغة و تضلّع بالأدب و الفلسفة.

و أخيرا نشير إلى العديد من الأطروحات الجامعية و المقالات و المحاضرات التي كتبها طلاب اسماعيليون جاءت مفيدة و مدخلا إلى المدينة الاسماعيلية.

##PAGE=30##

المصادر الأجنبية و المستشرقون

بدأت الكتابة بلغات أجنبية عن الاسماعيلية، بالفعل، في مطلع هذا القرن، عند ما نشر ستانيسلاس غويارد drayUG و بعض مقتطفات عن اسماعيلية آسيا الوسطى، و عثر غريفيّني oineguE سنة ١٩٠٥ م على عدد sualsinatS

من مصنفات الاسماعيلية فى اليمن و قد أجمل ذكرها فى مقال عام ثم جاء دوزى yzoD trahieR و توماس ارنولد dlonrA samohT و سيلفستر دى ساسى ycaS ed ertsevliS و شارل ديفرميرى yrem ?erfeD selrahC و مامور برنس ecnrP .M و موريس برايس .M .ecirP و بروكلمان nnamlektorB و مينورسكى ykroniM و هودغسون .S .G llahsraM .nosgdoH و براون enworB و نيكلسون noslohciN فكتبوا عن الحركة الاسماعيلية و ذيلوا مصادرها و علّقوا عليها فجاء بعض ما كتبوه رائعا و من الأهمية بمكان.

أمّا أبرز هؤلاء فى هذا المجال فهو ايفانوف .W .wonavl الذى وجّه اهتمامه إلى اسماعيلية بلاد فارس فعبد الطريق أمام من تلاه و كشف أمورا غامضة و كل ما تعلّق بدولة «الموت» الاسماعيلية النزارية، و تلاه برنارد لويس .B .siweL الذى اختصّ بتاريخ اسماعيلية بلاد الشام.

و من المستشرقين البارزين الذين وجهوا عنايتهم إلى تاريخ الدولة الفاطمية سترن nretS أما ماسينيون nongissaM و siuol فرما كان أول مستشرق اهتم بموضوع القرامطة، و أما هنرى كوربان yrneH nibroC فقد توجه إلى الفلسفة الاسماعيلية و تميّزت كتبه بالموضوعية و الفهم العميق للنصوص و معانى التأويل.

و أخيرا نذكر تومبسون nospmohT و ديتريشى .F .H .icireteiD و غولديهر rehizdloG و كراوس suarK luaP و ماكدونالد dlanodcaM و كازانوفاف avonasaC فلهؤلاء كتابات لا تخلو من فائدة.

و أما ما صدر فى الآونة الأخيرة عن الاسماعيلية باللغات الأجنبية فهو كثير و لكنه جاء تنمّة أو نقلا عن المصادر التى سبقتة و قد يكون من المبكر جدا الآن اثبات اسماء أصحابها مع أسماء من ذكرنا قبل أن ندرسها و نصنّفها بالقدر الكافى .

##PAGE=31##

ما قبل الإسلام

##PAGE=33##

المجتمع الجاهلى

عاش العرب قبل انبثاق رسالة الإسلام السمعاء فى «جاهلية» أقل ما يقال عنها: أنها كانت متخلفة فى نظمها و أفكارها و مبادئ حياتها، تسيرها و تتحكم بوجودها القبليّة الموروثة و يسودها أقوام اتخذوا من الأصنام أربابا يحرقون لها البخور و ينحرون أمامها القرابين، و عن قبائل يتسابق أفرادها على و أد بناتهم و هم فى صحرائهم القاسية يتقاتلون على الكأ و مناهل المياه، و على النفوذ و السيادة، جاعلين من الغزوات و الغارات مبدءا عاما لحياتهم، و قانونا يستمدون من مواده وجودهم و بقاءهم.

كان المجتمع الجاهلى قبل شروق فجر الإسلام مطوقا من النواحي كافة بجيوش التخلف و الجهل، و كان يشكو من ضياع القيم، و فقدان الروحية، فلم يكن له ما يصح أن يسمى بحق كيانا خلقيا، أو سبيلا واضحا للسمو بالفرد أو الجماعة إلى

هدف يظهره من نوازع الشر، و يحمله على إقامة الروابط الاجتماعية على أسس أخلاقية متينة و بعيدة كل البعد عن المنفعة و الأنانية.

و قد كانت الحياة القبلية، أو بلغة أصح الحياة العنصرية و التي تتفرع منها الاقليمية و العشائرية و العائلية، تسيطر على ذلك المجتمع البدائي سيطرة تفرض عليه الاستسلام لفوضى اجتماعية طاغية، و لانحراف غريب بواقعه، فأنظمة الاقطاع، و قوانين العشائرية، و ما يتفرع عنها كانت تخيم بجيوشها على ذلك المجتمع المضطرب، فتحول ه دوءه إلى اضطراب، و ازدهاره إلى انحطاط، و سموه إلى هبوط.

و لكننا عند ما نذهب بتطلعاتنا إلى البعيد البعيد، أو حينما نحاول سبر أغوار القضايا المغلقة نرى لزما علينا أن نعود إلى أنفسنا لنسألها

##PAGE=34##

و نحن بأمس الحاجة إلى المزيد من المعرفة : هل كانت عقول أبناء هذه القبائل العربية مغلقة كليا، و آفاق نفوسها مسدودة عموما؟

إن الجواب عن هذا السؤال يوضح أن عناصر الفضيلة، و كرم الأخلاق، و الصدق، و المروءة، و عزة النفس، و الحفاظ على الجار، و تأدية الأمانة كلها كانت صفات حية في أعماقهم، و متيقظة في وجدانهم ...

هذا إلى جانب عقل كان يرنو إلى قبس منتظر ينير سبيله، و يضيء عليه الضياء، و يلحقه بالمعرفة الإنسانية، و بدم جديد يغير واقعه و حياته و وجوده، و يخرج من الظلمات إلى النور، حيث العزة و الكرامة.

و تشاء الأقدار ... و بعد انتظار طويل، و مخاض عسير أن يخصّ الله الجزيرة العربية بالعهد الفتى، و الغيث الروى، فيظهر قبس الإسلام من خلال الظلام حاملا نفحات الأمل و الرجاء و الاستبشار . و بظهوره أخذت تلوح في الأفق تباشير الحياة الكريمة، و الاستقرار، و الاطمئنان . و بين عشية و ضحاها انقلب المجتمع الغارق في الجاهلية إلى مجتمع متطور أخذ يسير في دروب النور و الكمال، و انمحت التعاليم الوثنية من أفكار الكثيرين بسرعة مذهلة، و زال كل أثر من آثار الجاهلية المتطرفة ... و لكن كل هذا لم يحصل إلا بعد حروب دامية سقطت في ساحاتها الضحايا البريئة، و كانت النتيجة أن رسخت فكرة الخير و الفضيلة، و عبادة إله قدير، و إطاعة رسول كريم أمين.

و مهما كان من أمر، فالرواسب النفسية التي خلفتها الجاهلية و الوثنية لم تكف عن عملها في تسميم المجتمع، و بث عناصر الفوضى في كيانه. و كل هذا كان يظهر لكل ذى عينين . فالتغلب على النهضات الإصلاحية، و الرسائل السماوية لم يكن يتم بسهولة.

مما لا مجال للريبة فيه أن النبي العظيم محمد صلى الله عليه و آله جاء برسالة تدعو إلى اصلاح مجتمع طغى عليه الفساد، و جاء يبشّر و ينذر الأصدقاء و الأعداء بالدين الجديد، حاملا بيديه قبس الخير و الصلاح، داعيا إلى الانضواء تحته، و الاستئلال بظله.

و الرسول الكريم، هذا المصلح الاجتماعى الكبير ينحدر كما هو معروف من بيت عريق فى السيادة ... بيت عرف عن أصحابه بأنهم

##PAGE=35##

ينحدرون من اسماعيل بن ابراهيم الخليل جد العرب ... إذن فالعرب مجبرون بحكم وجودهم فى تلك الرقعة من الأرض العربية التى عمرها اسم اصيل على السير وراء القائد الحكيم و النبى العظيم دون معارضة، لا سيما و قد حمل لهم كل الخيرات و الطمأنينة و الحياة الأفضل.

كان عليهم أن يسلموا أمورهم إليه طوعا و اختيارا، فأفراد هذه الأسرة النبيلة اشتهروا بالصدق و الاخلاص و التفانى فى سبيل الواجب، و بالحفاظ على الأمانة و الوفاء و خدمة الأماكن المقدسة.

و لكنها النفوس التى تعودت التصدى للخير و للحق النفوس التى آثرت الذل و الخنوع و رضيت بالمهانة هى لم تتغير منذ فجر التاريخ.

و أبرز من اتسم إسلامهم بالزيف بعض القرشيين من طلقاء مكة، و هؤلاء أسلموا بعد الفتح ... و أنه لا يستطيع أحد أن يمارى فى أن الإسلام الذى اعتنقه هؤلاء لم يكن صادرا عن ايمان فى القلب، و إنما نرى أن هذا الفريق قد أخذ يتربص فيما بعد للمسلمين و يكيد لهم، و أنه ظل على كفره، يضع العصى أمام العجلات، و يقف للدعوة بالمرصاد محاولا ايقاف عطائها. و من تأثيرات هؤلاء ارتداد بعض الاعراب عن الإسلام، و ادعاء النبوءة من قبل آخرين، كالأسود العنسى، و علقمة بن علاثة، و أم رفل سلمى بنت مالك، ثم استفحال أمر مسيلمة و طليحة و غيرهما . و كل هذا معناه أن رواسب العقيدة القديمة الموروثة ظلت فى صراع مع الدين الجديد ... و كثيرا ما كانت الدعوة الباطلة تقف حجر عثرة فى سبيل الاصلاح و الخير، و لكن إلى حين.

و من الملاحظ أن الشرقيين الأوسط و الأدنى فى أوائل القرن السابع للميلاد كانت تتقاسمهما امبراطوريتان عظيمتان متنافستان هما:

الامبراطورية البيزنطية، و الامبراطورية الفارسية:

فالبيزنطية كانت عاصمتها القسطنطينية و هى اغريقية مسيحية فى ثقافتها و ديانتها، و رومانية فى إدارتها و حكومتها، و لكن السخط كان على حكامها قائما بسبب الضرائب الجائرة و الانحراف و الفساد، و كانت الكنائس و رجال الدين فى صراع مستمر مع الامبراطور صاحب المذهب الرسمى.

##PAGE=36##

أما الفارسية فكانت تتخبط فى أنظمة غير مستقرة و تعاني نقصا فى تطبيق القوانين و العدالة الاجتماعية و كان يرافقها بروز سلسلة من الهرطقات الدينية الخطرة التى كانت تهدد وحدة الامبراطورية الدينية و السياسية.

و أخيراً، فمن سنة ٦٠٢ م إلى سنة ٦٢٨ م نشبت آخر حرب بين البيزنطيين و الفرس و هى الحرب التى انتهت بهزيمة الفرس، و لكنها تركت كليهما محطماً واهنا أمام النور الذى كان موشكا على الظهور فى الصحراء العربية.

##PAGE=37##

فى ظلّ الانشقاق

##PAGE=39##

التبشير بالدعوة

كان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب متحنّاً كعادته فى غار فى جبل حراء الواقع شمالي مكة، عند ما سمع صوتاً يأمره أن: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ...^١.

و منذ تلك الليلة، «ليلة القدر» عام ٦١٠ م، انطلق محمد لينذر «عشيرته الأقربين» و مكة و ما حولها و يدعوهم إلى نبذ الأصنام و إلى الاعتصام بالواحد الأحد الذى لا شريك له و لا ولد، الله خالق السماوات و الأرض، الذى يجزى كل امرئ بما كسبت يده، خيراً بخير و شراً بشر، يوم لا يجزى والد عن ولده و لا مولود عن والده شيئاً.

استقبل بعض المكّيين الرسالة و الرسول بالاستهجان أولاً ثم الاستهزاء و النبذ بالألقاب ثم بالإساءة و الإيذاء و لكن محمداً لم ينكص على عقبيه، بل مضى فى سبيل ما بعثه به ربه، قدماً، رافضاً ما عرض عليه من ملك و مال، ممّا أوغر الصدور عليه، و آلب وجهاء مكة و كبارها على الدعوة، إنكاراً منهم لما جاءت به، و خوفاً على مصير مكة و تجارة قريش، منها.

كانت خديجة زوج الرسول أول من آمن به و تلاها على بن أبى طالب و أبو بكر و هما أول من أسلم من الرجال ثم بدأت الدعوة تنتشر بين العبيد و المستضعفين، الأمر الذى زاد من حقد أثرياء مكة على

##PAGE=40##

الرسول، فأخذوا ينگّلون بمن تحت أيديهم من أتباع الدعوة الجديدة حتى أمر محمد أتباعه بالهجرة إلى الحبشة فخرجوا فى هجرتين.

ثمّ دخل عمر بن الخطاب، و كان من أشد القرشيين وقيعة فى المسلمين، دخل فى الإسلام فكان دخوله نصراً كبيراً، و إن لم يحل دون محمد و القرار الكبير الذى اتخذه عام ٦٢٠ م، بترك مكة و الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة) بلد أمّه آمنه، إثر لقائه فى عكاظ بجماعة من الخزرج الذين سمعوا منه تعاليم الرسالة و طابت نفوسهم بها.

و فى سنة ٦٢٢ م خرج الرسول من مكة خفية، متوجهاً إلى المدينة، فاستقبله أهلها استقبالا كريماً، و سمّاهم الأنصار و استقرّ فى يثرب دار هجرته عزيز الجانب، مكرّماً، يعمل على تنظيم الدعوة و بثّها و نشرها فى كل مكان.

^١ (١) القرآن الكريم، «سورة العلق»، الآية ١- ٥.

و في العام ٦٢٤ م خاض المسلمون أول معركة ضد المكيين فانتصروا عليهم انتصارا معجزا، في وقعة بدر الشهيرة، فلقد كانوا قلة و لكن **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ** ^٢.. بيد أن أهل مكة سرعان ما ثأروا من المسلمين في وقعة أحد التي سقط فيها ثلث من أعلام المسلمين و فرسانهم كحمزة بن عبد المطلب عم النبي، فضلا عن الإصابة التي تلقاها النبي في وجهه، و لكن المعركة هذه لم تكن لتغيّر من الواقع الذي كرسته بدر شيئا : لقد صار الإسلام قوة لا يستهان بها و لم يعد عقيدة قوم يدافعون عن أنفسهم أو يفرون.

و في سنة ٦٢٧ م هاجم الأحزاب، و هم المكيون و جماعات من البدو و من مرتزقة الحبشة، المدينة و لكن الخندق الذي أشار به الصحابي سلمان الفارسي على الرسول، عصمها فانسحب المغيرون و مضى المسلمون لتصفية الحساب مع اليهود الذين ناصروا المشركين، و كان بنو النضير أول من أجلى ثم تلاهم بنو قريظة فيهود خيبر.

و في سنة ٦٣٠ م، عاد محمد إلى مكة ففتحها و أمر بأصنامها فأزيلت و **جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً** ^٣ ثم خطب

##PAGE=41##

٤

في أهل مكة و سألهم ما يظنون أنه فاعل بهم فأجابوه أنه أخ كريم و ابن أخ كريم فعفا عنهم و قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

و في السنة التالية و تسمّى «سنة الوفود» دخلت القبائل في «**دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً**» و في السنة التالية ٦٣٢ م حجّ الرسول آخر حجة له و هي «حجة الوداع» فبعدها بثلاثة أشهر انتقل إلى الرفيق الأعلى صلى الله عليه و آله.

في تلك الحجة الأخيرة، مال الرسول بأصحابه إلى مكان يدعى غدير خم فخطب فيهم و قال:

«أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، و إني مسؤول و أنكم مسؤولون، فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك بلغت و جهدت و نصحت، فجزاك الله خيرا، فقال صلى الله عليه و آله : «أليس تشهدون أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله، و أن جنته حق و ناره حق و أن الموت حق، و أن البعث حق بعد الموت و أن الساعة آتية لا ريب فيها، و أن الله يبعث من في القبور؟ قالوا بلى نشهد بذلك، قال اللهم أشهد» (الحديث).

ثم حضّ على التمسك بكتاب الله و وصّى بأهل بيته، فقال:

إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله و عترتي أهل بيتي و لن يتفرقا حتى يردا على الحوض . و قال في حقّ على كرم الله وجهه لما كرر عليهم أ لست أولى بكم من أنفسكم ثلاثا و هم يجيبونه صلى الله عليه و آله بالتصديق و الاعتراف، و رفع

^٢ (2) القرآن الكريم، «سورة آل عمران»، الآية 123.

^٣ (3) القرآن الكريم، «سورة الإسراء»، الآية 81.

^٤ تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه، 4 جلد، رياض الريس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَدُ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ وَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ وَأَحَبَّ مَنْ أَحَبَّهُ وَأَبْغَضَ مَنْ أَبْغَضَهُ وَأَنْصَرَ مَنْ نَصَرَهُ وَأَعَنَ مَنْ أَعَانَهُ وَأَخَذَ مَنْ خَذَلَهُ وَأَدْرَ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ . (السيرَةُ الحَلِيبِيَّةُ بَلْفُظِ الطَّبْرَانِي، ج ٣ ط ١٢٨٠ هـ وَكُنْزُ الْعَمَالِ ج ١٢ ط حَيْدَرَأَبَادِ الدَّكْنِ، مَكْرَرًا).

حديث الغدير هذا، و يسمى أيضا «حديث الثقلين» تعتبره الشيعة نصًّا و وصية من الرسول الكريم للإمام عليّ بالخلافة من بعده، التي آلت، على رغم ذلك، إلى أبي بكر الصديق و من بعده إلى عمر بن الخطاب، فعثمان بن عفان كما هو معروف . لكن السلطة الروحية ظلت للإمام عليّ.

الفريق المعارض، لا يرى في الحديث نصًّا و لا وصية، بل إشادة بمناب الإمام و هي لا ينكرها منكر و لا يجحدها جاحد، و نحن لا نودّ هنا، الخوض في هذه المسألة التي لطالما عانى المسلمون ما جرته عليهم من فرقة و بلاء، بل نخلص إلى ما يعيننا أمره في بحثنا هذا، و أعني بذلك الشيعة.

##PAGE=42##

التشيع و الخلافة

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَعَاثَهُ ١ لَذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ...»^٥.

الشيعة إذن تقابل العدو، و الشيعة لفظ لم يكن وقفا على موسى و لا على عليّ، بل «وإنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ»، و يعنى عند الزمخشري: «من شيعته، ممن شايعه على أصول الدين و إن اختلفت شرائعهما، أو شايعه على التصب لب في دين الله و مصابرة الكاذبين...» (الكشاف ج ٢ / ٦٠٤).

و جاء في التاج للزبيدي: «و شيعة الرجل أتباعه و أنصاره، و كل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة» و قال الأزهري: «معنى الشيعة: الذين يتبع بعضهم بعضا و ليس كلهم متفقين». و في الحديث «القدرية شيعة الدجال» أى أولياؤه.

«و أصل الشيعة الفرقة من الناس على حدة و كل من عاون إنسانا و تحزّب له فهو شيعة . و يقع على الواحد و الاثنين و الجمع و المذكر و المؤنث، بلفظ واحد و معنى واحد. و قد غلب هذا الاسم على كل من يتولّى عليا و أهل بيته (رض) حتى صار اسما لهم خاصا فإذا قيل فلان من الشيعة عرف أنّه منهم و فى مذهب الشيعة كذا، أى عندهم، أصل ذلك المشايعة، و هى المطاوعة و المتابعة الخ» (تاج العروس ج ٢١ فصل الشين المعجمة مع العين ص ٣٠٢ - ٣٠٣ - الكويت).

هذا بعض ما نعرف عن لفظ الشيعة لغة، و نحسبه كافيا، و لكن السؤال الآن هو: فى أىّ زمان نشأت الشيعة، أى حزب على و من والاه و ذريته و أهل بيته من المسلمين؟

^٥ (4) القرآن الكريم، «سورة القصص»، الآية 15.

^٦ (5) القرآن الكريم، «سورة الصافات»، الآية 83.

تتضارب، هنا، الآراء و تذهب كل مذهب، فالبعض يقول بأن الشيعة اجتمعت أول مرة يوم السقيفة على تقديم على من عداه من الصحابة، و يذهب فريق آخر فيقول بأن الشيعة قد تكونت يوم الدار الذي كان من نتيجته مصرع الخليفة الراشدي الثالث عثمان،

##PAGE=43##

و يذهب فريق ثالث إلى القول بأن الشيعة ولدت يوم وقعة الجمل، و قال فريق بولادتها في حرب صفين . أمّا الشيعة نفسها فنذهب إلى القول بأن التشيع كان موجودا حتى على عهد الرسول و في أيامه.

الخلافة يقول الشهرستاني: «و أعظم خلاف في الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان ...» (الملل و النحل ج ١ ص ٢١ / ٢٢ ط - المثنى).

ثلاثة أحزاب تنازعت فادّعت أحقيتها بالخلافة: المهاجرون و الأنصار و أصحاب النصّ و التعيين، أى الشيعة:

تخلف على و نفر من الصحابة لتجهيز الرسول لدفنه، و اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فانطلق أبو بكر الصديق بالمهاجرين إليهم فوجدوا خطيب القوم يقول:

«.. أمّا بعد فنحن أنصار الله و كتيبة الإسلام، و أنتم يا معشر المهاجرين رهط نبينا و قد دفت داف ة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا و تحصنونا من الأمر ...».

فقام أبو بكر و قال:

«أما بعد، فما ذكرتم من خير فأنتم أهلّه، و ما تعرف العرب هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريش : هم أوسط العرب نسبا و دارا، و قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئت».

و أخذ بيد عمر بن الخطاب و يد أبي عبيدة بن الجراح، فكثر اللغط و هنا قال عمر : «ابسط يدك يا أبا بكر» فبسط يده فبايعه و بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار . (باختصار عن السيرة لابن هشام ج ٤ ط السقا و الأبياري و شلبي ص ٣٠٩ فما تلاها).

لم يبايع علىّ و تطوّر الخلاف في الإمامة فصار على الذي تكون به الخلافة «أهو النص من صاحب الشريعة أم هو اختيار أهل الحل و العقد من المسلمين لمن يلي أمرهم؟ و هل يجب على المسلمين أن يكون لهم خليفة يقيم الحدود و يسدّ الثغور و يجهّز الجيوش للجهاد و يولى القضاء و الحكام و يحمى بيضة المسلمين؟ أم لا يجب عليهم ذلك مطلقا؟ أم يجب عليهم في حال دون حال؟».

الدين لا ينبغي أن يظنّ ظان أن الرسول صلّى الله عليه و آله أهمله أو أغفله أو فوضه إلى العامة أو أرسله إرسالا «و مؤدّى الكلام أن الإمامة

##PAGE=44##

سلطة دينية تقاس بالنبوة، وليست شأنًا شورياً يتفق المسلمون عليه، فالأمة قد تجمع على الخطأ أو على الكفر، و من هنا كان لا بد من إمام معصوم فلا بدّ للشرعية من حافظ معصوم، يؤمن من جهته التغيير و التبديل و السهو، ليتمكن المكلفون من السير إلى قوله، و هذا هو الإمام».

##PAGE=45##

الخلفاء

##PAGE=47##

الخلفاء الراشدون

١- أبو بكر الصديق

«عبد الله بن أبي قحافة» ٥٧٣ م - ٦٣٤ م - ١٣ هـ، أول الخلفاء الراشدين ١١ - ١٣ هـ / ٦٣٢ - ٦٣٤ م، أبو عائشة زوج النبي الكريم محمد صلى الله عليه و آله و محمد بن أبي بكر ربيب الإمام علي.

حارب أهل الردّة، و قضى على مسيلمة الكذاب، و حضر أكثر معارك النبي و وجه أسامة بن زيد إلى الشام لفتحها و خالد بن الوليد إلى العراق. توفي في المدينة.

٢- عمر بن الخطاب

توفي عام ٢٣ هـ ٦٤٤ م، هو ثاني الخلفاء الراشدين ١٣ - ٢٣ هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤ م. لُقّب بالفاروق لعدله، و في عهده تم الانتصار على الامبراطوريتين الساسانية و البيزنطية. اغلظه مولى فارسي بطعنة خنجر.

٣- عثمان بن عفان

قتل في بيته عام ٣٥ - ٦٥٦ م، ثالث الراشدين قرشي أموي و من أثرياء مكّة، أسلم على يد أبي بكر، تزوّج رقية بنت النبي ثم أم كلثوم، فلُقّب بذي النورين. جمع القرآن الكريم.

٤- علي بن أبي طالب

استشهد سنة ٤٠ هـ - ٦٦١ م، ربيب النبي و ابن عمّه و زوج ابنته فاطمة و لا نسل للنبي إلّا منها، أحد أبطال الإسلام، و أبلغ العرب و أقضاهم، ولى الخلافة سنة ٣٥ هـ - ٦٥٦ م و كان عهده عاصفاً،

##PAGE=48##

قامت في وجهه حركة البصرة التي انتهت بموقعة الجمل و الحركة الأموية، ضربه خارجي بسيف مسموم على رأسه في المسجد فمات متأثراً بجراحه.

اتخذت الدولة الأموية الحاكمة منذ قيامها من العنصرية العربية قاعدة للحكم، و أساسا للوجود . فكانت لا تعتمد إلا على العناصر التي تتحد من أصل عربي، و ذلك بالرغم من خضوع شعوب و قبائل مسلمة غير عربية إليها، و تطور الأمر لديها لدرجة أنها لم تعد تعنى بغير العرب على اعتبار أنهم أفضل الأقوام، و أكثرهم أهلية و جدارة لتولى المناصب و حمل المسؤوليات. و هكذا جعلت منهم الولاة، و القواد، و وزراء الدولة، و العمال، و حكام الأقاليم، و أمراء المقاطعات فضلا عن أنها منحتهم الأفضلية فى السيطرة على الاقتصاد، و استلام زمام الأسواق التجارية و المهنة الزراعية، و كل هذا أكسب العناصر العربية الجاه الرفيع، و النفوذ الواسع، و المكانة العليا لدى الخاصة و العامة، و لكن فى مقابل ذلك انبثق حسد الموالى و غيرتهم و نفورهم من هذا الحكم، و أخيرا التصدى له بعد أن فقد كل أمل بالإصلاح الذى وعدوا به، و بإيجاد المساواة و العدالة. و انضموا إلى جماعة الشيعة المعارضين و على رأسهم «العلويين» الذين كانوا يتمتعون بمكانة كبرى، و نفوذ دينى واسع و خاصة لدى العامة ...

فاتحدوا بهم، و اتخذوهم اتباعا و رفقاء درب فى مسيرتهم، و أعدوا العدة لإسقاط الحكم الوراثى المغاير لقواعد الإسلام، و تعاليم القرآن.

كانت منطقة العراق، و خاصة مدينة الكوفة و ما جاورها من القرى و الصحارى مأهولة إلى جانب القبائل العربية بجنسيات و عناصر إسلامية غير عربية، و كان مبدأ «التشيع» لآل البيت النبوى قائما و نشيطا إلى جانب الدعوات الفكرية و الدينية الأخرى التى راج

سوقها، و اتسع نطاقها بحيث لم تقف معارضتها للدولة عند حد من الحدود، بل تجاوزت حتى وصلت إلى عاصمة الدولة دمشق. و تشاء الظروف أن تتحول تلك المجتمعات، و أن تتم هذه الدعوات، فتتحول بين عشية و ضحاها إلى قاعدة كبيرة للمعارضة، انضوى تحت لوائها كل ناظم و حاقد من مختلف الأجناس فضلا عن زعماء كبار كانوا على جانب كبير من الجراءة و الثقافة. بحيث تمكنوا فى فترة قصيرة من تهيئة الأفكار، و أيضا ح المواقف، و إعطاء صورة صحيحة للعامة عن الفساد المهيمن على المجتمع، و عن الأخطاء التى ترتكب من قبل الحاكمين، و عن شبح الظلم و الإرهاب المخيمين على أرجاء الدولة.

و لم يكن لدى هؤلاء المعارضين الناقمين أطرف من الحديث عن النظام الوراثى للخلافة الذى ابتكره الأمويون، و جعلوه أساسا لحكمهم، ضاربين عرض الحائط بنظم الإسلام و قوانينه، و تبرز على المسرح جريمة مقتل الحسين بن على بن أبى طالب فى كربلاء، و ما رافقها من الأساليب اللااخلاقية التى تجلّى منها الحقد و الظلم و خاصة عند ما ساقوا نساء هذه

الأسرة النبوية من العراق إلى دمشق، و هنّ حافيات عاريات مكبلات بالأصفاد، و أمامهن على الرماح رأس الحسين، و رؤوس شباب آل على فكان كل هذا من الأسباب التي أذكت نار الفتنة و حركت الجمر الراقد تحت الرماد . و لكن الظروف و العوامل الأخرى و أبرزها انشقاق المعارضة ساعدت الدولة الأموية على ترسيخ سلطتها و خصوصا عند حدوث الانقسام بين الحسينيين و الحسينيين و الآلى هاشميين من آل البيت و جميعهم كانوا من أقطاب المجموعة الشيعية المعارضة للحكم الأموى.

و كان المجتمع الإسلامى خلال الحكم الأموى يتوزع على عدة طبقات اجتماعية أدت فيما بعد إلى خلخلة كيان الدولة و انهيارها و انتقال الحكم إلى العباسيين و كان من أبرز هذه الطبقات الاجتماعية، إلى جانب الطبقة العليا التي تتألف من الأسرة الحاكمة و القواد، طبقة الموالى، و هم المسلمون من غير العرب الذين قبلوا دعوة الإسلام طوعا أو كرها ثم طبقة «الرقيق» «و أهل الذمة».

و كان الموالى يشعرون، أبان الحكم الأموى بأنهم مضطهدين و ليسوا متساوين فى الحقوق و كان حقدهم يتزايد يوما بعد يوم على السلطة الأموية مما دفعهم إلى مناصرة معارضى هذه السلطة و بشكل خاص

##PAGE=53##

المعارضة الشيعية التي كانت ناشطة فى العراق و الخوارج فى فارس.

و بينما تشاغل العرب، باقتناء المزارع و بناء القصور و تكديس الأموال، انصرف الموالى إلى التعمق فى دراسة العلوم و المعارف الثقافية سعيا للتفوق على أقرانهم المحدثى النعمة من أركان الدولة الأموية.

و كان أبناء طبقة «الرقيق» يعانون من شتى أنواع الاضطهاد و الاستعباد بخلاف ما جاء به القرآن الكريم. و بينما كان الشرع الإسلامى يدعو و يوصى بإصلاح شأن العبيد و منع استرقاق المسلم له، فإن العبد الرق لم يكن من حقه أن يعتق بمجرد دخوله فى الإسلام، مما أدى إلى قيام تجارة ناشطة للرقيق أدت إلى اختلاط الأعراب و الأغراب . فكان لذلك الاندماج أثر بعيد فى تكوين جيل يختلف فى تصرفاته و تطلعاته و حياته عن الأجيال السابقة.

أما الفريق الثالث من أهل الذمة أو أبناء الديانات السماوية و أتباع الشرائع المنزلة الذين شملهم أمان الإسلام من يهود و نصارى فهؤلاء منحوا قسما وافرًا من الرعاية. و تمتعوا بمطلق الحرية لقاء تأديتهم الجزية و الخراج، و خضوعهم إلى قوانين الدولة السائدة، و ابتعادهم عن الأجواء الصاخبة و المشحونة بالتوتر و النقمة على الحكم القائم.

إن العرب عند ما حلّوا فى الأمصار كفاتحين كانوا يحملون رسالة القرآن الكريم و الإسلام، و هذا وحده ترك أثرا فى العقول و الأفكار، و جعل منها أداة طيعة للتعاليم الإنسانية و للدين الجديد الذى برزت فيه العدالة العريضة و الخير و الجمال.

إننا نرى، و نحن أمام هذا الواقع أن البلدان التي كانت خاضعة للدولة الأموية لم تتوان عن اللحاق بركب الأمم المتحضرة التي سبقتها أو تغلبت عليها. فنقلت عنها الكثير من الآراء و الأفكار و المبادئ، و ساعدتها الدولة الحاكمة على ذلك . و

أخيرا تولت بنفسها نقل التراث الأسمى العريق . و بالفعل كان الأمويون مهرة في النقل، و على مستوى كبير من الاجتهاد لتلقى العلوم، و للتزود بالغذاء العقلى.

و إننا بصراحة نقول: إنهم فى أواخر عهدهم، حرثوا الأرض، و مهدوها، و غرسوا النواة. و بعد أن طلعت شجرة الفكر جاء

##PAGE=54##

العباسيون فقطفوا الثمار بعد أن وسعوا دائرتهم الفكرية باعتمادهم على ثقافات الإغريق و الفرس و الهند و السريان، فجعلوا منها أساسا لتقدمهم، و شعارا لتطورهم . و هذا ما يوحى إلينا بأن عصر الأمويين العلمى كان عصر استعداد و غرس و حضانه، بينما كان عصر العباسيين عصر جنى و اقتطاف الثمار.

الخلفاء الأمويون

١- معاوية بن أبى سفيان (الأول) (٤١- ٦٠ هـ / ٦٦١- ٦٨٠ م)

٢- يزيد بن معاوية (الأول) (٦٠- ٦٤ هـ / ٦٨٠- ٦٨٤ م)

٣- معاوية بن يزيد (الثانى) (٦٤ هـ / ٦٨٣ م)

٤- مروان بن الحكم (الأول) (٦٤ هـ / ٦٨٣ م)

٥- عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦ هـ / ٦٨٥- ٧٠٥ م)

٦- الوليد بن عبد الملك (الأول) (٨٦- ٩٦ هـ / ٧٠٥- ٧١٥ م)

٧- سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩ هـ / ٧١٥- ٧١٧ م)

٨- عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١ هـ / ٧١٧- ٧٢٠ م)

٩- يزيد بن عبد الملك (الثانى) (١٠١- ١٠٥ هـ / ٧٢٠- ٧٢٤ م)

١٠- هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥ هـ / ٧٢٤- ٧٤٣ م)

١١- الوليد بن يزيد (الثانى) (١٢٥- ١٢٦ هـ / ٧٤٣- ٧٤٤ م)

١٢- يزيد بن الوليد (الثالث) (١٢٦ هـ / ٧٤٤ م)

١٣- ابراهيم بن الوليد (١٢٦ هـ / ٧٤٤ م)

١٤- مروان بن محمد (الثانى) (١٢٧- ١٣٢ هـ / ٧٤٤- ٧٤٩ م)

الدولة العباسية

برز العباسيون على المسرح، و لكن بشكل محدود، و أعلنوا عن حقهم بالخلافة الإسلامية باعتبارهم من الهاشميين، و لكن كل هذا ظل مقتصرًا على فئة قليلة من الناس، ثم أنهم غرروا بالعلويين و زينوا لهم بأنهم سيكونوا لهم سندًا في مطالبهم للوصول إلى منصب الخلافة- و بهذا تمكنوا من توحيدهم و ضمهم إلى صفوفهم، و في ذلك الوقت اختاروا لحركتهم مركزًا مهمًا في قرية «الحميمة» الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت في فلسطين، و كانت على خط القوافل التجارية السائرة من الغرب إلى الشرق و من الشمال إلى الجنوب، فضلًا عن أنها كانت ملتقى طريق الحجيج .. ففي هذه القرية وضعوا الخطوط الأولى لثورتهم، و فيها وزعوا الأدوار و المهمات . و بعد فترة قصيرة تمكنوا من إهراز الأنتصار الأول عند ما نجحوا في استقطاب أهل خراسان الذين بادروا إلى إشعال نيران الثورة الأولى بقيادة أبي مسلم الخراساني الذي زحف على رأس قوة كبيرة قوامها قبيلة الأزد و فلاحى الفرس و الموالي، و احتل بلدة «مرو» كخطوة أولى.

و من الطريف أن ابن سيار عامل الأمويين على خراسان آنذاك كتب إلى الخليفة مروان بعد ما رأى هذه التحركات العباسية، طالبًا منه إرسال نجدة للقضاء على الثورة التي اندلعت في كل مكان من أنحاء منطقته، و لكن النجدة لم تأت، وفات الأوان .. مما دعاه في خاتمة المطاف إلى إرسال هذه الأبيات إلى الخليفة الأموي الأخير:

أرى خلل الرماد و ميض جمر
و يوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى
و إن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب: ليت شعري
أيقاظ أمية أم نيام

مشى أبو مسلم الخراساني من «مرو» دون توقف، و عند ما اقترب من الكوفة أذّر أهلها ثم دخلها دون قتال، و أخذ في مساجدها البيعة لأبي العباس، و نادى به خليفة للمسلمين، و لكن الخليفة الأموي مروان جرّد جيشًا جرارًا و زحف للقاء الجيش العباسي الزاحف بقيادة عبد الله بن علي عم الخليفة العباسي، فالتقيا على ضفة الزاب

الكبير اليسرى، و دارت المعركة المشهورة التي اندحر فيها الجيش الأموي، متراجعًا نحو أرض الشام، و لكن عبد الله لحق به، و ما زال في أثره حتى حاصره في مدينة دمشق التي استسلمت بعد أيام من سنة ٧٥٠ م و لكن الخليفة الأموي فرّ منها فأرسل القائد العباسي ثلّة من الجند أدركته في بوسير من أعمال مصر، فقتل هناك في ٥ آب ٧٥٠ و بمصرعه انتهت الأسرة الأموية الحاكمة، و لم يبق لها فيما بعد أى ملك، سوى الدولة الأموية التي انبثقت في الأندلس.

و تسلم العباسيون شؤون الخلافة الإسلامية، فبنوا بغداد، و جعلوها عاصمةً لدولتهم، و تربعوا فى قصورها ينهون و يأمرن، و لكنهم لم يأخذوا من الماضى دروسا، و لا من الزمن عبرا و عظات و خرجوا على العهد الذى قطعوه على أنفسهم للعلويين، و بدلا من أن يمنحوهم الخلافة التى أراقوا فى سبيلها دماءهم و قدموا لأجلها خيرة شبابهم، سرقوها منهم، و رسموا لأنفسهم خطة ملاحقة هؤلاء، و إغلاق الأبواب بوجههم، و وضع السيف على رقابهم .

هذا من جهة ... و من جهة ثانية فإنهم عملوا على إيجاد جو من التفاهم بين العرب و الموالى و الفرس و عناصر الدولة المختلطة دونما تمييز فى مقتضيات الحياة إلا بحسب الخدمات و الكفاءات، كما دعوا إلى إصلاح الأوضاع الزراعية و الاقتصادية، و النهوض بالمجتمع الفاسد، و رفع شأن الطبقات الفقيرة، إذ من دون ذلك لا سبيل إلى استقرار الأمور و توطيد الأمن فى دولتهم الفتية.

و لا بد من التنويه بأنهم قبل أن يتسلموا مقاليد الحكم كانوا يتظلمون و ينددون بما أصاب العلويين من ظلم و إرهاب من قبل الأمويين، و يعلنون على الملأ أسفهم، و نقمتهم و مشاركتهم الآلام، معتبين أنهم أصحاب الحق بتولى مقاليد الخلافة و القيادة، و لكن ثبت فيما بعد أن هذه الأقوال لم تكن صادرة عن نيات طيبة، فلم تلبث المعارضة أن أخذت تستيقظ فى جسم الأمة تدريجيا، و عادت المظالم تسفر عن وجهها من جديد و تسرب الفساد إلى مختلف الأرجاء و أصبحت الأكثرية الساحقة من الرعية تترحم على الدولة الأموية و هكذا وقع العباسيون فى نفس الموقع الذى كانوا يشكون فيه لدى أسلافهم

##PAGE=58##

الأمويين لا بل تفوقوا عليهم عسفا و جورا فقد انغمس الخلفاء فى ملذاتهم و هيمن على مقاليد الحكم القواد و الغلمان حتى قال أحد الشعراء بالخليفة المستعين بالله .

خليفة فى قفص بين وصيف و بغا يقول ما قالوا له كما يقول البغا

أو كما قال الخليفة المعتمد فى وصف حاله:

أ ليس من العجائب أن مثلى يرى ما قلّ مجتمعا لديه
و تؤخذ باسمه الدنيا جميعا و ما من ذاك شىء فى يديه

و يبدو لنا أن الثورة العباسية على حكم الأمويين تعتبر أول حركة انقلايية فى تاريخ الإسلام، بل أول ثغرة انفتحت فى كيان الأمة الإسلامية . و هذه الثورة كان لها من الأهمية فى تاريخ الشرق ما للثورتين الإفرنسية و الروسية فى تاريخ الغرب . فالانقلاب الذى وقع لم يتم نتيجة لمؤامرة فى البلاط أو ثورة فردية على أسلوب الحكم، بل تحقق بفعل دعوة علمية و تنظيم فكرى ناجحين عبّرا عن استيلاء عناصر الشعب صاحب النفوذ من الدولة الحاكمة، و هى أمور مهد لها خلال فترة

طويلة من الزمن، فجاءت هذه الحركة مثل معظم الحركات الثورية نتيجة لائتلاف مصالح مختلفة جمعت بينها رغبات مشتركة في إسقاط نظام الحكم القائم، غير أنه كان مقضيا عليها بالتفكك إلى جماعات متضاربة، وكتل متنافرة حتى يتحقق النصر، وقد رأينا أن أول مهمات العباسيين المنتصرين انحصرت في سحق جناح الحركة المتطرف أي : جماعة العلويين، و الفتنة التي اعتقدت أن ها أوصلتهم إلى سدة الحكم فعمدوا إلى قتل أى شخص تقع أعينهم عليه من أهل بيت النبوة العلويين، كما قتلوا أبا مسلم الخراساني القائد العام للثورة مع جماعة من أقرانه، و بذلك أكسبوا الصراع إلى صبغة عنصرية فصار بين «سامي» الجزيرة العربية «و آري» بلاد فارس لأن نجاح العباسيين كان معناه انتصار الفرس على العرب، و تأسيس امبراطورية فارسية جديدة تتنقع بقناع إسلامي عربى شفاف تأخذ مكانها بدلا عن الامبراطورية العربية جسما و روحا.

و لم يصف الجو للعباسيين و هم فى غمرة الملك و السلطان، فقامت الانتفاضات فى أرجاء عديدة من مملكتهم. و كان أول الغيث قيام ثورة

##PAGE=59##

شعبية فى بلاد الشام اتخذت لها شعارا مبطنا و هو المطالبة بحكم الأمويين . و من جهة ثانية قام محمد بن عبد الله بن الحسن بن على ابن أبى طالب الملقب ب «النفس الزكية» بحركة مرسومة للقضاء على الدولة العباسية تحت شعار «آل البيت» و حقهم بالخلافة، و كان قد أعلن عن نفسه فى القدس بأنه «الإمام المنتظر». و تحركت ثورة أخرى مناهضة فى مناطق تركيا بقيادة اسحق الترك، و هو من أتباع أبى مسلم الخراساني، و لكن المنصور العباسى تمكن من القضاء عليها، و تحرك آخر و اسمه «أستاذ سيس» (٧٦٧-٧٦٨ م) فى خراسان و تبعه «المقنع» فى ثورة عنيفة أيضا فى طول خراسان و أواسط آسيا، و كانت عاصمتها بخارى. و من الجدير بالذكر أنها دامت أكثر من عشرة أعوام.

و يجب علينا، و نحن فى صدد التحدث عن هذه التحركات، أن نشير إلى ثورة «بابك» المسلحة الحمراء التي انبثقت عنيفة جائرة، فأقضت مضاجع العباسيين، و استطاعت الصمود إلى فترة طويلة، و قد ذكر التاريخ أن قائدها استطاع أن يلحق الهزيمة بأربعة من قواد المأمون العباسي.

أما ثورة «الزنج» فكانت من أعنف الثورات التي عرفها التاريخ بل أشدها قسوة و ضراوة، و ظهرت الإمارات الفارسية لتستقل عن الدولة العباسية، تاركة لها اسم الخليفة وحده يردده أئمة المساجد فى صلواتهم كل أسبوع.

و تمكن الزيديون من إنشاء جبهة معارضة فى جنوبى قزوين لم تلبث أن أخضعت خلفاء بغداد لنفوذها و خطتها بالاستيلاء على سلطة الحكم التنفيذية، و أعنى بها دولة البويهيين.

و يجب ألا يغرب عن البال أن «العلويين» أصبحوا لقمة سائغة للعباسيين يقتلونهم فى كل مكان على الشبهة، و لم يستطع «النفس الزكية» و أخوه إبراهيم النجاء من سيوفهم. و من المشهور أن رأسه قد حمل إلى الخليفة المنصور فى سنة ١٤٥ هـ. و لو لا فرار إدريس بن عبد الله إلى المغرب و يحبى إلى المشرق لما بقى أحد منهما حيا.

أما الشيعة الذين نادوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق

و الذين عرفوا فيما بعد بالإثني عشرية . فهو لاء قد ذاقوا من صنوف الأذى ألوانا، و قد تجلى ذلك عند ما استحضر الرشيد العباسي موسى الكاظم و سجنه حتى مات، و ظل أحفاده يلاقون الضغط و الإرهاب حتى آخرهم .

و ظهر «الحنفيون» أتباع محمد «بن الحنفية» بن على بن أبى طالب، «و الأبى هاشمية» أتباع ولده «أبو هاشم»، و لكنهم لم يلبثوا أن انقضوا، و بادت دعوتهم تحت ضربات العباسيين . و فى غضون ذلك انبثقت دعوات دينية أخرى شيعية و سنية، و أكثرها تأسس فى بغداد، فدعت إلى معارضة الحكم حتى قيل إن أنصار «ابن حنبل» كانوا يداهمون بيوت الأمراء، و ذوى اليسار، فيكسرون أوانى الخمر، و يحطمون الآلات الموسيقية، و يضربون المغنيين، و يهينون القيان و الفتيات تحقيرا، و تحديا للحكم القائم الضعيف حتى بلغ الأمر بالخليفة أنه بات يخشى على نفسه الأذى إذا خرج أو ظهر للناس .

و أخيرا رجّت بلاد الخلافة الإسلامية فى أثناء الحكم العباسي حركة دينية سياسية فكرية انبثقت من مدينة «سلمية» السورية، فكانت من القوة و التنظيم بحيث هددت كيان الدولة العباسية زمنا طويلا، و ك ان من أهدافها إخراج المجتمع الإسلامى من انكماشه و جموده، و التوجه به إلى عالم فسيح من الحرية و التطور فى ظل ثورة تقوم على الإيمان «المطلق» و على أساس عقائدى يستند إلى العقل . فالفائزون على هذه الحركة، توفقوا أخيرا بعد أن أحكموا التنظيم و الإنشاء إلى إقامة خلافة «فاطمية» إمامية شيعية فى المغرب ثم فى مصر و بلاد الشام، فجعلوا منها دولة إسلامية مناوئة للعباسيين، تعمل فى السر و العلانية على إسقاطهم . أما ثورة القرامطة، فكانت حصيلة جهاد و تنظيم استمرّ فترة قصيرة . و أخيرا، بلغت من القوة مبلغا هددت معه بغداد مرة و ا لقااهرة مرة أخرى، الأمر الذى يحلّها فى المرتبة الأولى بين الثورات العالمية.

أما فى الحقل الخارجى . و العلاقات مع الدول فقد ظهر البيزنطيون على مسرح الأحداث . و أخذوا ينفذون برنامجهم العدائى ضد العباسيين، فتوغلوا فى داخل بلادهم، و شكلوا خطرا على الحمدانيين، كما هددوا شمالى العراق و بلاد الشام، و مهدوا لاحتلال أنطاكية

و كيليكيا، و الرها، و ديار بكر، و ميافارقين، و نصيبين، و بلاد الشام الجنوبية و سواحلها.

و على العموم، فقد كانت حالة العراق العامة فى فوضى طاغية، فاشتد الفقر و المرض، و عظم الغلاء، و مات الكثيرون جوعا، بينما ظل العباسيون فى قصورهم يمثلون المغامرات الجنونية، و يقضون الليالى العابثة المجونية، و كل هذا كان موضوع أحاديث الناس فى أنديةهم، و مجتمعاتهم، و كانت تناله ألسنتهم بالنقد و التجريح مما أدى فى نهاية المطاف إلى تجميد نشاط الخليفة، و جعله مجرد رمز خاو لا شأن له و لا حول . و هكذا استشرى الضعف و الفساد فى أرجاء الدولة بعد أن أعطى النظام الطبقي السائد النفوذ و الثروة و الجاه إلى الجمهرة من شيوخ الفرس و حدهم، فما كان من الرعية و أكثريتها من العرب إلا أن نهضت لتدافع عن مصالحها، و لتزيل الفروقات ال طبقية التى كانت تعتبر مخالفة لأبسط قواعد الإنسانية . و قد كان أيضا لنظام الضرائب الجائر أثره فى تدهور الوضع الاقتصادى فبسببه ازداد ظلم الملاكين الكبار للفلاحين الصغار بشكل مخيف، و انتشر الفقر، و عمت البطالة، و تضاعفت الملكيات الفردية ازديادا مضطردا، و لم تظهر أية

تحسينات على العلاقات العامة بين العرب و الموالى فى شؤون و تصارييف الحياء كما كان متوقعا لأن اعتماد الدولة كان قائما على الموالى و الفرس كما ذكرنا هذا بالإضافة إلى أن بعض الجماعات الدينية الجديدة التى تصطبغ بالصبغة الفارسية كانت تسعى لتحطيم زعامة العرب و الحلول محلها.

الخلفاء العباسيون

- ١- السفاح أبو العباس عبد الله بن محمد (١٣٢-١٣٦ هـ / ٧٥٠-٧٥٤ م)
- ٢- المنصور أبو جعفر عبد الله بن محمد (١٣٦-١٥٨ هـ / ٧٥٤-٧٧٥ م)
- ٣- المهدي أبو عبد الله محمد بن منصور (١٥٨-١٦٩ هـ / ٧٧٥-٧٨٥ م)
- ٤- الهادي أبو محمد موسى بن المهدي (١٦٩-١٧٠ هـ / ٧٨٥-٧٨٦ م)
- ٥- الرشيد أبو جعفر هارون بن المهدي (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦-٨٠٩ م)
- ٦- الأمين أبو موسى محمد بن الرشيد (١٩٣-١٩٨ هـ / ٨٠٩-٨١٤ م)
- ٧- المأمون أبو جعفر عبد الله بن الرشيد (١٩٨-٢١٨ هـ / ٨١٤-٨٣٣ م)
- ٨- المعتصم بالله أبو اسحق محمد بن الرشيد (٢١٨-٢٢٧ هـ / ٨٣٣-٨٤٢ م)
- ٩- الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢ هـ / ٨٤٢-٨٤٧ م)
- ١٠- المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم (٢٣٢-٢٤٧ هـ / ٨٤٧-٨٦١ م)

##PAGE=62##

- ١١- المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل (٢٤٧-٢٤٨ هـ / ٨٦١-٨٦٢ م)
- ١٢- المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم (٢٤٨-٢٥٢ هـ / ٨٦٢-٨٦٦ م)
- ١٣- المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل (٢٥٢-٢٥٥ هـ / ٨٦٦-٨٦٩ م)
- ١٤- المهتدى بالله أبو اسحق محمد بن الواثق (٢٥٥-٢٥٦ هـ / ٨٦٩-٨٧٠ م)
- ١٥- المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل (٢٥٦-٢٧٩ هـ / ٨٧٠-٨٩٢ م)
- ١٦- المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق (٢٧٩-٢٨٩ هـ / ٨٩٢-٩٠٢ م)

- ١٧- المكتفى بالله أبو محمد على بن المعتض (٢٨٩-٢٩٥ هـ / ٩٠٢-٩٠٨ م)
- ١٨- المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتض (٢٩٥-٣٢٠ هـ / ٩٠٨-٩٣٢ م)
- ١٩- القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتض (٣٢٠-٣٢٢ هـ / ٩٣٢-٩٣٤ م)
- ٢٠- الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر (٣٢٢-٣٢٩ هـ / ٩٣٤-٩٤٠ م)
- ٢١- المتقى بالله أبو اسحق إبراهيم بن المقتدر (٣٢٩-٣٣٣ هـ / ٩٤٠-٩٤٤ م)
- ٢٢- المستكفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى (٣٣٣-٣٣٤ هـ / ٩٤٤-٩٤٥ م)
- ٢٣- المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر (٣٣٤-٣٦٣ هـ / ٩٤٦-٩٧٤ م)
- ٢٤- الطائع لله أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع (٣٦٣-٣٨١ هـ / ٩٤٧-٩٩١ م)
- ٢٥- القادر بالله أبو العباس أحمد بن اسحق المقتدر (٣٨١-٤٢٢ هـ / ٩٩١-١٠٣١ م)
- ٢٦- القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر (٤٢٢-٤٦٧ هـ / ١٠٣١-١٠٧٥ م)
- ٢٧- المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن محمد (٤٦٧-٤٨٧ هـ / ١٠٧٥-١٠٩٤ م)

و عند ما ضعفت السلطة المركزية لخلفاء بغداد العباسيين، قامت دويلات فى كل جهة من أنحاء المملكة، و هذه الدويلات كانت مستقلة استقلالاً ناجزاً بأحكامها، و جيوشها، و نظمها مع الإبقاء على الولاء للخليفة و للشعار العباسى .. و هى:

الدولة الطاهرية ٢٠٥-٢٥٩ هـ - ٨٢١/٨٧٣ م

الدولة الصفارية ٢٥٣-٢٨٩ هـ - ٨٦٢/٩٠٣ م

الدولة السامانية ٢٠٤-٣٩٥ هـ - ٨٧٤/٩٩٩ م

الدولة الخوارزمية ٣٠٥-٤٠٨ هـ - ٩٩٥ م / ١٠١٧ م

الدولة القراخانية الألبانية ٣٨٢-٦٠٧ هـ - ١٢٥٦-١٣٣٦ م

الدولة الغزنوية ٣٦٦-٥٨٢ هـ - ٩٦٢-١١٨٦ م

الدولة البويهية ٣٣٤-٤٤٧ هـ - ٩٤٥-١٠٥٥ م

الدولة السامانية

من الملاحظ أن أهم هذه الدول وأعظمها أثرا بالنسبة إلى العباسيين

##PAGE=63##

من جهة، و إلى الفاطميين من جهة أخرى هي الدولة السامانية.

تنسب هذه الدولة إلى «سامان» جد الأسرة و مؤسسها، و كان دهقانا يعيش في مدينة «بلخ» ثم اضطر إلى الفرار نحو «مرو» على أثر نزاع وقع بينه و بين بعض الطامعين، و هناك أسلم على يد واليها «أسد بن عبد الله» و هو شقيق «خالد بن عبد الله القسري». و كان أسد واليا على العراق من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي، و الظاهر أنه أكرم «سامان» و تعهد بحمايته من أعدائه، ثم أعاده إلى «بلخ» بعد أن منحه الصلاحيات و الرعاية، و هذه المبادرة قدرها «سامان» و ظل وفيا لصديقه أسد، لدرجة أنه سمى ولده الأكبر «أسدا» تيمنا بصديقه، و تخليدا لذكراه، و وفاء لرعايته و بعد سقوط الدولة الأموية، و قيام الدولة العباسية، و في عهد المأمون بالذات قدم أولاد أسد الأربعة إلى بغداد، و تطوعوا في خدمة الخليفة، فعين نوح على «سمرقند» و أحمد على «فرغانة» و يحيى على «الشاش» و الياس على «هراء» ... و هكذا أفسح لهم المجال لحكم أكثر أجزاء منطقته و ما وراء النهر، و في سنة ٢٦٣ هـ عين المعتمد العباسي «نصر بن أحمد» واليا على بلاد ما بين النهرين بكاملها، و بهذا التعيين تمّ لهم إقامة دعائم الدولة السامانية الأولى.

و بعد أن حصلت هذه الأسرة على هذه المكاسب أخذت تعمل على إرساء قواعد الدولة على أساس متقدم، فعززت حكمها، و وطدت أركان دولتها، و أخذت تناضل لتثبيت دعائم وجودها، و كان أول إجراء قامت به هو اضطلاعها بمسؤولية حماية صحارى ما وراء النهر، و ردّ هجمات الأتراك المتكررة، و في فترة قصيرة تمكنت من تأمين الأمن و الاستقرار و القضاء على تلك العصابات المغيرة، مع تأمين خطوط التجارة و حماية محطاتها و مراكزها، مما كان له أكبر الأثر في نفوس العباسيين، فمنحوا السامانيين الثقة المطلقة، و اعتبروهم من أخلص و أوفى حلفائهم و تابعيهم . و في سنة ٢٨٧ هـ حاز ملكهم إسماعيل بن أحمد على ثقة خليفة بغداد، خاصة بعد أن تمكن من إلحاق الهزيمة بعمر بن الليث الصفار، و لهذا منحه خراسان و ما يجاورها بالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين مما مكنه من بسط سلطته على أراض واسعة تمتد إلى حدود الدولة البويهية في إيران و العراق، و أطراف أفغانستان و بلاد السند.

##PAGE=64##

لقد كانت بخارى عاصمة لدولتهم . و مما يجب التنويه به أنها أصبحت في عهدهم كعبة يحج إليها العلماء و رجال الفكر و طلبه العلم من كل حذب و صوب للتزود من مكتبتها الزاهرة بالعلوم و الطافحة بالمصادر و نوادر الكتب.

و في الحقيقة فإن هذه الأسرة كان لها دور بارز في تشجيع العلم و رعاية العلماء، و إفساح المجال لهم للإقامة في ربوع الدولة، و التمتع بكامل الحرية و الحقوق . و في سنة ٣٩٥ هـ بدأت علائم الضعف و الانهيار تظهر على جهاز هذه الدولة إثر قيام عدة انقلابات قام بها في البلاط الساماني بعض القادة العسكريين الطامعين بالحكم، فلم تلبث خراسان أن انفصلت عن العاصمة بخارى.

و كان لا بد لهذه الدولة من مواجهة النهاية المحتومة، و ذلك عند ما تعاون الغزنويون و القراخانيون على مهاجمتها، و احتلال عاصمتها بخارى، و طرد آخر أمير ساماني منها.

الدولة القراخانية

أما الدولة «القراخانية» أو «الأيلكخانية» فأسرتها الحاكمة تنحدر من نسل «أفراسياب» البطل التركي الأسطوري الذي ورد ذكره في «الشاهنامه» للفردوسي، ولكن لم يتمكن أحد من تحقيق ذلك أو التأكد منه، وكل ما اتفق القول عليه : أنهم مجموعات مختلفة انحدرت من عناصر تركية قديمة لعبت أدوارا بارزة في التاريخ القديم. و مما تجدر الإشارة إليه: أنه في منتصف القرن الثاني للهجرة اعتنق هؤلاء الأقوام الدين الإسلامي، واتخذوا ألقابا و أسماء إسلامية مختلفة، و يعتبر جدهم «بغرا خان». فاتح بخارى أول من اعتنق الإسلام و سمي نفسه «عبد الكرم». من المعلوم أن القراخانيين أقاموا امبراطورية واسعة، بعد أن ساهموا بالقضاء على الدولة السامانية، و يتضح من تاريخهم أنه كانت لهم علاقات طيبة من حسن الجوار و التعاون في مجالات كثيرة مع الغزنويين الذين لم يكن يفصلهم عنهم سوى نهر جيحون.

و على العموم فإن تاريخ هذه الدولة كان و ما زال على جانب كبير من الغموض، و لم يستطع أحد من المؤرخين إعطاء المعلومات الأكيدة، أو التفاصيل عن الحروب الداخلية و الخلافات التي حدثت بين

##PAGE=65##

أمرائها ... و كل ما ذكر حول هذا الموضوع يتلخص بأن «الغز» الذين عرفوا ب «التركمان» قد خضعوا لأسرة عرفت ب «السلجوقية»، و هذه الأسرة تسربت و انتسبت و ساهمت بوجود هذه الجماعة.

فهؤلاء «الغز» هبطوا إلى بخارى، و اشتركوا مع غيرهم في الحروب و الاضطرابات التي أدت إلى سقوط الدولة السامانية، و في ذلك الوقت اتخذوا لأنفسهم طرفا بين أمراء القراخانية، و كانت نقطة البداية بالنظر لازدياد نفوذهم ثم عبورهم فيما بعد إلى خراسان حيث تمكنوا من إرساء قواعد السلطنة السلجوقية التي امتدت إلى أجزاء أخرى، حيث لعبت دورا مهما في التاريخ.

الدولة الغزنوية

و نتقل بعد ذلك إلى الدولة الغزنوية فنقول:

قامت هذه الدولة سنة ٣٥٠ هـ عند ما توفي الأمير الساماني عبد الملك بن نوح، ففي تلك الساعات ثار الجيش، و تمرد، و انقسم إلى فرق عديدة، كان هدف كل قائد منهم الاستيلاء على السلطة . و في ذلك الوقت كان «الأسفهلار التبكين» في نيسابور. فحين بلغه خبر وفاة الأمير المذكور زحف على رأس قواته، و هـ دفه القبض على الأمير الساماني الجديد منصور بن نصر، و الحلول مكانه في حكم السامانيين، و لكنه أخفق و اضطر إلى التراجع نحو «غزنة» حيث اعتصم فيها، و بعد فترة تصالح مع الأمير الجديد، و ظل في غزنة « حيث اتخذها قاعدة و منطلقا لشن الهجمات على أراضي السند و احتلالها تحت اسم الدولة السامانية، و بعد وفاته خلفه في مركز القيادة أحد الضباط العاملين، و المقربين منه و اسمه «سبكتكين»، فاستمر في القيادة تحت إمرة السامانيين، و كانت سيرته طيبة، و خطواته موفقة، و نفوذه عظيما لدى الجيش و الرعية . و بعد وفاته في سنة ٣٨٧ هـ، تسلم ابرع محمود القيادة . و أعلن انفصاله عن الدولة السامانية متخذاً من «غزنة» عاصمة لدولته، و لقب ب «الغازي»، ثم أخذ يتوسع، و يستولي على مقاطعات جديدة، و من الواضح أنه حاز على ثقة الدولة العباسية حين

منحه خليفته لقب «يمين الدولة». وهذا ما جعله يتطلع إلى بغداد، و كهنى نفسه بأن يحكمها باسم «سلطان» بحيث يتمكن بعد ذلك من القضاء على الدولة «البويهية» الشيعية، و الحلول مكانها في حكم بغداد.

##PAGE=66##

إن الدولة الغزنوية وصلت في عهده إلى أقصى مراحل القوة و التوسع، و أصبحت حدودها حتى نهر جيحون، مضافا إلى واحة خوارزم و خراسان، و معنى هذا إنها ظلت تحكم شرقي أفغانستان و شمالي السند حتى قيام الدولة «الغورية» التي قضت عليها سنة ٥٨٢ هـ.

الدولة البويهية

أما «بنو بويه» فينتسبون إلى رجل من «الديلم» كان يمتهن الصيد على شواطئ بحر قزوين، و كان يسمى «بويه»، و كان له ثلاثة أولاد هم:

على و حسن و أحمد. فدخلوا في خدمة «مرداويج بن زيار» الديلمي الذي تمكن سنة ٣١٥ هـ من تأسيس الدولة الزيارية في خراسان التي استمرت ثمانية أعوام في ختامها قتل أميرها «مرداويج». و من الجدير بالذكر أن أولاد بويه أظهروا مقدرة و كفاءة في عهد مرداويج، فعين «على» واليا على الكرج، و «حسن» على أصبهان و الري و همدان. و بعد موت مرداويج بسط «على» يده على كرمان، فالتسعت رقعة دولتهم، و امتد نفوذهم إلى مناطق أخرى، مما جعلهم يتطلعون إلى بغداد، و يطمحون إلى السيطرة على الحكم فيها. و في سنة ٣٣٤ هـ توفي «توزون» التركي أمير الأمراء فخلفه في منصبه كقائد عام لجيوش العباسيين «ابن شيرزاد» و لكن أحمد بن بويه تحرك من الأهواز و زحف إلى بغداد، و حين سمع الخليفة العباسي «المستكفي» به استتر خوفا على نفسه من الأتراك، و لكن «أحمد» دخل إلى بغداد على رأس قواته، فأعاد المستكفي إلى دار الخلافة، و أبعد الأتراك عن المناصب العليا، مما حدا بالخليفة إلى إعطائه لقب «معز الدولة» كما لقب أخاه «على» بلقب «عماد الدولة»، و لقب حسن بلقب «ركن الدولة» ثم ضرب أسماءهم على السكة. و بعد أن استقرت الأمور ببغداد، و أصبح معز الدولة هو السلطان الحاكم، قام بسلسلة من الإجراءات، فاعتقل الخليفة «المستكفي»، و سحبه من كرسیه، و وضع عمامته في عنقه، ثم جره، و أخيرا سجنه. و مما تجدر الإشارة إليه أنه كان يرمى إلى ضم بغداد إلى القاهرة تمهيدا لتوحيدهما في دولة واحدة، و جعلها «فاطمية» شيعية، و لكن ظروفًا طارئة، و مفاجآت غير متوقعة قامت في وجهه، و جعلته في النهاية يعدل عن هذه الرغبة.

و بعد موت المستكفي عين معز الدولة البويهى «المطيع لله» العباسي خليفة، و لكنه جرده من كافة الصلاحيات، و جعله آله صامتة لا شأن لها.

##PAGE=67##

هذه الإجراءات العنيفة التي قام «معز الدولة» بها لم تكن لترضى جميع الناس في أنحاء الدولة، و هذا ما عجل بانثاق انتفاضات و ثورات في كل مكان، و أولها ثورة الحمدانيين في الموصل و بعدها حرب البريديين في البصرة، ثم القرامطة في البحرين و الأحساء، و لكنه كان يخرج منها منتصرا.

بعد وفاة معز الدولة سنة ٣٥٦ هـ، تسلم ابنه بختيار منصبه، ولكنه لم يكن مثل والده، بل كان مستهترا عاكفا على اللهو و الشراب، مما أفسح المجال للعناصر التركية للقيام بالتسلل إلى المناصب العليا، و طرد الديلم منها، فحدثت اضطرابات عنيفة، و صراع بين الفريقين.

و تشاء الظروف أن تسوء الأحوال إثر ذلك، و على الخصوص حينما تحرك ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ هـ. و هاجم بغداد، و دخلها، و تسلم أمورها، و لكن كان على هذا الأمير أن يواجه الثورات التي انبثقت في الموصل و خراسان و عمان، و في بغداد نفسها ... فتمكن من التغلب عليها جميعها مما جعل المؤرخين يعتبرونه من أعظم و أقوى رجالات بني بويه، و من أشهر قوادهم. و من الجدير بالذكر أنه ظل يحكم العراق حتى سنة ٣٧٢ هـ. و بعد موته تسلم ابنه «أبو كاليبجار» منصبه و تسمى ب «صمصام الدولة» و لكن الأمور في عهده ساءت و أخذت بالتردى، و ذر الشقاق قرنه بين ورثة عضد الدولة، و لم يمض عليه سوى سنتين حتى قامت سبع دويلات مستقلة في العراق، و البصرة، و الأهواز، و فارس، و كرمان، و الري، و جرجان و تشاء الظروف أن تتطور الأمور، و تسوء لدرجة أن «شرف الدولة»، و هو الابن الأكبر لعضد الدولة هاجم بغداد، و دخل في قتال مع أخيه «صمصام الدولة» استمر حتى أسفر عن انتصار «شرف الدولة» سنة ٣٦٧ هـ. فاعتقل «صمصام الدولة» و و أرسله سجيناً إلى إحدى القلاع و كان ذلك سنة ٣٦٩ هـ.

بعد وفاة «شرف الدولة» خلفه أخوه «فيروز» أو «بهاء الدولة»، فاحتفظ بمركز القيادة مدة أربعة و عشرين عاماً أى حتى سنة ٤٠٣ هـ. و بعد وفاته خلفه ابنه «سلطان الدولة» و لكن نزاعاً حصل بينه و بين أخيه «شرف الدولة». و انتهى أخيراً بأن صار العراق ل «شرف الدولة» و فارس و كرمان ل «سلطان الدولة». و عند ما تحرك «شرف الدولة» و اتجه إلى بغداد، كان «سلطان الدولة» قد توفي سنة

##PAGE=68##

٤١٥ هـ و أصبح اختيار الأمير الجديد من حق الجيش وحده الذي أصبحت أكثرية عناصره من الأتراك، مضافاً إلى ذلك حدوث نزاع شديد، و مفاوضات انتهت باختيار «جلال الدولة»، فجاء إلى بغداد من البصرة . و عند ما وصل إليها خرج الخليفة العباسي لاستقباله، فدخل بغداد سنة ٤١٨ هـ تحت اسم «سلطان الدولة»، و ظل في منصبه حتى ٤٣٥ هـ.

و بعد وفاة «جلال الدولة» لم يتمكن ابنه الأكبر «الملك العزيز» من الحصول على ثقة الجيش، فحدثت اضطرابات حدث بأبي كاليبجار صاحب الأهواز إلى الزحف نحو بغداد، فدخلها و تلقب ب «الملك الرحيم»، فظل قائماً بمهمته حتى وفاته، و يعتبر آخر سلاطين الأسرة البويهية، فبعد موته دخل «الغز» العراق، و أقاموا الدولة السلجوقية، و كان ذلك سنة ٤٤٧ هـ.

في خاتمة المطاف ... لابد من القول:

إن الأسرة «البويهية» تعتبر من الشيعة «الزيدية» و إن الأجداد المؤسسين لهذه الأسرة، تلقوا تعاليم الإسلام على يد «الحسن الأطروش». و من الجدير بالذكر أن بعض أفوادها مالوا إلى الإسماعيلية، و اعتنقوها، و لعبت دولتهم أدواراً مهمة على مسرح الخلافة العباسية، و إن عدداً من قوادها قد حكموا العراق حكماً مباشراً، و أقصوا الخلفاء العباسيين و جردوهم من كافة الصلاحيات، أما الخلفاء الذين عاصروهم فهم: المستكفي، و المطيع، و الطائع، و القادر، و القائم.

الخلفاء الفاطميون

- ١- عبد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢ هـ / ٩٠٩-٩٣٤ م)
- ٢- القائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤ هـ / ٩٣٤-٩٤٦ م)
- ٣- المنصور بالله (٣٣٤-٣٤١ هـ / ٩٤٦-٩٥٣ م)
- ٤- المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥ هـ / ٩٥٣-٩٧٥ م)
- ٥- العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦ هـ / ٩٧٥-٩٩٦ م)
- ٦- الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١ هـ / ٩٩٦-١٠٢١ م)
- ٧- الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧ هـ / ١٠٢١-١٠٣٦ م)
- ٨- المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧ هـ / ١٠٣٦-١٠٩٤ م)
- ٩- المستعلي بالله (٤٨٧-٤٩٥ هـ / ١٠٩٤-١١٠١ م)
- ١٠- الأمر بأحكام الله (٤٩٥-٥٢٥ هـ / ١١٠١-١١٣٠ م)

##PAGE=69##

- ١١- الحافظ لدين الله (٥٢٥-٥٤٤ هـ / ١١٣٠-١١٤٩ م)
- ١٢- الظاهر بأمر الله (٥٤٤-٥٤٩ هـ / ١١٤٩-١١٥٤ م)
- ١٣- الفائز بنصر الله (٥٤٩-٥٥٥ هـ / ١١٥٤-١١٦٠ م)
- ١٤- العاضد لدين الله (٥٥٥-٥٦٧ هـ / ١١٦٠-١١٧١ م)

الخلفاء الأمويون في الأندلس^٧

- ١- عبد الرحمن «الداخل» (١٣٨-١٧٢ هـ / ٧٥٦-٧٨٨ م)
- ٢- هشام الأول (١٧٢-١٨٠ هـ / ٧٨٨-٧٩٦ م)
- ٣- الحكم الأول (١٨٠-٢٠٧ هـ / ٧٩٦-٨٢٢ م)

^٧ (*) ملاحظة: لم ندرج هنا ثبثاً بأسماء سلاطين بني عثمان، بين أسماء السلالات الحاكمة الأخرى التي تسنم أفرادها منصب الخلافة الإسلامية لأسباب أولها أنهم ما كانوا عرباً و ثانيها أن الخلافة فقدت معناها الروحي فالأثرأرك قد غمطوا الخلافة حقها و كانوا سبب زوالها و توقفها، حتى قبل أن يطاح بآخر السلاطين

٤- عبد الرحمن الثاني (٢٠٧- ٢٣٨ هـ / ٨٢٢- ٨٥٢)

٥- محمد الأول (٢٣٨- ٢٧٣ هـ / ٨٥٢- ٨٨٦ م)

٦- المنذر (٢٧٣- ٢٧٥ هـ / ٨٨٦- ٨٨٨ م)

٧- عبد الله (٢٧٥- ٢٩٩ هـ / ٨٨٨- ٩١٢ م)

٨- عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (٢٩٩- ٣٥٠ هـ / ٩١٢- ٩٦١ م)

٩- الحكم الثاني «المستنصر بالله» (٣٥٠- ٣٦٥ هـ / ٩٦١- ٩٧٦ م)

١٠- هشام الثاني المؤيد بالله (٣٦٥- ٣٩٩ هـ / ٩٧٦- ١٠٠٩ م)

١١- محمد الثاني (المهدي) (٣٩٩- ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩- ١٠٠٩ م)

١٢- سليمان المستعين بالله (٣٩٩- ٤٠٣ هـ).

١٣- عبد الرحمن الرابع (المرتضى) (٤٠٨- فترة انقلابات

١٤- عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله (٤١٤- غير مجرى حياة

١٥- محمد الثالث المستكفي بالله (٤١٤- ٤١٦ الخلفاء الأربعة

١٦- هشام الثالث المعتد بالله (٤٢٠- ٤٢٢ الأخيرين / ١٠٢٧- ٧١

##PAGE=71##

الاسماعيلية و الإمامة

##PAGE=73##

الإمامة

لم يختلف المسلمون على أمر من أمورهم كاختلافهم في الإمامة.

فاتباع الإمام على اعتباروا أنه الوصي الشرعي، و استشهدوا على ذلك بالبيانات، و الأحاديث المؤيدة، لأقوالهم . و ذهب بعضهم إلى وضع هالة من التقديس و التعظيم للإمام، بل ذهب بعضهم إلى حد القول بأنها من الأسرار الإلهية، أو المظهر الربوبي، أو الألوهية المصغرة بذاتها، و يرى البعض الآخر أن الإمامة أمر محتتم، و إنه لا يجوز أن يبقى المسلمون بدون إمام يسير بهم على كتاب الله و سنة رسوله و يقودهم في الطرق المؤدية إلى النجاة و الخلاص.

و رغم الاتفاق حول مبدأ الإمامة فى الإسلام، فإن المسلمين اختلفوا فيما بينهم حول شخص الإمام و مهمته . فالبعض يقول. إنها ... أى الإمامة تثبت بالاختيار، و إجماع الأمة، أو أنّها واجبة عليها . و يذهب الشيعة فى تعريفها مذاهب شتى و لكنهم اتفقوا على أنها: زمام الدين، و نظام المسلمين، و صلاح الدنيا، و عز المؤمنين، و أسّ الإسلام النّامى، و فرعه السامى، و إنها تمام الصلاة، و الزكاة، و الصيام، و الحج، و الجهاد، و توفير الفى ء و الصدقات و إقامة الحدود و الأحكام و منع الثغور و الأطراف، و لكن كل هذا قد خضع للتعديل فيما بعد حينما أخذت الانقسامات تتوالى فى قلب المجموعة الشيعية .. فقالت الفرقة الإثنا عشرية إنها واجبة إلى الله تعالى من باب اللطف، و وجوب تنصيب الإمام لإقامة الحجة على عباده.

و قالت «المرجئة»:

على الناس أن يولوا عليهم رجلا ممن يرون أن له فضلا و علما، فيحكم فيهم بالكتاب و السنة، و ما لم يجده فيهما اجتهد فيه برأيه .. ثم أضافوا:

##PAGE=74##

إن طاعته واجبة على الناس ما أطاع الله، فإذا عصى الله فلا طاعة له عليهم، و وجب القيام ضده، و خلعه و استبداله.

و قالت المعتزلة:

لم يقدم رسول الله صلى الله عليه و آله أحدا بعينه، و لا أشار إليه، و لكنه أمر الناس أن يختاروا بعده رجلا يولونه على أنفسهم، فاختاروا أبا بكر.

و قالت الخوارج:

لم ندر، و لم يبلغنا أن النبى أمر فى ذلك بشى ء، و لا أنه لم يأمر، و لا أشار، و لا لم يشر، و لكن لا بد من إمام يقيم الحدود، و ينفذ الأحكام.

و قالت الزيدية:

إنها باختيار أهل الحل و العقد لا بالنص.

بينما تقول الإسماعيلية بأن النسب شرط فى الإمامة، يقول آخرون:

إن النسب ليس شرطا أصلا، و إنها تصلح فى القرشى و غير القرشى إذا كان فاضلا و مستجمعا للشرائط المعتمدة، و إذا اجتمعت الكلمة عليه و هو قول الخوارج و قال معظم الزيدية إنها فى الفاطميين خاصة، و فى الطالبين، و لا تصلح فى غير هذين البطنين و بعض الزيدية يجيزها فى غيرهم. أما الزاوندية فقد خصصوها بالعباس و ولده لأنهم من بطون قريش . و أما الإمامية فقد جعلوها سارية فى ولد الحسين بن على . و جعلوها الكيسانية فى محمد بن الحنفية و ولده و بعضهم نقلها إلى غير ولده.

و فى هذه الصفحات لا نريد أن نعد الأَقوال التى صدرت عن فرق الشيعة العديدة بخصوص الإمامة، و بعضها قد باد و لم يبق له أى أثر، و إنما نذكر الأهم، على أن نكتفى بإيراد لمحة عن الموضوع الآنف الذكر مما لا بد منه، كما نرى أنه لا بد من العودة إلى ما ذكره عن هذا الموضوع أبو بكر «الرازى» الطبيب فى كتابه «المحصل» حيث قال:

«منهم من قال بوجوبها، و منهم من لم يقل . أما القائلون بوجوبها فمنهم من أوجبها على الله تعالى، و منهم من أوجبها على الخلق. فالذين أوجبوها على الله تعالى هم «الإمامية»، ثم ذكروا فى وجوبها وجوها عديدة، أحدها أن يكون لطفاً فى الزجر عن المقبحات العقلية، و الثانى أن يكون معلماً بمعرفة الله تعالى و هو قول «السبعية» الإسماعيلية، و ثالثها أن يعلمنا اللغات، و أن يرشدنا إلى الأغذية، و يميزها عن الس موم. و أما الذين أوجبوها على غير الله تعالى فهو قول الجاحظ و الكبسى، و أبى الحسن

##PAGE=75##

البصرى و غيرهم . و أما الذين أوجبوها سمعاً فقط فهم جمهور أصحابنا، و أكثر المعتزلة، و إن الذين قالوا بوجوبها فهم الخوارج».

و يضيف أبو بكر الرازى:

«يجب عقلاً على الخلق أن ينصبوا لأنفسهم رئيساً . أما كيف يجب تنصيب الإمام لدى الفريق القائل بوجوبها على الله، و القائلين بوجوبها على الأمة فهى : إن جميع الشيعة ما عدا الزيدية، و بعض المعتزلة يقولون إن الإمام يجب أن يكون بالنص من النبى أو القائم مقامه، لأنه بنظرهم من أصول الدين، و إن الإمامة واجبة على الله».

و هناك طائفة من الفرق الإسلامية تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول : إن أمر الإمامة راجع إلى الأمة، لأن الإمامة فرع من فروع الدين . أما الغلاة فقد شذوا و بعدوا حينما اعتبروها ألوهية، أو حلولية، أو ما شابه ذلك من الأقوال التى لا تنطبق على حقيقة، و لا يقرها عقل.

و من الجدير بالذكر أنه كان من الطبيعى أن تلقى أقوال الرازى بعض المعارضة و الرد العنيف و خاصة عند ما وجه هجومه إلى النبوة و خصائصها و صلاحياتها، و عندئذ تطوع الداعى الإسماعيلى الكبير أبو حاتم الرازى المعروف بسعة علمه و تفوقه فرد عليه رداً عنيفاً و أفحمه فى كتابه المشهور «أعلام النبوة» فاعتبر النبوة الأصل و الإمامة فرعاً منها و إنها قطعاً يجب أن تكون فى أسرة «آل البيت» ..

أما الإسماعيلية فقد جعلوا الإمامة إحدى دعائم الدين، و سموها «الولاية»، و قالوا: إنها أفضل دعائم الدين و أهمها بعد النبوة «و الوصاية» و إنه لا يستقيم الدين إلّا بها .. و مما يجب أن نذكره : أن الوصاية أرقى بدرجة واحدة من الإمامة، فالإمام الذى يكون، فى عهد الناطق يأخذ اسم الوصى، و الوصى المرافق للرسول يكون مفضلاً و أعلى من الإمام الذى يأتى بعده و مهما يكن من أمر .. فالإمامة هى المركز الذى تدور عليه دائرة الفرائض، فلا يصح وجودها إلّا بإقامتها ثم قالوا بالنص، و أن الإمامة تستمر مدى الدهر، و أنها بدأت بالتسلسل من عهد آدم الأول، و أن الكون لا يستطيع البقاء لحظة واحدة دون إمام، و أنه لو فقد ساعة واحدة لماد الكون و تبدد، فهى تعاد ل درجة الإيمان، أو القلب فى الجسم، أو العقل

بالنسبة للإنسان، و بالإضافة إلى ذلك، فالإمام هو الذى يحل الحلال، و يحرم الحرام، و يقيم حدود الله، و يذب عن دين الله بموجب نصوص

##PAGE=76##

٨

القرآن، و يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة و الموعظة الحسنة و الحجة البالغة.

و فى الاعتقادات الإسماعيلية يجب أن تنتقل الإمامة بنص شرعى، فالإمام مما يؤتة من معرفة خارقة يعرف أى أبنائه جدير بها، و يعتقدون أن الإمام لا يخطئ فى معرفته هذه بحال من الأحوال، و إلا لما كان إماما ... و يضيفون إلى ذلك قولهم:

إن الله لا يترك العالم خاليا من إمام لأنه حجة الله على خلقه، و الهادى بهم إلى الصراط المستقيم، و الحارس للشرعية، و الوارث للنبوّة، و الساهر على تطبيق أحكام تعاليم القرآن .. على أن كل هذه الصفات و الصلاحيات لا يدخل فى نطاقها معرفة الغيب أو تغيير أى شئ فى الشريعة، أو القول بالألوهية، أو الحلولية، أو التجسيم، أو التقمص، و إن للإمام صفات يجب أن تتوفر فيه و إلا بطلت إمامته، فيفترض أن يكون أعلم أهل زمانه و أصدقهم، و شجاعا، و كريم اليد .. لأنه «المعلم» و «الإنسان الكامل».

أما الألوهية عند الإسماعيلية فقد لخصها دعائهم، و عبروا عنها تعبيرا فلسفيا و منطقيا و بذلك نفوا التهم و الأساطير المتداولة عنهم.

فقالوا إن المبدع الخالق قديم و قبل الأزل . و إن عالم الموجودات و المبدعات محدث .. لأنه إذا كان غير محدث فيجب أن يكون شئ سابق قد أحدثه، و إذا كان العالم قديم قبل الخالق استحال تعلق جبروته بالقدم و وجوده بالعدم، و اقتضى موجدا أو جده.

فهو المتعالى عن درك الصفات، و لا ينال بحس، و لا يقع تحت نظر، و لا تدركه الأبصار، و لا ينعت بجنس، أو يخطر فى الظنون، و لا تراه العيون أو يوصف بالحواس، أو يدرك بالقياس، أو يشبه بالناس ... فهو المنزه عن ضد مناف .. أو ند مكاف، أو شبه شئ .. تعالى عن شبه المحدودين، و تحيرت الأوهام فى نعت جبروته، و قصرت الأفهام عن صفة ملكوته، و كلت الأبصار عن إدراك عظمتة، ليس له مثل و لا شبه .. هو غير ذى ند، و غير ذى ضد، لأن الضد إنما يضاده مناف دل على هويته بخلقه و آثاره على أسمائه بأنبيائه، فليس للعقل فى نبيل سمائه مجال أو تشبيه .. إذ إن تشبيه المبدع بمبدعه محال، هو مبدع المبدعات، و مخترع المخترعات، و مسبب كون الكائنات، و رب كل شئ، و خالقه، و متممه، و مبلغه إلى الأفضل ... جل أن يحده تفكير أو يحيط به تقدير، ليس له أسماء، لأن الأسماء من موجوداته، و لا صفات لأن الصفات من «أيسياته»، و إن حروف اللغة لا يمكن أن تؤدى إلى لفظ اسمه، أو أن يطلق عليه شئ

^٨ تامر، عارف، تاريخ الإسماعيلية، 4 جلد، رياض الرئيس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

منها، لأنها جميعها من مخترعاته، وإن كافة الأسماء التي أبدعها جعلها أسماء لحدوده و مبدعاته.

و هو قديم، و قبل الأزل و صاحب مصدر الأولى ة بالترتيب، لأن الحد الأول انبثق منه و هو العقل الأول، و هو مبدع المبدعات، و معلّ العلل، و باري البرايا، و الدائم الوجود، و الفرد المعروف بفرديته و صمدانيته، و صاحب فعل الإيجاد الأول للعدد الأول الذى هو أصل الأعداد، و يضاف إلى ذلك بأنه لا ينال بصفة من الصفات، و إنه ليس جسما، و لا هو فى جسم، و لا يعقل ذاته عاقل، و لا يحسّ به محسّ، و هو ليس بصورة و لا بمادة، و لا يوجد فى اللغات ما يمكن الإعراب به عنه، و هو موجود لأنه لا يصح أن يكون غير موجود، و لا أن يكون موجودا من نوع الموجودات التى وجدت عنه، و أما الاستدلال عليه فيستخلص من وجود الموجودات و ذلك لأنه لا معلول دون علّة، و لا موجود إلا بما يوجب وجوده، و لما كانت الموجودات، يستند بعضها فى وجوده إلى بعض، و كان لو كان ذلك البعض، الذى يستند هذا البعض فى وجوده إليه، غير ثابت فى الوجود، و لا موجودا، لكان وجود هذا البعض محالا. فلما ثبت أنه لا وجود لهذا إلا بذاك، فلذلك كان منه العلم، بأن الذى تنتهى إليه الموجودات، التى به توجد، و إليه تستند، و عنه توجد. هو الله الذى لا إله إلا هو.

الاسماعيلية فى ظل الإمامة

فى هذه الصفحات، نسجل بعض أقوال أئمة الإسماعيلية فى الإمامة و وجوبها و مكانها و صلاحياتها، و عرضنا إظهار ناحية مهمة فى العقائد الإسماعيلية كانت و ما زالت مثار أخذ وردّ، و قد يساعد هذا على وضع الأمور فى مسارها الصحيح، و نفى التهم المتداولة، و إظهار الأمر على حقيقته.

ورد فى كتاب «دعائم الإسلام» للقاضى النعمان بن حيون المغربى حديث رواه الإمام جعفر بن محمد «الصادق» بأن قوما أتوا جده الإمام على بن أبى طالب فقالوا له:

أنت إلهنا و خالقنا و رازقنا، و منك مبدؤنا و إليك معادنا ... فتغير وجهه عليه السّلام، و ارفض عرقا، و ارتعد كالسّعة تعظيما لجلال الله، و خوفا منه، و ثار مغضبا، و نادى بمن حوله، و أمرهم بحفير فحفر و قال : لأشبعنكم اليوم لحما و شحما. فلما علموا أنه قاتلهم .. قالوا: لئن قتلنا فأنت تحيينا فاستتابهم فأصروا على ما هم عليه، فأمر بضرب أعناقهم، و أضرم نارا فى ذلك الحفير، و أحرقهم فيه و قال:

«لما رأيت الأمر أمرا منكرا أضرمت ناري و دعوت قنبرا»

و هذا من مشهور الأخبار عنه. و كان فى عهود الأئمة من ولده مثل ذلك ما يطول الخبر بذكرهم، كالغيرة بن سعيد، و كان من أصحاب الإمام محمد ابن على (الباقر) و دعائه، فاستذله الشيطان و كفر و ادعى النبوة و زعم أنه يحيى الموتى، و أن

الإمام «الباقر» إله، و قد بعثه رسولا. و تبعه على قوله كثير من أصحابه سموا «المغيرة» باسمه، و لما لم يكن للإمام الباقر ما كان لجده على بن أبى طالب ليقتلهم فإنه اكتفى بلعنهم و التبرؤ منهم.

ثم كان «أبو الخطاب» فى عصر الإمام جعفر بن محمد «الصادق» من أجلّ دعائه، فأصابه ما أصاب المغيرة، فكفر و ادعى أيضا النبوة، و زعم أن جعفرا إله، و استحل المحارم، و عطل الشرائع، و انسلخ عن الإسلام . و كان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه و قالوا: يا أبا الخطاب خفف علينا، فيأمرهم بتركها حتى تركوا جميع الفرائض، و استحلوا جميع المحارم، و ارتكبوا المحظورات، و أباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور، و قال:

من عرف الإمام فقد حلّ له كل شىء، فبلغ أمره الإمام جعفر، فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه و تبرأ منه، و جمع أصحابه فعرفهم بذلك و كتب إلى البلدان بالبراءة منه و اللعنة عليه.

قال المفضل بن عمرو: دخلت يوما على الإمام جعفر بن محمد «الصادق» فرأيتة مقاربا منقبضا مستعبرا فقلت له: مالك جعلت فداك؟ فقال:

سبحان الله و تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .. أى مفضل ... زعم هذا الكافر الكذاب أنى أنا الله ... فسبحان الله و لا إله إلا هو ربى و رب آبائى.

فهو الذى خلقنا و أعطانا و حولنا ... أخرج إلى هؤلاء يعنى أصحاب أبى الخطاب و قل لهم: إنا مخلوقون و عباد مربوبون. و روى عن الإمام جعفر بن محمد (الصادق) أن سديرا الصيرفى سأله فقال له:

جعلت فداك ... إن شيعتكم اختلفت فيكم فأكثر، حتى قال بعضهم: إن الإمام ينكت فى أذنه، و قال آخرون: يوحى إليه ... و قال آخرون: يقذف فى قلبه، و قال آخرون: يرى فى منامه، و قال آخرون: إنما يفتى بكتب آبائه.

فبأى قول آخذ جعلت فداك؟

فقال: لا تأخذ بشىء من قولهم يا سدير .. نحن حجج الله و أمناؤه على خلقه، حلالنا من كتاب الله، و حرامنا منه.

و روى: أن العيص بن المختار دخل عليه فقال: جعلت فداك .. ما هذا الاختلاف بين شيعتك؟ فقال: أى اختلاف يا عيص؟ قال: ربما اجلس فى

##PAGE=79##

حلقتهم بالكوفة، فأكاد أشك لاختلافهم و حديثهم، فأرجع إلى المفضل فأجد عنده ما أريد فأسكن إليه ...

فقال: أجل .. هو كما ذكرت ... إن الناس أغروا بالكذب علينا، حتى كأن الله عز و جل افترضه عليهم، لا يريد منهم غيره، و إنى لأحدث أحدهم الحديث فلا يخرج من عندى حتى يتأوله على غير تأويله، و ذلك إنهم لا يطلبون دينا، و أنتم

تطلبون الدين، وإنما يحب كل واحد منهم أن يكون رأساً .. أى عيص .. ليس من عبد رفع رأسه إلا وضعه الله، و ما من عبد وضع نفسه إلا رفعه الله و شرفه.

و كان فى عصر، المهدى بالله . بعض الأقوام من أهل البصائر فى الدين، و من أجله المؤمنين، و ممن تقدم لهم العناء و الجهاد. و كانوا يدعون إلى الله و إلى وليه، و لكن الشيطان استذلهم كما استذل من ذكرنا من قبلهم، فاستهواهم و أركسهم و أرداهم فختم لهم بالشقوة و قتلوا على النفاق و الضلالة، و انسلخوا من الدين جملة، نعوذ بالله من الضلالة، و نسأله العصمة. و قال الفيلسوف الإسماعيلي الكرمانى فى رسالته «تنبيه المادى و المستهدى»:

«إن أعظم الفرق ضلالة هى فرقة «الغلاة» التى ضلت و أضلت غيرها فانسلخت عن جملة أهل الدين و الديانة».

و قال الإمام المنصور بالله، و كان عالماً بالنجوم:

«و الله ما نظرت فيها إلا طلباً للعلم، و توحيد الله، و تأثير قدرته، و عجائب خلقه، و لقد عانيت من الحروب و غيرها، فما عملت فى شىء من ذلك باختيار منى دلائل النجوم، و لا التفت إليه».

و قال القاضى النعمان بن حيون أيضاً:

«فإننا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون المبطلون الصادون عن أولياء الله الزاعمون إنهم يعلمون الغيب».

و قال الإمام القائم بأمر الله:

«إنما يذهب إلى جهنم، من انتسب إلينا، و قال عنا أننا نعلم الغيب و ما تخفى الصدور».

و هكذا فإننا نرى أن الإسماعيلية لا يختلفون عن غيرهم من المسلمين، فهم يتبرأون من الغلاة، و يحرمون ما حرمه الله، و يتجنبون المآثم و المعاصى ... و يقولون بأن الإمام مكوّن من جسم و نفس، و بعد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه، فالجسم الترابى يعود إلى

##PAGE=80##

التراب، و النفس اللطيفة تعود إلى ما يناسبها و يجانسها . و ها هو أكبر داع من دعائهم هو المؤيد فى الدين يدافع و يعلن عن اعتقاده:

و ما لنا إلا النبى مرجع

فكيف شرع الأنبياء ندفع

و بالكرام الكاتبين نلتقى

بنوره فى الدرجات نرتقى

و أرمهم بأفجع الفجائع

يا رب فالعن جاحدى الشرائع

و رأينا رجالا أيضا كانوا ممن شملتهم الدعوة، و كانت لهم البصيرة و الولاية . و الحظوة و الأعمال الصالحة، ثم ارتكبوا العظائم، و استحلوا المحارم، و عطلوا الفرائض، و استخفوا بالدين، و صاروا إلى حال من قدمنا ذكرهم من المبدلين الضالين، فعاقبهم الإمام المهدي بالله أشد العقوبة، و أنزل بهم سوء العذاب كلا بقدر استحقاقه، و انتحاله، و كفره، فقتل قوما صبرا، و صلب آخرين، و أبقى قوما في السجون مصفدين حتى هلكوا أجمعين، و اغلق باب دعوته، و حجب رحمته زمنا طويلا حتى امتحن المؤمنين و ميز الخيرين من المنافقين، و كان من أمره في ذلك ما لو ذكر عنهم لكان منهم سيرة، و كتبنا كثيرة. و سمعنا ولي الله المنصور بالله يقول:

لما قبض الله جل ذكره المهدي بالله إليه، و أفضى الأمر من بعده إلى القائم بأمر الله ... ذكر يوما بعد ذلك أمر الأئمة، و إلحاد من ألحد فيهم، فتنفس الصعداء، و انقبض، و ظهرت عليه الخشية، و نحن بين يديه، و رأينا أثر الخوف عليه، ثم قال : إنا لله، و إنا إليه راجعون ... و ذكر المنصور بالله عنه كلاما لم نقف على حفظه و معناه : التعوذ بالله من شر الناس، و ما يتأولونه عليه، و ينتحلون فيه.

ثم قال:

قد كنت عندهم بالأمس ولى عهد المسلمين، فكأنى بهم اليوم قد جعلنى بعضهم ربا، و جعلنى بعضهم نبيا و قال بعضهم : إنى أعلم الغيب، و قال آخرون : يأتينى الوحي ... ثم قال لنا المنصور بالله : مثل هذا فأذيعوه عنا و انشروه، و استعبروا كبا، و رأينا أثر الخشية فيه من خوف الله . و قال: مثل هذا فاذكروا و انشروا، فإنما نحن عباد من عباد الله، و خلق من خلقه، و لكن لنا منزلة أكرمنا بها بأن جعلنا أئمة عباده، و حججه على خلقه.

و ورد فى كتاب «المجالس و المسائرات» خطاب وجهه الإمام المعز لدين الله، إلى قاضى قضاة «النعمان بن حيون» يقول فيه:

«إنه انتهى إليك و إلينا، قولهم إننا ندفع نبوءة محمد صلى الله عليه و آله، و ندعى

##PAGE=81##

النبوءة بعده، و ندفع سنته و شريعته، و ندعو إلى غيرها، فلعن الله من قال بهذا و انتحله و ادعاه، و من تقوله علينا و رمانا به، و نسبه إلينا ..

و قال الإمام المعز لدين الله:

ما ألحد فينا، و لا أراد إدخال النقص على شيء من أمرنا أحد، إلا ابتلاه الله فى عاجل الدنيا ببلاء يكون نكالا.

و قال المؤيد فى الدين داعى الدعاء فى «مجالسه المؤيدية»:

من دان بآلهية البشر، ممن مضى و من غبر، خاب فى الدارين و خسر، و ما فيه عبرة لمن اعتبر، و ذكرى لمن تذكر، فاستعيذوا بالله من الوقوف فى موقف شركهم، و إطلاق الألسن بمثل افتراءهم و كذبهم ..

و قال أيضا فى «مجالسه المؤيدية»:

و جانبوا الغلو فيهم، فإن الغالى هالك، و فى وادى سقر سالك، و اعلموا أن أولياء الله من طينة الأرض معجونون، و للكون و الفساد من حيث أجسامهم مضمونون، يمسكهم الشراب و الطعام، و تلحقهم الأمراض و الآلام، و يقضى عليهم عند استيفاء أيامهم الحمام، لا كما زعم الزاعمون من الجهلة الذين تسببوا فى اعتقادهم السخيف إلى الراحة، و إطراح التكليف، إنهم متردون برداء الإلهية، و فى قولهم من الخل ما لا يعلق بقلب، و لا ينطوى على ذى لب.

##PAGE=83##

الفرق الشيعية

##PAGE=85##

ينسب للرسول الكريم صلى الله عليه و آله قوله: «تفترق أمتى على ثلاث و سبعين فرقة» و هو حديث نرى ردّه و تضعيفه فالكهانة ليست من شأن الرسول فضلا عن أن التاريخ لم يدعمه، فالمعروف عن الفرق فى الإسلام أنها نوّقت على المائة، و لم تكن حصّة الشيعة بالضئيلة على الإطلاق و إن اختلف كتّاب الفرق كالأشعرى و الشهرستاني و عبد الجبار و المقرئى و ابن حزم و سواهم فى عددها . و الذى نحن بصده الآن هو ذكر الفرق ذات الصلة ببحثنا و نبذ تلك التى عفا عليها الدهر فلم يبق لها أثر يذكر.

أ- الحنفية

«الحنفية» مجموعة شيعية أتباع محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية. و قد كانت لهم الصدارة فى مجال الأعمال السياسية، و خاصة بعد مقتل الحسين بن على سنة ٦١ هـ. و من هذه المجموعة تفرقت فرق عديدة أهمها:

١- الكيسانية: ظهرت الكيسانية بعد الثورة التى أشعلها المختار ابن أبى عبيد على عامل الزبير فى الكوفة. و من الواضح أن هذه الفرقة اعتبرت محمد بن الحنفية المهدي المنتظر، و أعلنت ذلك على الملأ سنة ٦٦ هـ الموافق سنة ٦٨٥ م. و أخيرا: قتل المختار المذكور، و توفى محمد بن الحنفية و لكن أتباعه قالوا: إنه لم يمّت، بل هو فى الغيبة و الاستتار، و سيعود ليملأ الدنيا عدلا و قسطا كما ملئت جورا و ظلما، و من اعتقاداتهم فيه قولهم: إنه مقيم فى شعب من جبل «رضوى» فى الحجاز مع أربعين من حججه، و هم أحياء يرزقون. و يقول الشاعر «كثير عزة» مؤيدا ذلك، و كان من أعضاء هذه الفرقة:

##PAGE=86##

ولاة الحق أربعة سواء	ألا إن الأئمة من قریش
هم الأسباط ليس بهم خفاء	على و الثلاثة من بنیه
و سبط غيبته كربلاء	فسبط سبط إيمان و برّ
يقود الخيل يقدمها اللواء	و سبط لا يذوق الموت حتى
برضوى عنده غسل و ماء	تغيب لا يرى فيهم زمانا

٢- الأبو هاشمية: فرقة شيعية ساقطت الإمامة في محمد بن الحنفية و في ولده أبو هاشم من بعده . و بعد وفاته افتقرت إلى عدة فرق.

فمنهم من ساقها في أخيه علي ثم في ابنه الحسن بن علي، و منهم من زعم أن أباهم أوصى بها قبل أن يموت إلى محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس حين كان منصرفا من الشام، و محمد هذا أوصى إلى ابنه ابراهيم الملقب بـ «الإمام». أما ابراهيم فقد أوصى إلى أخيه عبد الله ابن الحارث . و من الجدير بالذكر أن أبا هاشم هو الذي تنازل عن الإمامة طوعا لمحمد بن علي بن عبد الله بن العباس، و ذلك في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، مدعيا أن ليس بين العلويين من يصلح لإقامة الدعوة العلوية أو تبوء منصب الإمامة . و من الواضح أن هذه الفرقة ظلت على إخلاصها للعباسيين، و تنكرت لأبناء عمومتها الحسينيين إلى أن صرعه أبو جعفر المنصور. و عندئذ عادوا و اندمجوا بالإسماعيلية. و مهما يكن من أمر ... فإن عبد الله بن الحارثية الملقب بالسفاح أوصى بعدئذ إلى أخيه أبي جعفر عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور، و انتقلت أخيرا إلى ولده بالنص و العهد واحدا عقب واحد إلى آخر السلالة العباسية . و من جهة أخرى فإن أبا هاشم باغتصابه أمر الخلافة من بنى عمه الحسينيين و تنازله عن الإمامة إلى العباسيين قد أضعف على العلويين فرصة الاستيلاء على الخلافة من الأمويين، كما ساعد على تفككهم، و مكن العباسيين من قلب الدولة الأموية، و الاستيثار بالخلافة دون العلويين.

٣- الراوندية: هي من فروع الفرقة الحنفية التي زعمت أن أبا هاشم أوصى بالإمامة إلى محمد بن علي بن العباس في مدينة دمشق، و من الجدير بالذكر أن هذه الفرقة ساهمت بإبعاد الحسينيين، و مهدت لقيام العباسيين بأن ساعدتهم و أفسحت لهم المجال للوصول إلى

##PAGE=87##

مركز الخلافة الإسلامية. بعضهم لا يعتبرها من الفرق الشيعية لأن في مبادئها ما يدل على أنها خارجة عن الإسلام.

٤- الحارثية: من الفرق الحنفية أيضا التي قالت إن أبا هاشم قد أوصى بالإمامة إلى عبد الله بن معاوية الذي ينتسب إلى أبي طالب والد الإمام علي. أما عبد الله بن الحارث الذي تنسب الحارثية إليه، فكان غالبا من أهل المدائن، و قد أوجد فرقة خاصة به، ثم انضم أخيرا إلى عبد الله بن معاوية، و يظهر أن الفرقتين هما نفس الحزبية و الجناحية.

٥- البيانية: فرقة حنفية الأصل قالت: إن الإمام القائم المهدي المنتظر هو أبو هاشم، و سيعود فيما بعد، و لا وصى بعده، و لكن «بيان ابن سمعان التميمي» ادعى أنه خليفته من بعده، فقبض عليه و صلب سنة ١١٩ هـ الموافق سنة ٧٣٧ م.

٦- الكربية: هم أصحاب ابن كرب الضرير، و حمزة بن عمار البربري . و قد زعم هؤلاء أن محمدا بن الحنفية لم يمت، و إنما هو في كهف الغيبة و الاستتار، و سيعود ليملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا و ظلما. و من الجدير بالذكر أن حمزة هذا قد ادعى فيما بعد أن محمد بن الحنفية هو الله، و أنه هو نبيه، و تذكر المصادر التاريخية أنه ظهر من هذه الفرقة رجلا كان لهما شأن، و يقال لأحدهما صائد، و للآخر بيان، و من الجدير بالذكر أن عددا من الفرق انبثقت عن الكربية.

٧- الحميرية: من الفرق الحنفية أيضا التي قالت: إن محمد بن الحنفية غائب في جبل رضوى بالحجاز، و سيعود بعد الغيبة ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا . و كان السيد الحميري المتوفى سنة ١٧٣ هـ قد ادعى أنه خليفة محمد بن الحنفية، و القائم مقامه

و هو القائل:

سنين و أشهر و يرى برضوى	شعب بين أنمار و أسد
مقيم بين آرام و عين	و حقان تروح خلال ربد
تراعيها السباع و ليس منها	ملاقيهن مفترسا بحدّ
أمنّ به الردى فرتعن طورا	بلا خوف لدى مرعى و ورد

##PAGE=88##

٨- العميرية: هذه الفرقة انشقت من البيانية بعد موت أبي هاشم، و بعد ادعاء بيان بن سمعان بالخلافة . و مما يذكر أنها نادت بإمامة عمر بن بيان العجلي.

ب- الحسينية

«الحسينية» فرقة شيعية إمامية تنسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب و ولده فيما بعد، و قد تفرع من هذه الفرقة فرق عديدة، أجدرها بالذكر و أهمها:

١- المغيرية: نصّب محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي الملقب ب «النفس الزكية» نفسه إماما، و ذلك ما بين سنتي ١٠٠ إلى ١٤٥ هـ الموافق لسنتي ٧١٨ إلى ٧٦٢ م. كما ادّعى أنه «المهدي المنتظر» لما تجاوز التاسعة عشرة من عمره. و كان يبشر بهذه الأفكار و الادعاءات «المغيرة بن سعيد العجلي» الذي ادعى أنه نبيه، فلما قتل محمد قال أتباعه :

إنه في الستر والغيبه و سوف يعود ... و مما يذكر : أن خالد القسرى قتل المغيرة و أحرقه بالنار حينما علم بأمره و كان ذلك سنة ١١٩ هـ أو سنة ٧٣٧ م.

٢- المنصورية: فرقة انشقت من الحسينية الرئيسية، فقد قالت بإمامة أبي منصور العجلي الذي ادعى أنه خليفة محمد «النفس الزكية»، و أنه أوصى له بالإمامة من بعده.

٣- المحمدية: فرقة من فرق الحسينية التي قالت بإمامة النفس الزكية، و من الجدير بالذكر أنها بادت و لم يعد لها أى أثر بعد مقتل المغيرة بن سعيد العجلي.

ج- الزيدية

فرقة شيعية إمامية قالت بإمامة الحسن بن علي ثم بابنه الحسن «المثنى» و أخيرا يزيد و هو صاحب هذا المذهب . مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الفرقة في بدء أمرها قالت بإمامة الحسن المثنى بن الحسن ثم بابنه عبد الله ثم بأخيه إبراهيم ثم باسماعيل ثم بابراهيم طباطبا . و من الزيدية الأم تفرع : بنو الحسن، و بنو طباطبا، و الرسيون، و بنو المطوق، و بنو تج و اسمه الحسن، و ولد الهادي باليمن الذي كانت له الإمارة بالديلم، و ولد الناصر الحسنى الذي كان باليمن أيضا و غيرهم.

##PAGE=89##

من أئمة هذه الفرقة البارزين: محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن السبط، و يقال له «النفس الزكية» و قد مر ذكره. و من المعروف أنه خرج من الحجاز، و لقب نفسه بالمهدي، فجاءته عساكر المنصور العباسي و قتلوه، و بعد قتله عهد أتباعه إلى أخيه بالإمامة، فقام بالبصرة و معه عيسى بن زيد بن علي، فوجه إليهم المنصور عساكره فهزموهم و قتلوا ابراهيم و عيسى . و كان الإمام جعفر بن محمد «الصادق» قد أخبرهم و نصحهم بالإخلاق إلى الراحة و الصبر فلم يسمعو منه، و ذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله «النفس الزكية» هو: محمد بن القاسم بن علي بن عمر، و هو أخو زيد ابن علي. و من المعلوم أنه خرج إلى الطالقان في بلاد فارس، و دعا لنفسه بالإمامة فقبض عليه، و سيق إلى المعتصم العباسي حيث أودعه السجن إلى أن مات . و قال آخرون : إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله في قتاله مع المنصور، و قد تقلد الإمامة في عقبه، و إليه انتسب صاحب «الزنج» فيما بعد .. و قال آخرون:

إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه ادريس الذي فرّ إلى المغرب و مات هناك و قد قام بالأمر بعده ابنه ادريس الذي اختطّ مدينة فاس بالمغرب، و كان من عقبه أدارسة المغرب الذين لعبوا دورا مهما في سياسة المغرب، ثم انتهت دولتهم أخيرا على أيدي الفاطميين.

و الزيدية كما تدل المصادر التاريخية كانت أحوالهم غير مستقرة، فمنهم الإمام الذي ملك طبرستان، و هو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط، و أخوه محمد بن زيد، و هو الذي قام بالدعوة في اليمن، و منهم الناصر الأطروش . و قد أسلموا على يده، و هو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر، و عمر هو أخو زيد بن علي، و قد كانت لبنينه في طبرستان دولة، ثم توصل من كان منهم بالديلم إلى الملك و التحكم في الخلافة العباسية في بغداد كما يذكر التاريخ.

و مهما يكن من أمر ... فالفرقة الزيدية هي من الفرق الشيعية الإمامية، و لا تزال سائرة على النهج الإمامي حتى يومنا هذا، و موطنها في اليمن و الحجاز و المحميات، و تتفرع منها فرق أربع هي:

١- الجارودية: من الفرق الزيدية التي اتبعت «أبو الجارود» المعروف بزياد بن المنذر ... و هذا الرجل ادعى الإمامة لنفسه.

##PAGE=90##

٢- السليمانية أو الجريرية: فرقة تفرعت من الزيدية، و سارت وراء سليمان بن جرير الزيدى الذى قال بأن الإمامة يجب أن تكون شورى و سبيلها العقد، و رأت في إمامة الشيخين خطأ لا يستحق اسم الكفر.

٣- البترية: فرقة أخرى من الزيدية هم أصحاب الحسن بن صالح بن حى الذى كان يلقب بالأبتر. و هم يصححون بيعه أبى بكر و عمر و يفضلون على بن أبى طالب و يتوقفون في الحكم على عثمان.

٤- اليعقوبية: فرقة تفرعت من الزيدية، و اتبعت رجلا اسمه يعقوب، و كان من المجتهدين ثم لم يلبث أن ادعى الإمامة.

د. الجعفرية الإمامية

و هي المجموعة الشيعية الكبرى التي ظلت على ولائها منذ عهد الإمام على بن أبى طالب حتى عهد حفيده الإمام الخامس «جعفر بن محمد الصادق» و قد تفرع من هذه المجموعة الكبرى فرق عديدة.

١- الجعفرية الإثني عشرية: فرقة من الجعفرية الإمامية، قالت بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر بن محمد الصادق، و بأولاده من بعده حتى محمد بن الحسن (المنتظر)، و هو الإمام الثانى عشر من جده الإمام على بن أبى طالب.

٢- الخطابية: فرقة من الجعفرية الإمامية سارت وراء محمد بن زينب الأسدى الأجدع المعروف بـ «أبى الخطاب» ... و هذه الفرقة قالت بالوحيه جعفر بن محمد الصادق و بنوؤه «أبى الخطاب». و بعد موته تحولت إلى الموسوية القائلة بإمامة موسى الكاظم بن جعفر، و أخيرا انضمت إلى الإسماعيلية.

٣- النصيرية: فرقة من الجعفرية الإمامية، قيل إن تسميتها نسبة إلى «نصير» أحد غلمان الإمام على بن أبى طالب، و قيل إلى محمد بن نصير البصرى النيمى أحد دعاة الإمام حسن العسكرى المعروف بأنه الإمام الحادى عشر من فرقة الإثني عشرية.

إن هذه الفرقة تذهب في خطها الإمامي مذهب الموسوية الإثني

##PAGE=91##

عشرية، و لكنها تتبع «الباطنية» في عقائدها. و قد عرف أن الحمدانيين، كانوا من أركانها أو من المؤيدين لعقائدها.

٤- المباركية: من الفرق الإمامية الجعفرية التي انتسبت إلى «المبارك» مولى اسماعيل بن جعفر، فاعتقدت بإمامته، و توقفت بعد موته، ثم انحازت إلى الموسوية الإثني عشرية فيما بعد.

٥- النواسية: جعفرية تفرعت من الخطابية، فرغت أن الإمام جعفر بن محمد (الصادق) لم يمت و لا يمكن أن يموت، و أنه سيظل القائم الحى المهدي الذى سيعود.

٦- المحمدية: فرقة جعفرية تفرعت من الخطابية، و قالت بإمامة محمد بن أبى جعفر الصادق.

٧- المفضلية: فرقة جعفرية سارت وراء المفضل بن عمر الجعفى، أحد تلاميذ الإمام جعفر بن محمد الصادق و هذه الفرقة انضمت إلى الفرقة النصيرية بعد وفاة «المفضل» و اندمجت فيما بعد فى صفوف الفرق الباطنية.

٨- المعمرية أو اليعمرية: من الفرق الشيعية الجعفرية التى تفرعت من الخطابية، و لكن أثرها طمس منذ ولادتها.

٩- البزيعية: فرقة جعفرية انشقت من الخطابية بعد موت أبى الخطاب، و قد وقفت عند إمامة جعفر بن محمد الصادق، و لم تقل بإمامة أحد من ولده. و ذكر أنها انضمت فيما بعد إلى الفرق الشيعية الأخرى.

١٠- الباقرية: فرقة إمامية شيعية سارت وراء محمد بن على (الباقر) الإمام الرابع بعد جده على بن أبى طالب، و قد اعتقدت فيه أنه الإمام المنتظر الذى سيعود فى يوم قريب، و لم تؤمن بإمامة ولده جعفر الصادق.

١١- الشميطة: فرقة من الجعفرية الإمامية قادها يحيى بن شميطة و قد زعمت أن الإمامة لمحمد بن جعفر الصادق وحده، و ليست

##PAGE=92##

لأحد من أولاده من بعده، و مما تجدر الإشارة إليه أن يحيى ادعى الإمامة لنفسه فيما بعد.

١٢- العمارية: فرقة من الجعفرية قالت بإمامة جعفر بن محمد الصادق، و لم تقل بإمامة أحد من ولده، و قد كان يتولى قيادتها عمار الساباطى ثم ولده عبد الله و كان أفتح الرجلين.

١٣- القطعية: فرقة شيعية ساقط الإمامة بجعفر بن محمد الصادق، و لكن أتباعها قطعوا بموت ولده موسى الكاظم زاعمين أن الإمام بعده هو محمد بن الحسن العسكري بن على الهادى بن محمد بن على بن موسى الرضا، ثم أنهم توقفوا عن هذا الحد، و لم يكملوا المسيرة.

١٤- الهشامية: فرقة قالت بإمامة جعفر بن محمد الصادق، و كان الداعى فيها يسمى «هشام بن سالم الجوالقي» و هى من الفرق التى تدخل فى عداد «المجسمة» أو «الحلولية» الملحدة.

١٥- الزرارية: فرقة جعفرية سارت وراء زرارة بن أعين. و كان من «الابطحيين» أولا ثم أصبح موسوياً فيما بعد.

١٦- اليونسية: من الفرق الجعفرية أيضاً، و من أتباع يونس بن عبد الرحمن القمى، و كان ع لى مذهب «القطعية» التى قطعت بموت موسى الكاظم بن جعفر الصادق.

١٧- الشيطانية: فرقة تفرعت من الجعفرية، وقد اتبعت محمد بن النعمان الملقب بالشیطان، و كان معاصرا لجعفر بن محمد الصادق، ثم ساق الإمامة بولده موسى الكاظم و قطع بموت اسماعيل، و لكنه انتظر عودة أسباطه.

١٨- الإسحاقية: فرقة جعفرية كانت تتبع اسحق بن زيد بن الحارث و كان من أصحاب عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب، و كان يقول بأن لعلي بن أبي طالب شراكة بنوّه محمد ...

و بشر بالتعطيل و الإباحية.

##PAGE=93##

هـ - الإسماعيلية الإمامية

فرقة شيعية إمامية قالت بإمامة اسماعيل بن الإمام جعفر بن محمد الصادق و بإمامة أولاده من بعده . و هذه الفرقة هي موضوع بحثنا في الأجزاء التالية من هذا الكتاب.

١- القرامطة: فرقة تفرّعت من الاسماعيلية، و قد خرجت على قاعدة الإمامة في عهد «أئمة الستر» الذي كان قائما في مدينة «سلمية» السورية في القرن الثاني للهجرة.

٢- الدروز: فرقة تفرعت من الإسماعيلية، و قد توقفت عن السير الإمامي بعهد الإمام الحاكم بأمر الله و تبنت حمزة اللباد الأعجمي «هادي المستجيبين» و سيده محمد بن اسماعيل.

٣- المستعلية أو البهرة: فرقة تفرعت من الإسماعيلية بعد وفاة الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر بالله، فأنكرت إمامة ولده الأكبر نزار و سارت وراء ولده الأصغر «المستعلي». و قد ظلت على سيرها حتى عهد الأمر بأحكام الله و هو ابن المستعلي، و تؤكد المصادر أنه مات دون عقب، و لكن أتباعه ذكروا أنه مات و ترك زوجته حاملا بولد ولد فيما بعد و اسمه «الطيب» و لكن الطيب هذا استتر منذ اليوم الأول من ولادته .. كما يقول أتباعه الذين يعرفون أيضا بالفرقة «الطبيبة».

٤- الداودية: فرقة تفرعت من «المستعلية» و تنتسب إلى داود بن عجب شاه .. الذي سمّوه «داعي مطلق»، أو نائب الإمام «الطيب».

٥- السليمانية: فرقة تفرعت من المستعلية أيضا، و تنتسب إلى سليمان بن الحسن الذي يطلقون عليه اسم «داعي مطلق» أو نائب الإمام المستور «الطيب» و من الجدير بالذكر أن هذه لا تختلف عن شقيقتها الداودية إلا بتسلسل الدعاة المطلقين.

٦- النزارية: فرقة اسماعيلية إمامية قالت بإمامة نزار بن المستنصر بالله .. و بأولاده من بعده و قد تفرّع منها المؤمنيه و القاسم شاهيه.

##PAGE=94##

٧- المؤمنية: فرقة اسماعيلية نزارية إمامية قالت بإمامة مؤمن شاه بن الإمام شمس الدين و بولده من بعده.

٨- القاسم شاهية: فرقة إسماعيلية نزارية إمامية قالت بإمامة قاسم شاه بن الإمام شمس الدين من بعده حتى آغا خان الحالي.

##PAGE=95##

تاريخ الأئمة

##PAGE=97##

الأئمة العلويون

بعد هذا العرض المبسط، ننتقل إلى إعطاء لمحة موجزة عن تاريخ الأئمة الذين يتحدثون من الدوحة العلوية التي يعتبر الإمام علي بن أبي طالب رأسها وأصلها، وفي هذه الصفحات من موسوعتنا سنركز على تاريخ أربع فئات منهم، وأكثرهم لعب دورا سياسيا، وظهر على المسرح في العهدين الأموي والعباسي وهم:

أولا- الأئمة الحسينيون، وثانيا- الأئمة الحنفيون، وثالثا- الحسينيون، ورابعا- الزيديون.

بعد ذلك سنعود إلى تاريخ الأئمة المعترف عليهم من إجماع الشيعة ابتداء من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام الخامس «جعفر بن محمد» الصادق الذي وقع في عهده انقسام الشيعة الكبير، وبعدئذ سنعطى لمحة تاريخية عن أئمة الفرقة «الإثنى عشرية» حيث لا يبقى علينا سوى الدخول إلى المدينة الإسماعيلية بدءا بعهد اسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق حتى النهاية، وبذلك نكون قد حققنا ما خططنا له.

وقدما صورة واضحة عن الإمامة في الإسلام بعد أن كنا عرضنا تاريخ الخلافة، وكل هذا اعتبرناه مقدمات تؤدي إلى «الاسماعيلية» التي هي موضوعنا.

أ- الحسينيون

وهم المتحدثون من الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب.

١- الحسن المثنى بن الحسن: هو الابن الأكبر للإمام الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد سنة ٣٤ هـ بالمدينة. أمه مليلة بنت خارجة

##PAGE=98##

ابن سنان. لقبه الحسن المثنى، كان جريئا ومغامرا، وعلى جانب كبير من الوسامة. أبلى بلاء حسنا في حرب كربلاء، و كان يتلقى النبال التي تصوب إلى عمه الإمام الحسين بصدوره. يعتبر الإمام الثاني بعد والده الحسن في نظر الحسينيين.

٢- عبد الله بن الحسن: ولد في المدينة سنة ٥٤ هـ. لقبه «عبد الله المحض» كنيته أبو محمد. كان شيخ الهاشميين في عصره وحجتهم.

لعب دورا بارزا على مسرح الأحداث الإسلامية، وكان من العلماء البارزين الذين تفوقوا في الفقه والحديث، والتفسير والبلاغة. قتل في المدينة سنة ٩٧ هـ، ودفن فيها. خاصمه و ناصبه العداء ابن عمه، زيد بن علي بن الحسين «زين العابدين».

٣- إبراهيم بن عبد الله: ولد سنة ٨٩ هـ في المدينة، هو ابن عبد الله بن الحسن المثنى. خرج إلى البصرة يطالب بالخلافة، فطلبه أبو جعفر المنصور العباسي سنة ١٤٥ هـ، و قتل به بسهم عابر.

مما يجب أن يذكر أن الإمام جعفر بن محمد (الصادق) ضاق به، و بمحمد بن عبد الله و هو أخوه المعروف بالنفس الزكية ذرعا.

فنصحهما بالخلود إلى السكينة، و عدم تحريك النار، و إهراق الدماء، و لكنهما لم يستجيبا، فعنفهما، و تبادل معهما كلمات جارحة، و أخيرا وقع ما توقعه فقتلا كما تنبأ الإمام جعفر، و انضم أتباعهما إلى الحسينيين.

يعتبر تخلي الإمام جعفر الصادق عن مساعدة (النفس الزكية) و أخيه، و عدم الاعتراف بزعامتهما سببا من الأسباب التي شجعت الخليفة العباسي الهادي على قتلها، و التمثيل بجثتيهما في موقعة «فخ» ١٦٩ هـ.

٤- محمد بن عبد الله: (النفس الزكية) ولد سنة ٨٧ هـ. في المدينة عند ما أحاطت عساكر عيسى بن موسى ابن أخي المنصور العباسي بالمدينة. كان (النفس الزكية) يدعو لنفسه بالخلافة، فلم يشأ الهرب بل خرج يباشر الحرب بنفسه، و كان معه قلة من الناس، و بالرغم من أنه عرف أنه ميت ظل يقاتل حتى استشهد.

كانت معركته أشبه بمعركة حمزة بن عبد المطلب، فقد رمى بالسهم

##PAGE=99##

مدة بعد أن لم يتجاسر أحد على الدنو منه، و حينما دهمته الخيل وقف إلى «جزر»، فتحاماه الناس، و عند ما تيقن من الموت تحامل على سيفه فكسره ... كان مقتله في المدينة سنة ١٤٥ هـ.

هو الابن الأكبر لعبد الله بن الحسن المثنى .. كان حديث الناس في عصره، و مضرب الأمثال بالشجاعة الفائقة، و الرجولة النادرة. حمل رأسه إلى المنصور العباسي.

٥- إدريس بن عبد الله: هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. يقال له: إدريس الأول. شهد موقعة «فخ»، و هو واد في مكة، و قد جرد لها الهادي العباسي كل جيوش الدولة العباسية للقضاء على أتباع محمد بن عبد الله (النفس الزكية).

اضطر إدريس إلى الاختفاء بعد المعركة مدة ثم فر إلى مصر، و منها إلى المغرب حيث استطاع أن ينشئ أول دولة علوية و ذلك سنة ١٧٢ هـ، و قد ظلت هذه الدولة تحكم المغرب الأقصى مدة طويلة إلى أن أزالها المعز لدين الله الفاطمي.

٦- يحيى بن عبد الله: نجا يحيى بن عبد الله مع من نجا من موقعة «فخ» فسار إلى بلاد الديلم، و فيها تعزز نفوذه، و كثر أنصاره، فندب الرشيد العباسي لقتاله الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في خمسين ألفا غير أن الفضل صانعه و لطفه حتى

أجاب إلى الصلح، على أن يكتب له الرشيد أمانا فكتبه، و أشهد عليه الفقهاء، و القضاء، و مشائخ بنى هاشم، ثم أتى إلى بغداد، فأقام بمنزل يحيى بن خالد أياما ثم دفعه إلى جعفر البرمكي فحبسه، و أكرمه في سجنه، و يذهب بعض المؤرخين إلى أن أحد الأسباب في نقمة الرشيد على البرامكة معاملة جعفر الطيبة ليحيى بن عبد الله. قتل سنة ١٧٦ هـ. في بغداد.

ب - الحنفيون

هؤلاء هم أتباع محمد بن علي بن أبي طالب من زوجته «الحنفية».

و قد نادى بالإمامة، و عمل لها.

١ - محمد بن الحنفية: ولد لستين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب سنة ٤٢ هـ. هو ابن الإمام علي بن أبي طالب . أمه هي خولة بنت قيس بن جعفر الحنفي من قبيلة حنيفة. كان يكنى «أبا

##PAGE=100##

القاسم» أولاده هم: الحسن بن محمد، و عبد الله (أبو هاشم)، و جعفر الأكبر، و حمزة، و علي، و جعفر الأصغر و عون، و إبراهيم، و أشهرهم أبو هاشم. كان غزير العلم، و الورع، شديد البأس، شجاعا، و مقداما.

ظهر في حرب الجمل، و قد أوكل إليه والده حمل الراية، و شق الصفوف، و لكنه تقاعس فحمل والده على الأعداء، و شق الصفوف، ثم عاد ليقول له: هكذا إفعل يا ابن الحنفية.

توفي سنة ٨١ هـ. و قيل في المدينة، و صلى عليه أبان بن عثمان بن عفان و كان والي المدينة، و قيل إنه خرج من الطائف هاربا من ابن الزبير فمات هناك، و قيل إنه مات في بلاد «أيلة».

٢ - عبد الله بن محمد (أبو هاشم): ولد سنة ٦٩ هـ، هو الابن الثاني لمحمد بن الحنفية، قبل وفاته أوصى بالإمامة إلى محمد بن علي ابن عبد الله العباسي، و كان ذلك في عهد خلافة سليمان بن عبد الملك الأموي، مدعيا أن ليس بين العلويين من يصلح لإقامة الدعوة العلوية.

يعتبر المغتصب لحقوق أبناء الحسينين، و أن تنازله عن الإمامة للعباسيين قد أضعاف على العلويين فرصة الاستيلاء على الخلافة الزمنية من الأمويين، كما ساعد على تفككهم، و مكن العباسيين من قلب الدولة الأموية، و الاستئثار بها دون العلويين.

مات سنة ١١٩ هـ، بأرض «السراة» و كان منصرفا من الشام.

ج - الحسينيون الثلاثة:

هؤلاء الأئمة الثلاثة الذين نكتب موجزا عن حياتهم، يتحدثون من الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب. و هم:

١- زيد بن علي بن الحسين: كنيته أبي الحسن، أمه «أم ولد» أهداها المختار بن أبي عبيدة إلى والده علي بن الحسين (زين العابدين) فولدت زيدا. كان زاهدا عابدا مثل والده. وقد أثر السجود في جبينه.

جاء إلى الكوفة ومنها إلى القادسية معرضا بالخليفة الأموي «هشام ابن عبد الملك» وهناك ألحوا عليه بالبقاء، وأعطوه العهود والمواثيق،

##PAGE=101##

و كان عددهم خمسة عشر ألفا، فأقام في الكوفة يرسخ قواعد دعوته، و يرسل دعاته إلى كل مكان.

قتل يوم الجمعة في شهر صفر سنة ١٢١ هـ / ٧٤٠ م.

٢- يحيى بن زيد: أمه «ربطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية». لما دفن والده رجع و أقام في مقبرة السبيع، و لكن الناس تفرقوا عنه، فلم يبق معه إلا عشرة نفر، فذهب بهم إلى نينوى ثم إلى المدائن، و منها خرج إلى الرى حتى أتى سرخس، و هناك حمل عليه عمرو بن زرارة و قتل أصحابه كلهم . أما هو فقد أصابه سهم فى جعبته كما ذكرنا رماه به رجل من موالى «عنزة» يقال له عيسى، و مما ذكر أنه صلب على باب مدينة جوزجان بخراسان سنة ١٢٥ هـ.

٣- عيسى بن زيد: هو الأخ الأصغر ليحيى بن زيد . أمه ربطة بنت أبي هاشم بن عبد الله بن محمد بن الحنفية . كان فى البصرة عند ما جاءت عساكر المنصور لقتاله. دعا لنفسه بالإمامة بعد مقتل أخيه.

ذكرت بعض المصادر: أن الزنج قد أرادوا الانتساب إليه، و التقرب منه فى أعمالهم و ثورتهم.

د- الزيدون (العمد الأول)

١- إبراهيم طباطبا بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن المثنى:

تعتبره الزيدية المؤسس الأول للإمامة الزيدية.

٢- محمد بن طباطبا: أحد أئمة اليمن ولد سنة ٧٣ هـ. توفى سنة ١٩٩ هـ. و له من العمر ١٢٦ عاما.

٣- أبو محمد القاسم الرسى ترجمان الدين بن ابراهيم بن طباطبا: ولد سنة ١٦٩ هـ. و توفى سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م. عمر ٧٧ عاما. تولى الإمامة بعد موت أخيه محمد، و سمي «الرسى» لأنه مات «بالرس»، و هو واد بنجد بالقرب من «ذى الحليفة»، و هى قرية على بعد ستة أو سبعة أميال من المدينة.

٤- الحسين بن القاسم: حكم سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م.

##PAGE=102##

٥- يحيى بن الحسين بن القاسم (الهادى أبى الحق): ولد سنة ٢٤٥ هـ. توفى سنة ٢٩٨ هـ. حكم سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م. خرج فى عهد المأمون العباسى، و ملك ما بين صعدة و صنعاء فى اليمن، و وقعت بينه و بين عمال بنى العباس معارك دامية . خطب له فى مكة سبع سنين. كان عالما جليلا. ترك مؤلفات عديدة قيمة.

٦- محمد بن يحيى المرتضى: اعتزل الحكم سنة ٣٠١ هـ، و توفى سنة ٣١٠ هـ. حكم سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م.

٧- أحمد بن يحيى (الناصر): توفى سنة ٣٢٥ هـ. حكم سنة ٣٠١ هـ / ٩١٤ م.

٨- الحسين بن أحمد (المنتخب): توفى سنة ٣٢٥ هـ.

٩- القاسم بن أحمد (المختار): حكم سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م.

١٠- يوسف بن يحيى (المنصور الداعى):

١١- القاسم بن على الأليانى (المنصور): توفى سنة ٣٩٣ هـ.

١٢- الحسين بن القاسم (المهدى): حكم سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م.

١٣- جعفر بن القاسم:

١٤- الحسن بن عبد الرحمن: حكم سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م.

١٥- الناصر بن الحسين بن محمد (أبو الفتح الناصر الديلمى): حكم سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م. قتله الملك على الصيلحي الإسماعيلي سنة ٤٤٧ هـ.

١٦- أحمد بن سليمان بن محمد (المتوكل): حكم سنة ٥٣٢ هـ / ١١٥٠ م. توفى سنة ٥٦٦ هـ.

١٧- على بن حاتم: هزمه تورانشاه الأول الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ / حكم سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م.

١٨- عبد الله بن حمزة العهد الثانى (المنصور): ولد سنة ٥٦١ هـ. توفى سنة ٦١٤ هـ. حكم سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م.

استرد صنعاء سنة ٥٩٤ هـ.

##PAGE=103##

١٩- يحيى بن حمزة يحيى الهادى إلى الحق (الثانى): مات سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م فى صعدة.

٢٠- محمد بن عبد الله الناصر: أقام فى صعدة اليمنية حتى سنة ٦٢٣ هـ حكم سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م.

٢١- أحمد بن الحسين (المهدى الموطأ): حكم سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م. مات سنة ٦٥٦ هـ.

٢٢- شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة (المتوكل): حكم سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م.

٢٣- المنتصر داؤد: فرع من قرابة بعيدة. نسب مشكوك فيه. حكم سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م.

٢٤- أحمد الإمام: حكم سنة ٦٤٦ هـ.

٢٥- أبو محمد الحسن:

٢٦- يحيى بن محمد:

٢٧- حسين بن فلان:

٢٨- إبراهيم بن أحمد: حكم سنة ٦٠٧ هـ.

٢٩- المطهر بن يحيى: كان ضد «المنتصر داؤد» توفي سنة ٦٩٧ هـ.

٣٠- محمد بن المطهر: حكم سنة ٦٩٧ هـ.

٣١- المطهر بن محمد:

٣٢- صلاح الدين بن المطهر:

أئمة صنعاء الزيديون:

٣٣- القاسم المنصور بن محمد بن علي بن محمد: مات في سنة ١٠٢٩ هـ. حكم سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م.

٣٤- محمد بن القاسم المؤيد: مات سنة ١٠٤٥ هـ. حكم سنة ١٠٢٩ هـ / ١٦٢٠ م.

٣٥- اسماعيل بن القاسم المتوكل: مات سنة ١٠٨٧ هـ. حكم سنة ١٠٥٤ هـ / ١٦٥٤ م.

##PAGE=104##

٣٦- أحمد بن القاسم: طالب بالحكم من سنة ١٠٥٤ هـ إلى سنة ١٠٥٥ هـ.

٣٧- أحمد بن الحسن: مات سنة ١٠٩٧ هـ. حكم سنة ١٠٨٧ هـ. محمد المؤيد الثاني ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م.

٣٨- محمد بن اسماعيل الهادي: مات سنة ١٠٩٧ هـ. حكم سنة ١٠٩٢ هـ / ١٦٨١ م.

٣٩- محمد بن أحمد بن الحسن المهدي: حكم سنة ١٠٩٧ هـ.

سنة ١٦٨٦ م.

٤٠- يوسف بن اسماعيل: ادعى لنفسه بالحكم لفترة قصيرة سنة ١٠٩٧ هـ.

٤١- محمد بن الحسين:

٤٢- القاسم بن الحسين بن أحمد: حكم سنة ١١٢٨ هـ / ١٧١٦ م.

٤٣- الحسين المنصور: حكم سنة ١١٣٩ هـ. ١٧٢٦ م (للمرة الأولى).

٤٤- محمد بن علي بن الحسين (الهادي المجيد): حكم سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م.

٤٥- الحسين بن المتوكل (المنصور): للمرة الثانية، حكم ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م.

٤٦- العباس بن الحسين بن المهدي: حكم سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م.

٤٧- المنصور علي: حكم سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م.

٤٨- أحمد بن الحسين المهدي: حكم سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م.

٤٩- المنصور علي:

٥٠- المهدي القاسم: حكم سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م.

٥١- محمد بن يحيى: عزل ثم قتل. حكم سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م. في عهده استرد العثمانيون صنعاء ١٢٨٩ / ١٨٧٢.

٥٢- يحيى حميد الدين: ثار ثم أعلن استقلال دولته في مدينة «صعدة» حكم سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م.

##PAGE=105##

٥٣- يحيى بن محمد بن حميد الدين (المتوكل): حكم في مدينة صعدة حتى ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م. وفي سنة ١٣٣٠ حكم بشهارة قرب صنعاء.

٥٤- سيف الإسلام أحمد بن يحيى بن حميد الدين: حكم حتى سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م.

٥٥- بدر بن أحمد بن يحيى: ١٣٨٢ - ١٩٦٢ هو الإمام الحالي ..

عزل إثر انقلاب عسكري ثم غادر اليمن بعد ذلك إلى المملكة السعودية. و بعد ذلك انتقل إلى بريطانيا حيث يقيم فيها مع أسرته.

الأئمة بالنص المعترف به

بعد أن قدمنا لمحة تاريخية موجزة عن الأئمة الذين ظهوروا في ظروف مختلفة على مسرح الأحداث الإسلامية، دون أن يكونوا حائزين على الاعتراف الكامل بإمامتهم من المجموعة الشيعية الكبرى ... نعود إلى عهد الإمامة الأول، فترافق الأئمة أصحاب النص المعترف به حتى عهد الإمام جعفر بن محمد (الصادق) الذي وقع في عهده الانقسام الكبير بين المجموعة الشيعية الكبرى كما ذكرنا، فانقسمت إلى فريقين: موسوية إثني عشرية، و اسماعيلية و كل هذا سنفصله في الصفحات التالية من هذا الكتاب.

الامام على ابن أبي طالب

«إلهي ... ما ذا وجدك من عرفك، و ما ذا عرفك من وجدك تعرفت إليك في كل شيء ... عبدتك لا خوفا من نارك، و لا طمعا في جنتك بل وجدتك إلها تستحق العبادة فعبدتك، و لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا ... كفاني فخرا أن تكون لي ربا، و كفاني عزا أن أكون لك عبدا أنت كما أريد فاجعلني كما تريد.

«الإمام على»

.... في عقيدتي أن ابن أبي طالب كان أول عربي لازم الروح الكلية و جاورها و سامرها.

و هو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها فرددها على مسمع قوم لم يسمعوها مثلها من ذي قبل فتأهوا بين مناهج بلاغته و ظلمات ماضيهم، فمن أعجب بها كان إعجابه موثوقا بالفطرة، و من خاصمه كان من أبناء الجاهلية.

مات على بن أبي طالب شهيد عظمته . مات و الصلاة بين شفتيه . مات و في قلبه الشوق إلى ربه . و لم يعرف العرب حقيقة مقامه و مقداره حتى قام من جيرانهم الفرس أناس يدركون الفارق بين الجواهر و الحصى.

مات قبل أن يبلغ العالم رسالته كاملة وافية. غير أنني أتمثله مبتسما قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض. مات شأن جميع الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم و إلى قوم ليس بقومهم، في زمن ليس بزمانهم، و لكن لربك شأننا في ذلك و هو أعلم!

جبران خليل جبران

ولد على بن أبي طالب بمكة في الكعبة بين ٦٠٠ و ٦٠٤ م بعد عام الفيل بثلاثين سنة و قبل الهجرة بخمس و عشرين و لم يولد في الكعبة غيره ... و لما كان والده غائبا سمته أمه «حيدرة». و عند ما جاء والده سماه «عليا».

والده أبو طالب و اسمه «عبد مناف بن عبد المطلب» و كان يلقب «بأبي

طالب»، و قد توفي و عمر على عشرون سنة، أما والدته فهي : فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، و كان أصغر أبناء أبيه و أكبر منه جعفر و عقيل و طالب، و لما أصاب القحط قريشا كفله النبي.

عند ما بلغ سن العاشرة هب لنصرة ابن عمه، و كانت دعوته قد أخذت في الظهور. تزوج حوالي سنة ٦٢٣ م من فاطمة بنت النبي محمد صلى الله عليه و آله، و أنجب منها الحسن، و الحسين، و محسن، و زينب الكبرى، و أم كلثوم، و بعد وفاتها تزوج نساء عديدات منهن: خولة بنت قيس بن جعفر الحنفي و أنجب منها محمد بن الحنفية.

افتدى النبي محمد صلى الله عليه و آله بنفسه، و نام في فراشه، و هاجر في سبيله من مكة إلى المدينة على رجليه وحيدا مدة أربع عشرة ليلة، و قاد الحملات الباسلة في سبيل الإسلام و شارك في غزوات رسخت قواعد الإسلام، و وطدت دعائمه ... و منها: بدر الأولى، و الثانية و خيبر، و الخندق، و حنين، و وادي الرمل، و «الطائف» و «اليمن»، كما انتصر في حرب الجمل، و صفين، و النهروان.

صلى على النبي الكريم محمد صلى الله عليه و آله و جهزه و دفنه . و شكى أبو الأسود الدؤلي إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب فأملى عليه «كلام العرب يتركب من اسم و فعل و ح رف» ثم قال: «أنح هذا النحو، فعرف العلم باسم النحو» من يومها.

تسلم شؤون الخلافة، بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ٦٥٦ م أو ٣٦ هـ و لكن عائشة زوجة النبي محمد صلى الله عليه و آله و طلحة و الزبير شقوا عصا الطاعة، و اتخذوا من البصرة قاعدة لتجهيز القبائل، و إعلان الثورة و العصيان . فجاء بجيوشه و قضى على مقاومتهم في حرب الجمل المعروفة.

كما أن معاوية بن أبي سفيان أعلن العصيان على خلافته من دمشق سنة ٣٧ هـ، فزحف بقواته لملاقاة جيوش الشام، و أسفرت المعارك عن إجراء التحكيم المعروف ... و تعرف تلك الحرب بحرب صفين.

طعنه خارجي اسمه عبد الرحمن بن ملجم يوم الجمعة في ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ. و توفي يوم الأحد في ١٧ رمضان، و كان له من العمر ٦٣ عاما.

##PAGE=108##

كنيته: أبو تراب، و ألقابه أمير النحل، و أمير المؤمنين، و الكرار، و أسد الله، و حيدرة، و صاحب ذي الفقار.

تصدر الإمام على من أكرم المناصب، و تسلسل من أذكى الأعراف، فوالده أبو طالب من عظماء قريش، و جده عبد المطلب أمير مكة، و سيد البطحاء، و عميد بني هاشم الذين وصفهم الجاحظ بقوله: «ملح الأرض، و زينة الدنيا، و حلى العالم».

اختص بقرابته من الرسول الكريم محمد صلى الله عليه و آله، فهو ابن عمه، و زوج ابنته، و أحب عترته و أقربهم إليه، و أحفظهم لقوله، و جوامع كلمه ..

قال عنه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب: «لا بقيت لمعضلة ليس فيها أبو الحسن».

حياته كانت مفعمة بالأحداث، مليئة بعظائم الأمور . قاتل المشركين و اليهود، فكان فارس الحلبة . وأجرأ من برز إليها من العرب سواء السابقين أو اللاحقين . لم يصارع أحدا إلا صرعه لم يتبع مهزوما، و كان يصفح عن عدوه ... و لم ينظر إلى عورة عدو وقي بعورته نفسه.

أقواله، و حكمه، و مناجاته جمعت في كتاب «نهج البلاغة» من قبل الفقيه الشاعر الشريف الرضى، و قد وصفت بأنها: أفكار عميقة، و أحكام جزلة، و ألفاظ فلسفية ذات اصطلاحات غاية في الدقة و الوصف و السجع و التنميق اللفظي .

في كتاب «نهج البلاغة» يمثل الإمام على رجل العقيدة القوية و الإيمان المطلق الذي تقوده عقيدته إلى القيام بجميع شعائر الدين.

الحسن بن على

ولد بالمدينة ليلة النصف من رمضان سنة ثلاث أو اثنتين للهجرة و توفي بسمّ دسّه له معاوية بن أبى سفيان سنة ٥٠ هـ . سماه والده «حرب» و لكن جده النبى محمد صلى الله عليه و آله بدل اسمه و سماه (حسن)، و هو الابن الأكبر للإمام على . والدته هى فاطمة بنت محمد.

«اعتبرته الشريعة الإثنا عشرية، و الزيدية إماما شرعيا، أما الإسماعيلية فاعتبرته إماما مستودعا^٩ أى إماما وكيلا قائما بالنبابة

##PAGE=109##

عن أخيه الإمام المستقر الحسين، و لهذا فهم لا يدخلونه فى شجرة الإمامة، و لا فى عداد الأئمة المستقرين أصحاب النص . تسلم شؤون الإمامة و الخلافة لفترة قصيرة بعد وفاة والده.

زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى، و قد دست له السم فى الطعام، و كان معاوية قد مناها بتزويجها من ابنه يزيد، إن فعلت ..

فمرض الحسن أربعين يوما توفي بعدها يوم الخميس فى الخامس من ربيع الأول سنة ٥٠ هـ . و كان عمره ٤٧ عاما.

كان نجيبا حلما، و خطيبا منمقا، و من الجدير بالذكر أنه أوصى بأن يدفن عند قبر النبى محمد صلى الله عليه و آله، و لكن المعارضة حالت دون ذلك فدفن فى «البقيع» عند جدته فاطمة بنت أسد.

من ألقابه: (التقى، و الذكى، و الولى).

الحسين بن على

^٩ (*) الإمام المستودع اصطلاح اسماعيلي أطلقوه على الإمام الذي يتسلم شؤون الإمامة فى ظروف استثنائية طارئة تقتضى استتار الإمام الأصيل (المستقر) و عند ما تزول الأسباب تعود الإمامة إلى صاحبها و المستودع لا يستطع توريث الإمامة إلى أحد من ولده ... و غالبا ما يكون من الأسرة الإمامية.

ولد في المدينة المنورة في الخامس من شهر شعبان سنة ٤ هـ. سماه النبي محمد صلى الله عليه وآله «حسينا». والدته هي فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله كنيته «أبو عبد الله». وله ألقاب كثيرة أشهرها «الذكي». استشهد في «كربلاء» في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ. وكان قد خرج من المدينة إلى العراق ليلة الخميس ٢٨ رجب سنة ٦٠ هـ. ومع أهله وإخوته وأبناء أخيه.

ذهب من المدينة إلى مكة المكرمة بعد اضطهاد الأمويين له في المدينة التي ولد فيها، وقضى في ربوعها زهرة طفولته و شبابه، ثم غادرها يوم الثلاثاء في الثامن عشر من ذي الحجة من العام نفسه إلى الكوفة، وكان يرمى إلى أخذ البيعة من المسلمين، واسترجاع الخلافة من الأمويين، وذلك بعد أن وصلت الدعوات الملحة من القبائل.

فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل للتحقق من أمر الدعوات، فسار حتى أتى الكوفة، ونزل ضيفا على المختار بن أبي عبيد ثم أخذ يدعو ويمهد لبيعة الحسين سرا و يأخذ العهود والمواثيق. فعلم به يزيد بن معاوية، فكتب إلى عبيد الله بن زياد وإلى البصرة يأمره أن يتولى الكوفة، ويوقف ابن عقيل، أو يقتله، أو يبعده. فجاء ابن زياد، وأخذ يبحث عن مقر مسلم بن عقيل، وبعد جهود اهتدى إلى مقره، وكان عند شيخ جليل من أهل الكوفة يسمى «هانيء بن عروة»، فاستدعاه

##PAGE=110##

ابن زياد إليه، وأمره بتسليم ابن عقيل، ولكنه أبى. فظل يضربه بالعصا حتى أدمى وجهه، وهشم أنفه، دون أن يعترف، أو ينبىء عن ضيقه.

وعند ما شاع خبر مقتل هانيء تجمع أهل الكوفة، وساروا وراء مسلم، وكان عددهم أربعة آلاف، وقصدوا احتلال قصر ابن زياد، ولم يكن فيه سوى مئة شرطي، ولكن هذا العدد من الرجال بدأ بالارفضاض واحدا بعد الآخر حتى وصل العدد الباقي معه إلى الخمسين، فخرج بهم إلى المسجد ليصلي، وبعد إتمام الصلاة، تطلع، فلم ير أحدا حوله، فهم على وجهه في سوق الكوفة غريبا أضناه الجوع والعطش حتى وقف على دار أرملة تنتظر رجوع ابنها. فاستسقى فسقته، وعاد ابنها فأوصته أن يحفظه، ولكنه سمع بالمكافأة، فأخبر عنه. وعندئذ جاء رجال ابن زياد، وطوقوا الدار، ولكن مسلما هجم عليهم، وظلت المعركة بينهم دائرة ساعات عديدة. وأخيرا أخذوا يرمونه بالحجارة والنار من الأسطح فوق مغشيا عليه، وكان يبكي ندما على كتاب بعثه إلى الحسين يطلب إليه الحضور إلى الكوفة، وأخيرا : قتله ابن زياد، ورمى بجثته من القصر ثم أرسل رأسه ورأس هانيء بن عروة إلى يزيد بن معاوية في دمشق.

وسار الحسين بعد أن وصلت رسالته ابن عمه مسلم بن عقيل، فوصل إلى القادسية، وفيها نعى إليه مسلم، ونصح بالرجوع، وكان معه أخوة مسلم، فأبوا الرجوع قبل أن يأخذوا بالثأر، وعند ما وصل إلى كربلاء نشبت حرب بينه وبين رجال ابن زياد، وعلى رأسهم «الحر بن يزيد» فقاتل حتى قتل وجميع أصحابه. أما الحر فقد انحاز أخيرا إلى الحسين، وقاتل حتى قتل وحيدا مع عدد يفوقه عدة وعددا.

يعتبر حادث مقتل الحسين من القصص المثيرة التي ينفطر لها القلب. كان له ولدان هما: علي الأكبر، وعلي الأصغر ... الأول قتل مع أبيه، ومع ابن عمه القاسم بن الحسن، وابن الحسن المثنى، وابن عبد الله، وعبد الله بن الحسن ... وكان معه من

النساء: أم كلثوم، وزينب، وفاطمة، والرباب، ولم يسلم من الذكور إلا على الأصغر «زين العابدين» و كان مريضا، و يعتبر الإمام الرابع من وجهة نظر الإثنى عشرية و الزيدية، و الثالث من وجهة نظر الإسماعيلية.

##PAGE=111##

اشتهر بالفصاحة، و الشجاعة، و قوة الساعد ... يذكره التاريخ في عداد أبطال العرب الخالدين، و سيد الشهداء.

على بن الحسين (زين العابدين)

هو الإمام الرابع عند الشيعة الإثنى عشرية و الزيدية كما ذكرنا، و الثالث عند الإسماعيلية . ولد يوم الجمعة ٢٦ جمادى الآخر سنة ٣٨ هـ، في المدينة المنورة، و ليس للحسين عقبى إلا من ولده هذا . أمه هي شهربانو بنت يزيدجرد آخر ملوك فارس. قال ابن سعد في طبقاته «كان على بن الحسين مع أبيه بطف كربلاء و عمره إذ ذاك ثلاث و عشرون سنة لكنه كان مريضا ملقى على فراشه و هو الوحيد الذى سلم من الذكور مات فى ملك الوليد بن عبد الملك، و قيل مات بسم دسّ له و كان له من العمر ستة و خمسون عاما، و دفن فى روضة البقيع مع عمه الحسن بن على سنة ٩٥ هـ.

اشتهر بالزهد و العبادة، و لم يكن يوجد من يماثله فى هذه الصفات، و من هنا أطلقوا عليه اسم (زين العابدين) و (السجاد).

فى عهده ظلت الكتلة الشيعية الإمامية سائرة فى طريقها المرسوم، و لكن بسرية مطلقة نظرا للظروف القاسية، و لخطط الأمويين التى تقضى بالقضاء على كل معارضة من أية جهة انبثقت فى البلاد الخاضعة لها . خصوصا إذا قادها أحد رجالات البيت العلوى.

محمد بن على (الباقر)

هو الإمام الخامس بالنسبة للشيعة الإثنى عشرية و الزيدية، و الإمام الرابع عند الإسماعيلية الإمامية.

ولد يوم الثلاثاء فى الثالث من صفر سنة ٥٧ هـ فى المدينة المنورة، أى قبل استشهاد جده الحسين بثلاث سنوات.

و أمه هى: فاطمة بنت الحسن بن على بن أبى طالب. تزوج أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر. كان كريما إلى حد الإسراف، وجود بما يسد الخلة، و بما يغنى من الفقر، و إذا وجب الحال بذل المال الذى يملكه فى سبيل المعروف، و عمل الخير.

عرف بمدرسته العلمية التى كان له السبق فى تخريج أكبر عدد من

##PAGE=112##

العلماء الأفذاذ فى ذلك العصر، و من بينهم ولده جعفر بن محمد «الصادق».

لقب بالباقر نظرا لعلمه و تبحره فى العلوم كافة السائدة فى عصره، و معنى بقر العلم أى أظهر كنوز المعارف و حقائق الأحكام.

مات فى ملك هشام بن عبد الملك و يقال إنه مات بسم دسّ له و دفن فى روضة البقيع سنة ١١٧ هـ مع أبيه و عم أبيه الحسن بن على.

جعفر بن محمد (الصادق)

هو الإمام السادس عند الإثنى عشرية، و الزيدية، و الخامس عند الإسماعيلية.

ولد فى المدينة المنورة سنة ٨٠ هـ. أى يوم الإثنين ١٧ ربيع الأول فى بيت اشتهر بإنجابه العظماء و الأعلام.

أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر . أقام مع جده زين العابدين ١٢ سنة، و فى كنف والده محمد الباقر بعد جده ١٩ عاما درس خلالها عليه، و تطبع بصفات الفضل و الخير و محبة العلم، و قد تعلم منه أن يطعم حتى لا يبقى لعياله طعاما، و أن يكسو حتى لا تبقى لهم كسوة.

لقب ب (الصادق) لصدقه فى مقالته و روايته، و اعتبر صاحب مذهب فى الإسلام، فضلا عن تفوقه فى الفلسفة و علم الفلك، و تطبيقات الأعداد، و التقويمات الشهرية و السنوية . أما الفقه و الحديث و التفسير فهو فارسها و علمها .. و اشتهر أيضا بحنكته السياسية، و مرونته، و مداراته للحكومة الظالمة المهيمنة، فلم يعرض نفسه للأخطار .. بل رفض الخلافة حين عرضت عليه، كما رفض الاستجابة لطلب المعارضة بالتعاون معها كيلا يناله ما نال أبناء عمومته، و نراه ينصح الحسينيين و الحنفيين بالركون إلى الهدوء، و هذا ما جعل الناس يرون أنه الوارث الحقيقى للإمامة، و تقربوا إليه من كل حذب و صوب لنيل رضاه و سماع إرشاداته.

مات مسموما بالعنب بتدبير من المنصور الدوانيقى العباسى و دفن فى البقيع فى قبر جده الحسين بن على و ذلك سنة ١٤٨ هـ عن عمر ٦٨ عاما.

##PAGE=113##

عند ما يتفرغ الباحث - أى باحث - لدراسة شخصية الإمام جعفر الصادق على ضوء التجرد و العقل، دون أية مؤثرات عاطفية أو دينية، فلا يستطيع إلا الاعتراف بأنه كان يمثل مجموعة فلسفية قائمة بذاتها تذخر بالحيوية، و بالروحانية، و بالعقلية المبدعة التى استنبطت العلوم، و أبدعت الأفكار، و ابتكرت السنن، و القوانين و الأحكام.

أجل ... ليست من السهولة بمكان دراسة شخصية الإمام الصادق، فهى باعتراف أعدائه كانت خارقة و متفوقة تهتم بجلال الأعمال و المكرمات، و قد ارتفعت عن المستوى المحدود، و سمت ببصيرتها إلى ما وراء الطبيعة، ثم استقرت أخيرا فى ظلال المثالية، و الكمال، و الخير.

إن القول عن الإمام الصادق إنه كان إماما لمذهب من المذاهب الإسلامية، أو فقيها أو راوية للحديث، أو مشترعا، لا أراه يعطى البيان الواضح عنه، و ما كان يتمتع به من صفات و مزايا، و أخلاق، و عقل، و حكمة، و اطلاع.

أما الحقيقة فهي أن الصادق كان عميدا لأول مدرسة فكرية في الإسلام، و المؤسس الأول للمدرسة الفلسفية الإسلامية. فهو عند ما يملأ على تلميذه «جابر بن حيان» علوم الكيمياء فالمعنى أنه كان يخطط في ذلك العصر لإخراج العقل من نطاقه الضيق إلى فضاء رحيب تسيطر في أجوائه حرية الفكر و المنطق مستمرا على نهج الامام على و مدرسته.

و من الواضح أن مدرسة الإمام جعفر الصادق قد أنجبت خيرة المفكرين الإسلاميين، و صفوة الفلاسفة، و جهابذة العلماء . و إذا كانت هنالك حقيقة يجب أن يقال، فهي:

إن الحضارة الإسلامية، و الفكر العربي مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالكثير من جهودها، و نشاطها و إن لتلا مبد هذه المدرسة الفضل على الفكر و الأدب، بما قدموه من إنتاج و مؤلفات و هم : جابر ابن حيان و المفضل بن عمر، و جابر الأنصاري، و محمد بن صدقة العنبري - و عمر بن نائلة، و محمد بن سنان الزاهر، و غيرهم.

ولد الإمام الصادق في عصر صاحب بالتحركات السياسية و الفكرية، ازدادت فيه النعمة على الحكام و الأمراء و الخلفاء، و تضاعف حب

##PAGE=114##

الناس لأهل البيت. و العرب تعودوا أن ينظروا إلى المظلوم نظرات الحب و العطف، و أن يناصروا كل معارض للحكم القائم، و بالرغم من كل هذا فإن هذا الواقع لم يخرج الإمام الصادق عن اتزانه و ز هده في المناصب، بل عزز رغبته بالانصراف إلى تحقيق الانتصارات الفكرية، و السهر على رعاية مدرسته و تلاميذه و تربيتهم تربية تقوم على أساس العقل و العلم.

بعد موت الامام جعفر الصادق، انقسم الشيعة بين الاسماعيلية و الاثنى عشرية . الاسماعيلية قبلت بإمامة اسماعيل، الابن الأكبر للإمام جعفر الصادق. أما الإثنى عشرية فقد نادت بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر للإمام جعفر الصادق.

أئمة الاثنى عشرية: بعد الإمام جعفر بن محمد (الصادق) كما ذكرنا، سارت الشيعة الموسوية الإثنا عشرية وراء ابنه موسى الكاظم الذي يعتبر الإمام السابع من جده الإمام على بن أبي طالب، و بعد ذلك تابعت السير وراء خمسة آخرين من أبنائه بالتسلسل حتى آخرهم «محمد بن الحسن» المنتظر الذي يأتي ترتيبه (الثاني عشر) و لهذا اكتسبت هذه الفرقة اسم الشيعة الإمامية الإثنى عشرية.

موسى الكاظم ابن جعفر الصادق

هو الإمام السابع لدى الشيعة الإثنى عشرية. ولد في الأبواء بين مكة و المدينة سنة ١٢٨ هـ. لقبه (الكاظم)، و العبد الصالح، و أبو الحسن.

اشتهر بوفرة علومه و ثقافته، و احتماله الصبر على المكاره . كان مسكنه بالمدينة. استحضره المهدي العباسي إلى بغداد، و سجنه ثم أخرجه، و رده إلى المدينة، و عند ما تسلم الخلافة هارون الرشيد استقدمه ثانية و سجنه، و ظل في سجنه حتى مات بالسهم على يد المسندى بن شاهل.

تعتبره الإسماعيلية إماما مستودعا قام بالإمامة سترأ على ابن أخيه محمد بن إسماعيل و لهذا فإنه يحظى عندها بالتقدير و التقديس.

توفى فى سجن بغداد، و دفن فيها سنة ١٨٣ هـ.

على بن موسى (الرضا)

هو الإمام الثامن لدى الشيعة الإثني عشرية . ولد سنة ١٥٣ هـ. فى المدينة المنورة، و ذلك بعد وفاة جده الإمام جعفر الصادق بخمسة

##PAGE=115##

أعوام. أمه «سكن» النوبية و يقال ثكنم و الأول أشهر و هى جارية كان والده موسى الكاظم قد تزوجها و هو يعتبر من الأئمة الذين لعبوا دورا بارزا على مسرح الحياة السياسية الإسلامية.

زوجه المأمون العباسى ابنته «أم حبيب»، و أشركه فى الحكم، و سماه لولاية العهد سنة ٢٠١ هـ، فى بلدة «مرو». و ذكر أنه ضرب العملة باسمه.

كان على جانب كبير من سعة الاطلاع و الذكاء ... مدحه الشاعر أبو نواس بقصائد عديدة و منها:

تجرى الصلاة عليهم أينماذكروا

مطهرون تقيات جيوبهم

فما له فى قديم الدهر مفتخر

من لم يكن علويًا حين تنسبه

صفاكم و اصطفاكم أيها البشر

الله لما برا خلقا فأثقنه

علم الكتاب و ما جاءت به السور

فأنتم الملاء الأعلى و عندكم

مات بالسم و دفن فى طوس سنة ٢٠٢ هـ.

محمد بن على (الجواد)

ولد فى ١٩ رمضان سنة ١٩٥ هـ فى المدينة المنورة. من ألقابه:

التقى، و الجواد، زوجته أم الفضل بنت المأمون، و أمه أم الخيزران، خشى المعتصم العباسى من خطره على الدولة بعد ما رأى إقبال الناس عليه، و تسابقتهم على محبته و احترامه، فأمر بان يدس له السم فى الطعام، فمات من جراء هذه المكيدة

الدينية، و كان ذلك فى آخر ذى القعدة سنة ٢٢٠ هـ. دفن فى مقبرة الكاظميين فى بغداد على مقربة من جده الإمام موسى الكاظم.

على بن محمد (الهادى)

ولد سنة ٢١٤ هـ. فى المدينة. كان ابن سبعة أعوام عند ما مات والده. من ألقابه (الهادى). و (التقى). عاصر المتوكل العباسى، و الواثق، و المنتصر. هو الإمام العاشر لدى الفرقة الإمامية الإثني عشرية. مات بالسسم أيضا بمؤامرة دبرها الخليفة العباسى المعتمد سنة ٢٥٤ هـ فى سامراء.

##PAGE=116##

الحسن بن على (العسكرى)

ولد فى المدينة فى ٨ ربيع الآخر سنة ٢٣٢ هـ. هو الإمام الحادى عشر لدى الشيعة الإثني عشرية . لقب بالعسكرى لأن المحلة التى كان يسكنها فى سامراء تسمى «العسكر». مدحه الشاعر الكبير ابن الرومى. عاصر المعتز، و المهتدى، و المعتمد العباسيين. لقى كل رعاية و تقدير من العباسيين.

مات بالسسم كما مات آباؤه و أجداده، و كان له من العمر ٢٨ عاما، بعد أن ترك ولدا واحدا هو محمد المهدي المنتظر. توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٢٦٠ هـ و دفن فى سامراء.

محمد بن الحسن (المنتظر)

ولد سنة ٢٥٥ هـ. هو الإمام الثانى عشر لدى الفرقة الإثني عشرية.

من ألقابه: المهدي و المنتظر. طلبه العباسيون سنة ٢٦٦ هـ. و كان عمره أحد عشر عاما فدخل كهف الاستتار فى سامراء سنة ٢٦٦ هـ.

بعد هذا الإمام توقفت هذه الفرقة عن السير الإمامى، و قالت عن الإمام محمد بن الحسن إنه المهدي المنتظر الذى سيعود ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا و ظلما.

##PAGE=117##

الإمامة الاسماعيلية

اسماعيل ابن جعفر الصادق

بعد أن قدمنا موجزا عن تاريخ الأئمة العلويين منذ عهد الإمام علي ابن أبي طالب و كذلك عن الحسينين، و الحسينيين، و الزيديين، و الحنفيين، و الإثنى عشرية. صار لزاما علينا مواصلة إعطاء لمحة تاريخية عن أئمة الإسماعيلية بدءا بإسماعيل بن جعفر الصادق.

ولد الإمام إسماعيل بن جعفر سنة ١١٠ هـ، في المدينة المنورة. و هو الابن الأكبر للإمام جعفر بن محمد الصادق، و أحبهما إليه، و هو صاحب النص الشرعي بالإمامة كما تؤكد المصادر الإسماعيلية و غيرها و إليه تعود تسميتها.

والده هو الإمام الخامس حسب الترتيب الإسماعيلي للإمامة، فهو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي. قيل إنه مات سنة ١٣٨ هـ. و ذلك بموجب محضر رسمي شهد عليه، عامل الخليفة العباسي المنصور، كما جاء في «الملل و النحل» للشهرستاني. و قد اضطر والده إلى ذلك بعد أن كثر الطلب عليه من قبل العباسيين الذين اتهموه بالنشاط و المعارضة و تأليب الناس.

الإسماعيلية تقف من هذا التدبير موقفا مؤيدا، فمصادرها تذكر أن الإمام إسماعيل لم يمت في حياة والده، و إنما استتر في مكان ما.

و لكن المصادر الإسماعيلية تقول بأنه توفي سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م لأنه اختفى لفترة في حياة والده بعد اعلان وفاته. أما المعلومات عن تحركاته و نشاطاته، و ثقافته، و أعماله، فقليلة و غير متوفرة. و لكن يمكن القول: إنه يكفي أن يكون قد درس في مدرسة الإمام الصادق لنحكم عليه بأنه كان على جانب كبير من المعرفة و الثقافة. من جهة ثانية عرف عنه بأنه كان كثير التنقل إلى بلاد الشام، و البصرة، و الكوفة، و بلاد فارس ... و هذا ما أثار نقمة العباسيين عليه.

محمد بن اسماعيل:

هو الإمام السابع المتم للدور السادس، من الأئمة الإسماعيليين

##PAGE=118##

«المستورين» الذين سكنوا بلاد الشام. ولد سنة ١٣٢ هـ. في المدينة المنورة، و كان له من العمر ستة عشر عاما عند استتار والده. توجهت الأنظار إليه و هو في هذا السن المبكر، و أقبلت الوفود من كل حدب و صوب، لمبايعته بالإمامة، مما لفت أنظار العباسيين، و كان الرشيد هو الخليفة الذي يضطلع بمهمة إخماد الثورات المعارضة و خاصة «الشيعة» منها. فأصدر أمره بالقبض عليه، و لكن جاء من نصحه قبل صدور الأمر بالخروج من المدينة، فخرج سنة ١٥٩ هـ و توجه إلى الكوفة، و لكن العباسيين علموا به، مما جعله يخرج ثانية من الكوفة تحت جنح الظلام إلى الرى حيث أتباعه و أنصاره، و يجمل كتاب «فصول و أخبار» لمؤلفه نور الدين أحمد تاريخ حياته فيقول:

«بعد أن اشتد الضغط على الإمام محمد بن إسماعيل خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوبا بأخيه الأصغر «علي»، فبقى فيها مستترا عن العيون، بعيدا عن الإرصاء فترة من الزمن، و ل ما عرف أن العباسيين عرفوا بمقره سار إلى الرى، و استقر عند أحد دعاة السريين المسمى «إسحق بن موسى» و كان حاكما على الرى من قبل العباسيين. و بعد مدة قال له إسحق: يا مولاي ... إن العباسيين قد بشوا العيون في كل مكان، و أخشى عليك منهم، فإن رأيت أن تخرج إلى الجبل، و تعصم

بقلعة نهاوند عند تابعك منصور بن حوشب، فعمل بإشارته و بعد ذهابه قبض العباسيون على إسحق، و عذبه عذابا شديدا حتى إنه مات تحت السياط دون أن يدل على مكان الإمام . و لمّا لم يظفر الرشيد العباسي بأية نتيجة أرسل أحد قواده المسمّى «محمد الخراساني» للقبض على الإمام. فلمّا وصل إلى نهاوند دخل مسجدها، فرأى الإمام مسندا ظهره إلى المحراب و بين يديه رجلان يعلمهما أصول الدين، فلم يتمالك القائد نفسه حينما رأى عظمته، و جلال هيئته، من أن يتقدم و ينحني أمامه، و يقبل يديه، ثم أعلمه سرا بضرورة سفره من نهاوند، لأن الرشى د يود القبض عليه، فخرج متسترا تحت جنح الظلام إلى نيسابور، و منها إلى فرغانة، ثم إلى عسكر مكرم، و هناك تزوج من فتاة علوية والدها هو الأمير على الهمذاني، فرزق ولدا سماه «عبد الله» و عند ما اشتد الطلب و الضغط عليه من قبل المأمون اضطر إلى الذهاب إلى تدمر في بلاد الشام».

عرف عن الإمام محمد بن إسماعيل بأنه كان على جانب كبير من الذكاء و بعد النظر و النشاط و الثقافة الواسعة، و سرعة التنقل و التخفي، بدليل أنه استطاع التمويه على الخلفاء العباسيين و الإفلات من قبضتهم، في وقت لم يستكن إلى الهدوء أو يتوقف عن

##PAGE=119##

النشاط، و استقطاب الأنصار و المؤيدين، و إقامة المراكز للدعاية، و من الواضح أنه تمكن عند ما كان في بلاد فارس من بناء بلدة صغيرة استقر فيها فترة قصيرة و كان اسمها «سملا» و لكن أطلق عليها أخيرا اسم «محمدآباد».

أقام الإمام محمد بن إسماعيل في تدمر من بلاد الشام. و في هذه البلدة التاريخية القديمة ذات الموقع المهم، و التي كانت في غابر العصور ملتقى القوافل التجارية بين دمشق و بغداد .. و التي أطلق عليها اسم مدينة الصحراء، و مقر القبائل العربية .. في هذه المدينة نزل الإمام محمد بن إسماعيل، فاتخذ لنفسه إسما هو «القداح» و «ميمون» الفارسي، و بالفعل مارس طبابة العيون، و أخفى اسمه الحقيقي عن كل الناس، و ادعى أنه من أتباع الإمام محمد بن إسماعيل المستور و على هذا الأساس وجه اهتمامه و دعاته إلى سواد الكوفة، و بلاد الشام، و البحرين، و إلى أوساط القبائل العربية التي تنزل ب وادي بلدة تدمر.

و في هذا يتبين أثره و أثر أحفاده في الحركات الثورية و الفكرية الإسماعيلية التي انبثقت في كل مكان في عهده، و ما بعد عهده، و هذه الثورات لم تكن بدعة، و إنما هي نتيجة لأزمة أو ثمرة ناضجة لمجموعة من العلل و الأسباب المتضاعفة التي تضافرت على إيجاد الجو الملائم لضعضة العروش القائمة، و المذاهب المتحركة . و كل هذا مقتبس من التاريخ الصحيح الذي يقف مع العقل و الحقيقة، و لا يتأثر بما حوله أو بما سبقه، فالمصادفة محال، و لا يوجد في هذا العالم شيء إلا و هو نتيجة من جهة، و علة من جهة أخرى.

رزق الإمام محمد بن إسماعيل من الأولاد: عبد الله، و إسماعيل، و جعفر، و على الليث، و أحمد، و الحسين ... و قد قتل العباسيون عليا و أحمد في خوارزم، و هكذا فعلوا بالحسين، أما ولاية العهد فقد عهد بها إلى ولده الأكبر عبد الله، (و في أحمد) و عرف في بعض المصادر بعبد الله بن ميمون القداح. من ألقابه: (الشاعر، و المكتوم، و السابع، و القداح، و ميمون). توفي في بلدة تدمر الشامية و دفن فيها سنة ١٩٣ هـ.

الإسماعيلية فكرًا و تنظيمًا

تنظيم الدعوة الإسماعيلية

لعب التنظيم للإسماعيلية دورًا مهمًا في العالم الإسلامي، و أثر فيه تأثيرًا بعيد المدى، فكان في أكثر مراحل أدائه فعالة في تغيير وإصلاح المجتمع، وإزالة الرواسب، وتفكيك الروابط القائمة على الفساد والأخطاء، وساعد على تحقيق الأهداف الكبرى والغايات المثلى وجود رجال مثقفين ثقافة عالية ملمين بالأوضاع السائدة، و بكل ما يشكو منه الشعب وخاصة الطبقات الفقيرة المحرومة.

لقد كان للنظام الفكرى الإسماعيلى سحر خاص، و جاذبية قوية كانت تهفو إليها نفوس العديد من الناس، فتستميلهم، و تستأثر بأهوائهم، و تبلغ بهم مبلغًا يدفعهم إلى المخاطرة و المجازفة، و الإتيان بغرائب الأعمال، و قبول الطاعة التامة، و الاستسلام المطلق و فى الواقع .. فإن فى الكتمان و السرية و الخفاء ما يستهوى الخيال، و يرغب النفوس، و يطلق الأوهام و الأحلام. فكلما كان السرّ أدق و أخفى، أو كان اللغز أعوص و أغمض، كان سحر الخفاء أكثر جاذبية، و أقوى إطلاقًا للخيال، و ما زال الإنسان منذ أقدم العصور مولعًا باكتشاف الغرائب و العجائب، و محبًا لاستطلاع الأسرار، و كشف المخبات، و استجلاء الغوامض المحجوبة، و الأسرار المستورة.

و ما الولى بالحركات السرية إلا كولد البدائى بالمجهول، فهى تمثل لنا قوة غير معروفة . و لعل مصدر هذه القوة جماعة من الأفراد، اجتمعوا ليقوموا بعمل يعجز عنه الفرد بنفسه . و مما تجدر الإشارة إليه، أن الحركات السرية لا تقوم و لا تزدهر إلا عند ما تضطرب الحياة الاجتماعية، و يسود الطغيان و الاستبداد، و يطغى الضيق و الفقر

و الحرمان، فيشعر الناس عندئذ بحاجة ماسة إلى مقاومة الطغيان، و سرعان ما يجتمع الأنصار المكبوتون، و المؤيدون، و الأتباع، و الأشياء، و تختلف البواعث التى تهيب بهؤلاء الأنصار إلى الاندماج فى الدعوة، و الانخراط فى سلوكها . فمن الناس من يستميله حب السيطرة و الطمع فى السلطة، و النفوذ، و التمدد، و الاستعلاء.

و من الناس من يؤثرون العمل فى الخفاء، و الإدلاج فى السواد، فقد يجدون فى ذلك مجالًا لإظهار قدرتهم و كفاءتهم، و الكشف عن مواهبهم و ملكاتهم.

^{١٠} تامر، عارف، تاريخ الإسماعيلية، 4 جلد، رياض الرئيس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

و التنظيم الإسماعيلي كان منعدم النظير في اجتذابه الناس من مختلفي الألوان و الاتجاهات، فكان ثمة المثاليون المخلصون، و الأبطال الأفذاذ، و العلماء و الأمراء، و الفدائيون الخالص، و الأغرار المندفعون، و المغامرون و جميع هؤلاء قاموا بضروب من الشجاعة و الإقدام، و أتوا بأمثلة رائعة لإنكار الذات، و قد انضوا في حركة أقل ما يقال فيها أنها جديدة بتنظيمها، و أساليب دعايتها العجيبة التي تبرهن على إدراك عميق لنفسيات الشعوب، و على فهم دقيق لمصادر التذمر.

إن في ترتيبات التنظيم الإسماعيلي الذي نتحدث عنه بيانا واضحا عن مدى الاعتناء الذي كانوا يبذلونه لاختيار «الدعاة». فعلى هؤلاء كان يقوم نجاح الدعوة، أو بالأحرى على أساليبهم العلمية و بياناتهم القائمة على الإقناع و المنطق و العقل . و كم يطيب لنا أن نوضح ذلك، و نعطي أسماء و صلاحيات هؤلاء الأعلام و ذلك في عهد الأئمة، و ليس في عهد النطقاء، و قد يتهيأ للإمام إقامة هذه الحدود، و قد لا يتسنى له لفقدان الساحة من أصحاب الكفاءات، أو بسبب أحوال طارئة.

و هذه هي الأسماء:

١- إمام

٢- حجة أو باب

٣- داعي الدعاة

٤- داعي البلاغ

٥- داع مطلق أو نقيب

٦- داع مأذون

٧- داع محصور

٨- جناح أيمن أو يد يميني

٩- جناح أيسر أو يد يسرى

١٠- مكاسر

١١- مكالب

١٢- مستجيب

١- الإمام: قد يكون من الصعوبة بمكان، تحديد صلاحيات الإمام في سطور قليلة أو صفحات محدودة، و يكفي أن نعلم أنها رتبة تمثل

القيادة الزمنية و الدينية العليا المطلقة، فهي أعلى سلطة في الدعوة و أرفعها بعد الناطق و بعد الوصى .. و قد سبق أن ذكرنا في الصفحات السابقة ما فيه الكفاية عن هذا الموضوع.

٢- الحجة أو الباب: هذه الرتبة تلي رتبة الإمام مباشرة، فالحجة هو نائب الإمام عند غيابه، و الظل الذي لا يفارقه، و لا حجة من دون إمام، و الباب اسم آخر يطلق على الحجة، و معناه أنه باب الأسرار، و مستودع الأعمال . و في العادة أن يضطلع ولى العهد بمهام هذه الرتبة في حياة الإمام إلّا في الظروف الاستثنائية، و إذا كان صغيراً دون البلوغ فتعطى عندئذ وكالة لأحد الدعاة الكبار أى لداعى الدعوة، و تكون مهمته تربية ولى العهد.

٣- داعى الدعوة: هو رئيس الدعاة المباشر، و المسؤول الأول أمام الحجة عن توزيعاتهم في الجزر و الأقاليم، و عن اختيارهم، و خبرتهم، و ثقافتهم، و صلاحهم، و سلوكهم . و هو المسؤول عن إقامة فروع الدعوة في المناطق و الأقاليم، و كثيراً ما أخضع الدعاة إلى فحوص دقيقة، و إلى مراقبة مستمرة.

٤- داعى البلاغ: هو المسؤول عن تبليغ الأوامر و إيصالها إلى دعاة الأقاليم، و ح جج الجزائر، و عن سريتها و وصولها . و يعتبر رئيس القلم، و المراسلات، و الأمين العام على أسرار المراسلات و البلاغات، و له الحق بالمفاتيح و المناقشة مع الفرق الأخرى، دون أن يحتاج في ذلك إلى إذن من داعى الدعوة.

٥- الداعى المطلق أو النقيب: صاحب صلاحية السفر و التجول في كل مكان لنشر تعاليم الدعوة و مبادئها، و لا يخضع في ذهابه أو إيباه إلى الاستئذان من أحد . و من الجدير بالذكر أنه يرتبط بداعى الدعوة مباشرة، فيستمد منه العلوم، و يطلق عليه أيضاً اسم «نقيب» أو «ذو مصّة» لأنه يمتص العلم من داعى الدعوة، كما يمتصه داعى الدعوة من الحجة و الحجة من الإمام، و في بعض الأدوار يطلق عليه «ذو مصتين»، و هي رتبة أعلى بحيث يكون له الحق بتجاوز الأعلى منه و الاتصال بداعى الدعوة. و يفترض بالداعى المطلق أن يكون متمكناً من «علم الهيئة» و قراءة الأفكار و معرفة الخبايا من اللوحات و إمارات الوجه.

٦- الداعى المأذون: رتبته أدنى من رتبة الداعى المطلق، فهو غير مأذون بمفاتيح أحد أو مناقشة أية فرقة أو السفر إلى منطقة أو بلد ما إلا بإذن من داعى الدعوة.

٧- الداعى المحصور: رتبته أدنى من رتبة الداعى المأذون، فهو لا يستطيع أن يفتح أحداً أو يبل غ أو يتكلم إلا في منطقة يحددها له داعى الدعوة، و بلغة أصح فهو «محصور» بمنطقة معينة لا يغادرها.

٨ / ٩- الجناح الأيمن، الجناح الأيسر : هذان الحدان ملحقان بصورة دائمة بالداعى المطلق، فهما جناحاه أثناء جولاته الدعائية في الأقاليم، و يطلقون عليهما أحياناً «اليد» و جمعها «الأيادي» أى إنهما يقدمان الخدمات للداعى المطلق كما تقدم اليد الخدمات للجسم . و للجناحين الأيمن و الأيسر مهمة صعبة، فإن عليهما أن يذهبا مسبقاً إلى البلد الذى يقرر الداعى المطلق الذهاب إليه، فيدرسان أوضاعه السياسية، و العلمية، و الأدبية، و حالة ندواته، و مدارسه، و طبقات أهله، و

علمائه، و شعرائه، و نفسياتهم، و نواحي القوة و الضعف لديهم، و ميولهم، و مذاهبهم، و مكانتهم الاجتماعية . حتى إذا أحاطا بكل ذلك عادا إلى الداعى المطلق . فقدموا له تقريرهما الشامل، و على ضوءه ينتقل الداعى الطلق إلى البلد المقرر، فتكون المعلومات أمامه واضحة، بحيث يسهل عليه عندئذ مفاتحة كل إنسان بما يتفق و علمه و ميوله و استعداده و قدرته . أما الجناحان فتكون مهمتهما عندئذ قد تحولت إلى بلد ثان ينوى الداعى المطلق زيارته.

١٠- المكاسر: تعطى رتبة «المكاسر» لكل «مكالب» تفوق و تفقه فى مجال العلوم و الفلسفة و الفقه، و ذلك بعد أن يجتاز الفحص المقرر، و يصبح قادرا على النقاش، و السيطرة على السامع بأسلوبه الساحر و بيانه الواضح و قد تنحصر مهمته بمناقشة رؤساء الأديان المتزمتين و المتعصبين فيكسرهم و يبطل حججهم . و يتلقى المكاسر الأوامر من داعى الدعاة مباشرة.

١١- المكالب: رتبته أعلى من رتبة المستجيب، و أدنى من رتبة المكاسر، صلاحياته تنحصر بالتجسس، و تنسّم الأخبار و كل ما يتحدث به الناس عن الدعوة و نقلها إلى «المكاسر». و قد ينادى به الاتصال بالأفراد و الشباب و مباحثتهم أو أخذهم إلى المكاسر

##PAGE=127##

لإعطائهم الدروس . و من الجدير بالذكر أن مهمة المكالب تشبه إلى حد ما «كلب الصيد» الذى يركض و يتعب و يعرض نفسه للموت فى سبيل جلب الطرائد و تقديمها غنيمة باردة لصاحبه.

١٢- المستجيب: أول رتبة تعطى للمنتسب إلى الدعوة بعد تأدية فحص مقرر من داعى الدعاة و الدعاة الآخرين.

هذه أسماء و ألقاب و صلاحيات الأشخاص الذين يقومون بأعباء الدعوة لدى الإسماعيلية . و هذا «الكادر» غير دعاء الجزر و حجج الأقاليم إذ يفترض فى كل جزيرة و إقليم أن تكون الدعوة مطابقة للأصل . و لكن لا بد من القول إنه قد تأتى ظروف استثنائية لا يتمكن الإمام من إقامة الدعوة بكامل أعضائها و عناصرها، و عندئذ تظهر الوكالات و النيابة بحيث تبقى حتى تزول الأسباب.

و كتب الدعوة قد رسمت الخطأ الأساسية التى يجب على الداعى سلوكها لتلقين مبادئ الدعوة للمقبلين عليها، فى خطى متتدة حتى لا تضيع البذور فى أرض سبخة، و حتى لا ينحرف عن السبيل أو ينعكس عليه القصد، فيصاب التنظيم بالخبث و الخذلان. و قد أوضح الإمام المعز لدين الله ذلك بقوله:

«ينبغى للداعى اختبار أمر من يدعوهم من الراغبين، و تعرف أحوالهم واحدا واحدا، و تميز كل منهم و معرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه، و يحمله عليه، و مقدار ما يحمله من ذلك، و مدى قوته و طاقته، و متى يوصل ذلك إليه، و كيف يغذوه به، و امتحان الرجال، و تعرف الأحوال، و مقدار القوى، و مبلغ الطاقات و القدرات».

و هكذا رسم للدعاة خطة تنظيم العلاقة بين الدعاة و المستجيبين، و المتقربين، و الطريق الذى يجب عليهم سلوكه بمدعوهم، فأوجب عليهم الظهور بمظهر الوقار و الهيبة ليكون ذلك مدعاة إلى تفانى المدعويين فى الالتفاف حولهم، و

طلب من الداعى أن يكون حسن الصوت، خفيض الجناح، لين الجانب، حسن العشرة، جميل المخالفة من غير تجبر و لا تكبر، بل يكون التواضع سيما، و الوقار همته.

و هكذا كان للإسماعيليين فى البلاد التى يدعون فيها لنظامهم الفكرى تشريع خاص فى معاملتهم أهالى تلك البلاد، كما كانت لهم ثقافة

##PAGE=128##

و فلسفة مقررّة و مدروسة، و ذات منهجين : المنهج العلنى، و المنهج السرى . فالمنهج العلنى يقوم به الوزراء و الحكام بالنسبة إلى عامة الشعب . أما المنهج السرى فيقوم به الإمام و دعاته و حججه.

و من التعاليم التى كانت تعطى للدعاة ... أن يبدأوا باصلاح أنفسهم، فهم أحق الناس بالورع، و الصلاح و التقوى و العفاف، و العمل بكل صالحة، و اجتناب كل مكروه. و قد أجمل الإمام جعفر بن محمد (الصادق) فى قوله لدعاته:

«ينبغى للداعى أن يتهيب عند أهل دعوته، و أن لا يعودهم الجراءة عليه، و لا ييسطهم كل البسط لديه، فيهون عندهم، و يصغر أمره لديهم، فإنه كلما كان أهيب عندهم، كانوا أكثر انتفاعا به، و أخرى عنده، و ليكن تهيبه ذلك بحسن الصمت، و خفض الجناح، و لين الجانب، و حسن العشرة، و جميل المخالفة، من غير تجبر عليهم، و لا تكبر فى أمره عليهم، بل يكون التواضع سيما، و الوقار همته.

و ينبغى للداعى أن يكون مهيبا فى غير تكبر و لا صلف، متواضعا لا لمهانة و لا لضعف، فإن اجتمع له أمره، و استحكم، و اتصل له مراده، و انتظم وعده فى أهل دعوته و عظم، فليحسن إلى محسنهم، و يقربهم على درجاتهم، و ينزلهم على طبقات أعمالهم، و لا يهمل أمرهم. و ليدع عقوبتهم على ما يتضح له من ذنوبهم، و يصح له من إساءتهم.

و أوجز الإمام السادس عشر، «الحاكم بأمر الله» لدعاته الأوامر، و الوصايا، و الأحكام ... و حدّد داعى الدعاة خاصية مهمته بقوله:

«و خذ العهد على كل مستجيب راغب، و شد العقد على كل منقاد ظاهر ...

ممن يظهر لك إخلاصه، و يقينه، و يصح عندك عفاؤه، و دينه، و حضهم على الوفاء بما تعاهدتهم عليه (...).

و كفّ كافة أهل الخلاف و العناد، و جادلهم باللطف و السداد، و اقبل منهم من أقبل إليك بالطوع و الانقياد، و لا تكره أحدا على متابعتك، و الدخول فى بيعتك (...). و لا تلقى الوديعه إلّا لحافظ الودائع و لا تلقى الحبّ إلّا فى مزرعة لا تكدى على الزارع، و توخّ لغرسك أجلّ المغارس، و أوردتهم مشارع ماء الحياة المعين، و تقربهم بقرب ان المخلصين، و تخرجهم من ظلم الشكوك و الشبهات إلى نور البراهين و الآيات . و اتل عليهم مجالس الحكم، و صن الأسرار إلّا عن أهلها، و لا تبذلها إلّا لمستحقها، و لا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله، و لا تستقل أفهامهم بتقبله، و اجمع من التبصر بين أدلة الشرائع و العقول، و دلّ على اتصال المثل بالممثول، فإن الظواهر أجسام، و البواطن أشباح (...) و أن لا قوام للأشباح إلّا بالأرواح، و لا

قوام للأرواح فى هذه الدار إلّا بالأشباح، و لو افترقا لفسد النظام، و انتسخ الایجاد بالإعدام، و اقتصر من البیان على ما يحرس فى النفوس صور الإيمان، و يصون المستضعفين من الافتتان، و انه عن الإثم ظاهره و باطنه و كامنه، و عالته . و اتخذ كتاب الله مصباحا تقتبس أنواره، و دليلا تقتفى آثاره (...) و اضمم نشر المؤمنين، و اجمع شمل المستجيبين (...) و زد لهم من الفوائد و المواد على حسب قواهم من القبول، و ما يظهر لك من جودة المحصول (...) و ألن لهم جانبك، و احن عليهم و الطف، و ابسط لهم وجهك و أقبل عليهم و اعطف (...) و لا تسمح لأحد منهم فى التناول بالدين، و لا الإضرار بأحد من المعاهدين و الذميين (...) و إذا ألبس عليك أمر و أشكل، و صعب لديك مرام و أعزل، فانه إلى حضرة الإمامة ...» اهـ.

تسلسل أئمة الاسماعيلية

كما مر معنا من قبل، وقع إنقسام اساسى بين الشيعة بعد وفاة الإمام جعفر الصادق. فكان هناك من اتبع الابن الأصغر للإمام جعفر الصادق، الإمام موسى الكاظم، و الذين عرفوا بالأثنى عشرية. و كان هناك من دان بالولاء و اتبع الأبن الأكبر للإمام جعفر الصادق، الإمام اسماعيل، و الذين عرفوا بالاسماعيلية . و بعد الإمام اسماعيل، تبعه أبنه الإمام محمد بن اسماعيل، الذى كان الإمام السابع. و قد خلفه ابنه و فى أحمد.

عبد الله بن محمد ابن اسماعيل أو «وفى أحمد»

هو الامام الثامن بالترتيب الاسماعيلي . ولد سنة ١٥٩ هـ. فى بلدة محمدآباد الفارسية . من ألقابه: الرضى، و المستور، و الناصر، و العطار، و عبد الله الأكبر ... عاصر الرشيد و المأمون العباسيين، و عرف بين الناس باسم «عبد الله بن ميمون القداح».

قال عن نفسه بأنه حجة الامام المستور المسمى «عبد الله بن محمد ابن اسماعيل » و لكى يصعب تميزه سمي حججه «الأربعة الحرم» باسمه و كل ذلك بغرض إخفاء شخصيته.

بعد وفاة والده محمد بن اسماعيل، لم تطب له الإقامة فى بلدة تدمر فغادرها الى بلاد فارس، و أقام فى نيسابور فترة قصيرة، خرج بعدها الى بلاد الديلم . و كان يصحبه شقيقه «الحسين» .. و هناك تزوج بفتاة من الأسرة العلوية، و ولد له منها ولد هو أحمد الذى أصبح وليا للعهد.

و من دعائه أيضا : أبو الفقير، أبو سلمة، أبو الحسن الترمذى، و جواد بن الخشعى، و أحمد بن الموصلى، و أبو محمد الكوفى .

لم يتوقف في فارس نشاطه، و لم يستكن للملاحقات و الضغوط العباسية القاسية، بل كان ينتقل من بلد الى آخر لنشر التعاليم، و تعيين الدعاة، و إقامة المراكز و الحلقات . و لكن الظروف شاءت أن تظهر بوادر خلاف كبير بين الدعاة، فاضطربت الدعوة، و أخذ

##PAGE=131##

الخلاف يتفاقم و يزداد يوما بعد يوم، مما حمله على إغلاق باب الدعوة، و إيقاف النشاط، ثم غادر بلاد فارس دون أن يعلم أحدا بالمكان الذى توجه اليه ...

هذا الحدث الرهيب، أقام الدعاة و أقعدهم، فتنادوا من كل جهة، و تناسوا خلافاتهم و أدركوا أنهم ارتكبوا أخطاء كبيرة و عقدوا اجتماعات متوالية لإعادة الأمور الى طبيعتها، و اتخذوا قرارا بإيفاد سبعة من الدعاة، و أناطوا بهم مهمة التفتيش عن الامام ففرقوا فى كل جهة. و يقول «محمد اليماني» فى سيرة جعفر الحاجب، و أيده «نور الدين أحمد» فى كتاب «فصول و أخبار»:

وصل الداعى أبو الفقير الى ضواحي بلدة معرة النعمان و هو أحد الدعاة السبعة الذين عهد إليهم بالتفتيش على الامام عبد الله، و بينما كان خارج بلدة معرة النعمان رأى أحد بائعى العطور يسير على الطريق. فتقدم منه و سأله: الى أين أنت ذاهب؟ فأجابه العطار: إني ذاهب الى «دير عصفورين» لأبيع ه ذا العطر الطيب الى أحد القديسين الذى يقيم فى الدير، و كان قد طلبه منى منذ يومين ...

فسأله أبو الفقير عن صفاته فقال : إنه رجل ذو هيبه، و وسامة، و وقار، و دين، و قد جاء منذ مدة خمسة أشهر الى هذا الدير، فأقام فيه منقطعا للعبادة و للتأليف . فقال له: هل تحسن إلىّ بمرافقتك، فلا بد أن يكون من الأولياء الصالحين الذين أحتاج إلى بركاته، و قد أشفى على يده من مرضى المزمين .. فقبل العطار طلبه ... و عند وصول أبى الفقير الى باب الدير ألقى نظرة على الامام فعرفه، و بدون أن يشعر به عاد عن الباب مسرعا، ثم ذهب حيث التقى برفاقه بع د جهود مضنية، فأعلمهم عن مقر الامام، فجاءوا إليه، و أعلنوا له عن ندمهم، و طلبوا إليه العفو و الغفران، فقبل إلا أنه اشترط عليهم الذهاب الى بلدة «سلمية» للإقامة فيها، فقبلوا طلبه و جاءوا معه حيث استأجروا له منزلا.

عاش الامام عبد الله بن محمد فى سلمية بسرية مطلقة، و لكنه لم يتوان عن ارسال دعائه الى كافة الجهات كما أنه أخذ بتأليف كتاب «رسائل اخوان الصفاء، و خلان الوفاء».

فى عهده غلب اسم «قرمطى» على كل اسماعيلي فى بلاد الشام، و ذلك تحقيرا و انتقاما، و لكن الناس تهافتوا من كل حذب و صوب على

##PAGE=132##

الانتساب الى الدعوة الاسماعيلية السرية، و خاصة سواد العراق، و البحرين، و بلاد الخليج، و مناطق القبائل العربية فى بلاد الشام و العراق.

توفي الامام وفيّ أحمد عام ٢١٢ هـ في سلمية و دفن في مدينة مصيف و لا يزال ضريحه قائما حتى اليوم.

أحمد بن عبد الله ابن محمد بن اسماعيل أو «تقي محمد»

هو الامام التاسع من جده على بن أبي طالب، و ثالث الأئمة الاسماعيلية المستورين . عرف بين الناس بأنه أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح. و يقول عن نفسه أنه أحد دعاة الامام المستور «أحمد بن عبد الله».

ولد في مدينة سلمية سنة ١٧٩ هـ، و اتخذ منها مقرا له و لدعاته السريين الذين كانوا في عهده في كل مكان.

تتقّف على يد والده الامام عبد الله بن محمد، و أكمل رسائل اخوان الصفاء التي وضع والده عبد الله خطوطها الأولى.

اعتمد التجارة مهنة له، و اتخذها ستارا لاختفاء مهمته و شخصيته خاصة عند تنقلاته . لقيّه أتباعه بالوفى . عاصر المأمون العباسي، و اشترك في إثارة الناس عليه، كما شاهد الثورات الداخلية التي هبّت من حوله.

كان يقضى فصل الصيف في مدينة مصيف. و قبل موته أوصى أن يدفن فيها. في عهده بلغت الدعوة الاسماعيلية أوج عزها و ازدهارها، و أقبل الناس من كل فوج على الانتساب إليها.

أدرك ثورة بابك الخرمي و شاهد نهايتها .. و وجّه دعاته فتمكنوا من ضم فلولها الى الاسماعيلية، و من هنا اختلط الأمر على بعض المؤرخين فذهبوا الى القول بأن الخرمية هي الاسماعيلية، و هو قول مضحك و تافه . توفي في مصيف عام ٢٢٥ هـ.

الحسين بن أحمد ابن عبد الله الملقب بالأهوازي أو رضى الدين عبد الله

هو الامام العاشر من جده على بن أبي طالب. ولد في بلدة

##PAGE=133##

«مصيف» سنة ١٩٨ هـ، و لكن إقامته و نشاطه كانا في سلمية. ذكر أنه كان يمتلك ثروة طائلة، و قرى عديدة و مزارع. من ألقابه:

«التقى» و «الأهوازي». كان على علاقة وثيقة مع الأسرة العباسية التي تقطن سلمية دون أن يعرفوا شخصيته الحقيقية و نسبه.

عرف بين الناس باسم الحسين الأهوازي. و قال عن نفسه: إنه داع لإمام مستور من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق اسمه «الحسين بن أحمد». كان كثير التنقل، و الذهاب الى بلاد فارس، و البحرين، و الحجاز، و كان يحضر مواسم الحج، و يشرف على شؤون دعوته في الأقاليم.

التقى في الكوفة بقاسم بن فرح بن حوشب الملقب بمنصور اليمن و على بن الفضل و كانا يدعوان للحسن العسكري إمام الشيعة الإثني عشرية، فتمكن من التأثير عليهما، و أحضرهما إل ى سلمية، ثم جهزهما بعد أن درسا عليه النظام الفكري الاسماعيلي و أرسلهما إلى اليمن سنة ٢٦٨ هـ. كما تم في عهده إرسال أبي عبد الله الشيعي إلى المغرب.

في عصره دب الوهن في الدولة العباسية، و أحدثت الثورات، و الاضطرابات من كل جانب، و تولّى ابن طولون شؤون مصر، و أوكل اليه أمر تنظيم بلاد الشام.

حقق أكبر الانتصارات في مجال الدعاية، و بلغت الاسماعيلية في عهده أعلى مستوى من الانتشار في الأقطار الاسلامية، و كل هذا بفضل سهره، و بعد نظره، و دقته في التنظيم و الإدارة.

مات في سلمية سنة ٢٨٩ هـ، و دفن في مقام جده عبد الله بن محمد المعروف بمقام الامام اسماعيل.

مما تجدر الإشارة إليه أن الامام الحسين بن أحمد لقي أثناء وجوده بسواد الكوفة حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط . و بعد أن توثقت بينهما أواصر الصداقة تمكن من التأثير عليه، و إدخاله في دعوته، كما التقى بمهرويه بن زكرويه السليمانى فأصبح من قادة القرامطة الذين لعبوا دورا مهما في التاريخ، و مثله أولاده .. و كل هذا سنفرده له فصلا خاصا عند ما نتحدث عن الحركة القرمطية.

##PAGE=135##

رسائل إخوان الصفاء

##PAGE=137##

تشكل رسائل اخوان الصفاء و خلّان الوفاء لغزا مبهما بالنسبة إلى الباحثين كما تبدو لهم سرا من أسرار العقائد الاسماعيلية عسر فهمه، و كنز فكري ثمين أغلقت الأبواب دونه، و تضاربت الأقوال عنه، حتى أصبح مثارا للجدل و للتخمين . و مادة للاستنتاج العقلي قلما يؤدي الى نتيجة تميّط اللثام عن الحقيقة الضائعة، أو توصل الى هدف ينير السبيل، و يكشف عن الحقيقة المحتجبة وراء ستور الكتمان.

و لعلّ مؤلف رسائل اخوان الصفاء تعمد إخفاء اسمه عن عامة الناس حرصا على حياته المهددة من خلفاء بنى العباس، و مبالغة في كتمان هدف رغب ألا يصل الطالب الى معرفته بسهولة، و زهدا في شهرة كان يعتقد أنها زائلة، و طمعا في ثواب أمل أن يناله.

دراسة كتاب «رسائل اخوان الصفاء» ليست من الأمور السهلة في تاريخنا العربي، فهذه الموسوعة العلمية، أو الكتاب القيم لفت انتباه، و أنظار فريق كبير من العلماء و الباحثين و المستشرقين منذ بدء النهضة العلمية الحديثة، و كان جميع الذين تجولوا في مراحله الواسعة، قد أجمعوا على القول بأن مادته هي أغزر مادة في الفلسفة، و أقوم حجة في عالم العقل .. بل هو أثمن تحفة فكرية ضمّت بين دفتيها البديع، و الایجاز، و الحكمة، و الفنون، من فلك، و عدد، و موسيقى، و فنون، و هندسة، و رياضيات، و طب، و أدب، و قصة، و تربية، و ع لوم أخرى أنتجها العقل الاسلامي في عصر مبكر من عصور

الإسلام، و زادوا فقالوا إن هذه الرسائل تمثل الرقى العقلى، و التطور الفكرى، و تعتبر من أقدم المصادر فى الفلسفة
الاسلامية

##PAGE=138##

التي تعبر عن الثقافة الواسعة، و تعالج المعضلات الفلسفية، و أغنى موسوعة العلوم و الآداب الناطقة بسهولة الأسلوب، و
مرونة الاستدلال.

و لقد سبق لى أن ذكرت فى أكثر من دراسة عن رسائل اخوان الصفاء، بأنه يتعذر على أى باحث إيفاء موضوع اخوان
الصفاء حقه، و كشف ما غمض عنهم، ما لم يضع نصب عينيه المصادر الاسماعيلية، فهذه المصادر تؤلف عنصر الموضوع، و
المادة الأساسية التى تقيم ارتباطا أساسيا بفصوله و حيثياته و قد يكون من المفيد أن نذكر:

أن هذه المصادر كانت مفقودة، و بعيدة عن متناول أيدي العلماء بالأمس . أما اليوم فظهورها من كهف تقيتها، منذ أعوام
معدودة، أعطى القضية الغامضة بعض الجلاء . و أعتقد أن الباحثين القدماء لهم العذر، فهم قد عجزوا، و لم يقدر لهم الاطلاع
على المصادر أو التعمق فى دراسة الرسائل، و مقابلة نصوصها الفلسفية مع نصوص أخرى.

يقول المستشرق «كازانوقا»: «أؤكد أن آراء الاسماعيلية توجد كلها فى رسائل اخوان الصفاء .» و قال ماكدونالد : «إن
الاسماعيليين لم يكونوا عصابات من اللصوص تنشر الرعب بأساليبها الشنيعة، و لكن كلا الفرعين الشرقى و الغربى قد
عكف على العلم، و ربما وجد فى حصونهم الجبلية أشد أنواع العناء فى طلب العلم الصحيح».

و قال الدكتور «عبد اللطيف الطيباوى» و هو ممن درس و تفهم موضوع اخوان الصفاء: «لأرأى إلّا مصيبا فى القول، بأن
فلسفة الإسماعيلية جميعها مبثوثة فى رسائل اخوان الصفاء، فعليه من الجور أن يرمى الاسماعيليون بالكفر و الانحطاط
الخلقى كما جاء فى فتوى ابن تيمية».

هذا، و إنى لعلى يقين من أن أبا حيان التوحيدى قد ارتكب خطأ كبيرا عند ما ذكر أن زيد بن رفاعه، و البستى و المقدسى
و الزنجانى و المهرجاني و العوفى هم الذين ألفوا الرسائل المذكورة فى القرن الرابع للهجرة. فهذا القول لا يستند إلى حقيقة.
لأن الوقائع و المصادر الاسماعيلية لا تقره. و تؤكد بأن مؤلف الرسائل هو الامام

##PAGE=139##

المسثور و فى أحمد الامام الثامن، و لكن ثبت بأنه مات قبل أن يكمل الكتاب، و عند ما جاء ولده تقي محمد قام بإنجازه
و خاصة «الرسالة الجامعة». أما الأشخاص الذين ذكرهم التوحيدى فهم من دعاة الاسماعيلية أصلا و من جمعية اخوان
الصفاء التى كانت قائمة فى عهود الاسماعيلية القديمة كافة.

لقد وضع الامام و فى أحمد و ابنه تقي محمد احدى و خمسين رسالة، و ذلك لحكمة تأويلية تقضى بأن تكون هذه
الرسائل دائرة علمية ناموسية، صورة مطابقة لما فى الدائرة العلمية، كما و أن فى الدائرة العلمية بيان لما فى الدائرة الناموسية
الدينية، و هكذا فإن العدد / ٥١ / جاء مطابقا لعدد ركعات صلاة الفريضة و صلاة السنة كما جاء فى الرسائل.

و اعلم يا أخى أننا قد عملنا إحدى و خمسين رسالة فى فنون الآداب و غرائب العلوم و طرائف الحكم : كل واحدة منها شبه المدخل و المقدمات و الأنموذج، لكيما إذا نظر فيها إخواننا و سمع قراءتها أهل شيعتنا، و فهموا بعض معانيها و عرفوا حقيقة ما هم مقرّون به من تفضيل أهل بيت النبى، صلى الله عليه و سلم، لأنهم خزّان علم الله، و وارثو علم النبوت؛ و تبين لهم تصديق ما يعتقدون فيهم من العلم و المعرفة.

فأعيادنا أيها الأخ هى أشخاص ناطقة و أنفس فعالة تفعل بإذن باريها ما يوحىه إليها و يلهمها من الأفعال و الأعمال . فالיום الأول من أيامنا و العيد الفاضل من أعيادنا هو يوم خروج أول القائمين منا، و يكون اليوم الموافق له لنزول الشمس برج الحمل لمجىء الربيع و الخصب و النعمة و نزول الرحمة و الظهور و الانتشار، و هو يوم فرح و سرور لنا و لجميع إخواننا.

و اليوم الثانى هو يوم قيام الثانى الموافق يوم قيامه يوم نزول الشمس أول السرطان فى تنهاى طول الليل و قصر النهار إذ كان فيه تصرّم دولة أهل الجور و انقضاؤها و هو فرح و سرور و استبشار.

و اليوم الثالث هو يوم قيامة ثالثنا الموافق لنزول الشمس أول الميزان و استواء الليل و النهار، و دخول الخريف، و هى مقاومة الباطل الحق، و كون الأمر على خلاف ما كان عليه.

ثم اليوم الرابع يوم الحزن و الكآبة يوم رجوعنا إلى كهفنا و كهف التقيّة و الاستتار، و كون الأمر على ما قال صاحب الشريعة: «إن الإسلام ظهر غريبا و سيعود غريبا فيا طوبى للغرباء» فيكون الأمر على مثل ما نحن

##PAGE=140##

عليه فى وقتنا إلى وقت البروز و الخروج و الرجوع بعد الذهاب كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل.

و فى رسائل الإخوان نصوص عديدة تنص و تذكر : «دولة أهل الخير» التى هى الدولة الفاطمية . أما عن ترتيب نظامهم الفكرى و فلسفتهم فيوجد أكثر من نص، و أننا عند ما نورد بعض هذه النصوص، فلكى نعطي القارىء فكرة تتمثل فيها الحقيقة:

و أعلم أن «دولة أهل الخير» يبدأ أولها من قوم خيار فضلاء يجتمعون على رأى واحد، و يتفقون على مذهب واحد، و دين واحد، و يعقدون بينهم عهدا و ميثاقا لا يتجادلوا، و لا يتقاعدوا عن نصره بعضهم بعضا، و يكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم، و كنفس واحدة فى جميع تدبيرهم فيما يقصدون».

و جاء أيضا:

«إن من خواص إخواننا الفضلاء، انهم العلماء بأمور الديانات، العارفون بأسرار النبؤات، المتأدبون بالرياضيات الفلسفية، فإذا لقيت أحدا منهم، و آنست منه رشدا فبشره بما يسره و ذكره باستئناف دور الكشف، و الانتباه، و انجلاء الغمة عن العباد بانتقال القرآن من برج مثلثات النيران إلى برج مثلثات النبات و الحيوان فى الدور العاشر الموافق لبيت السلطان و ظهور الأعلام».

و جاء:

«فصار ذلك سببا لاختفاء إخوان الصفاء، و انقطاع دولة خلّان الوفاء إلى أن يأذن الله بقيام أولهم، و ثانيهم، و ثالثهم، فى الأوقات التى ينبغى القيام بها».

و جاء:

«و اعلم أنه ما من جماعة تجتمع على أمر من أمور الدين و الدنيا، و تريد أن يجرى أمرها على السواء . و تكون سيرتها على الرشاد إلا و لا بد لها من رئيس يرئسها ليجمع شملها، و يحفظ نظام أمرها، و يراعى تصرف أحوالها، يرمّ على الانتشار جماعتها، و يمنع من الفساد صلاحها، و ذلك ان الرئيس أيضا لا بد له من أصل يبنى عليه أمره و يحكم به بينهم، و على ذلك الأمر يحفظ نظامهم، و نحن قد رضينا بالرئيس على جماعة إخواننا، و الحكم بيننا العقل الذى جعله الله تعالى رئيسا على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الأمر و النهى».

و جاء أيضا:

«و كذلك فعلت الأمة الضالة، و الفئة الطاغية، و العصبة الباغية من أئمة الضلال الداعية إلى النار، منعوا أولياء الله، و أهل بيته الذين أذهب عنهم

##PAGE=141##

الرجس، و طهرهم تطهيرا، أن يسعوا فى الأرض بالصلاح العام، و النفع التام، ممّا استذلّوهم به من المذلة و الهوان، و ألجموهم عن النطق بالحكمة و الكلام بما فيه صلاح الأمة بالخوف الذى لحقهم، و الامتحان الذى شملهم منهم، كما تلجم البهائم بلجم الحديد الثقال، و الارسان لتقاد حيثما قيدت، و تمتنع من الكلام بما أرادت فهى تشكو إلى ربها العالم بأسرارها بقلوب نقية، و أرواح سليمة، و نيات جميلة، عسى أن يرحمها، و يفرّج عنها، و يزيل كربها، و يسمع دعائها و يعضدها، و يأخذ لها بحقها ممن ظلمها، و تعدى عليها، و هو ولى إجابتها، و معونتها، و نصرتها إذا قام قائمها، و انتبه نائمها الذى طال نومه صبرا و احتسابا على ما ناله فى جنب الله، و طاعته، حتى يأذن له ربه و يؤيده بملائكته، فعند ذلك يقوم، فيأخذ بحقه، و ينجز له وعده، و يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت جورا، و يفك البهائم الأسيرة، و الأشخاص الذليلة من أسر العبودية، و قيد المملكة، ورق الذل، و يجعل الذين أهانوهم فى مثل ما كانوا فيه جزاء بما كانوا يعملون، و يحق الله الحق بكلماته، و يظهر دعوة إخوان الصفاء و خلّان الوفاء، و يجمع شملهم بظهور النفس الزكية، و الروح الطاهرة المطمئنة، فعند ذلك يطهر الأرض من أنجاس الجاهلية».

و كما قلنا فإن رسائل إخوان الصفاء هذه تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر، كما تمثل الحياة الفكرية بشكل أقوى من تمثيلها للحياة السياسية و يمكن القول أنها مرآة انعكست فيها الحياة العقلية انعكاسا مباشرا، و نحن نرى فيها كل هذا واضحا جليا ... نرى أن العقل الإسلامى فى ذلك العصر قد بدأ بفهم ما ينقل إليه من فلسفة اليونان، و حكمة الهند، و آداب الفرس، و الآداب العربية و الإسلامية و غير ذلك من الديانات السرموية و غير السرموية، و قد جمع ذلك كله و رتبته، و لاءم بينه، و حاول أن يكون منه مزيجا واحدا مؤتلفا هو خلاصة الثقافة التى يجب على الرجل المستنير حقا أن يظفر بها، و يأخذ منها بالحظ الأوفر . و لا نضيف شيئا جديدا حينما نقول : إن رسائل إخوان الصفاء هذه أشبه ما تكون بدائرة معارف

فلسفية علمية جمعت كل ما لم يكن بد من تقديمه للرجل المثقف حقا في ذلك العصر، و في هذا العصر، و قد جمعت ذلك كله على شيء من النظام الذي يمثله الفهرست الذي قدم بين يديها ... و هذا النظام يجب أن ينظر إليه من وجهين : أحدهما الوجه الفلسفي الصرف، و هو من هذه الناحية متأثر بما عرف المسلمون عن فلسفة الفيثاغوريين، و الأفلاطونيين القدماء، و المحدثين، و أرسطو، و لهذا التأثير ظهور في تقسيم الكتاب إلى أربعة أجزاء:

##PAGE=142##

فالجزء الأول: يضم أربع عشرة رسالة في الرياضيات على اختلافها، في العدد و الهندسة و الفلك ثم في الفنون العملية، ثم في المنطق . و هذا الجزء فيثاغوري، و أفلاطوني في أوله، و في آخره متأثر بأرسطو، كما يظهر من منطقته و ترتيبه، و أسمائه.

و الجزء الثاني: أرسطوي الصبغة يتناول الطبيعيات كلها على النحو الذي تناولها أرسطو، فيبدأ بالهيولي، و الصورة، و الزمان، و المكان، و الحركة، ثم ينتقل إلى الآثار العلوية، و لا يزال يتدرج حتى يصل إلى المعادن، و بعدها إلى النبات، و إلى الحيوان، ثم إلى الإنسان، و أخيرا يختمه بعلم النفس.

و الجزء الثالث: مؤلف من عشرة رسائل فيما وراء الطبيعة، و هو ظاهر التأثير في هذه الضروب الثلاثة من الفلسفة اليونانية، و نستطيع أن نقول: انه يضم خلاصة آراء فلاسفة الإغريق، ففيه من الفيثاغوريين، و فيه من الأفلاطونية الحديثة، و فيه من الأسطوريين.

أما الجزء الرابع: فهو يتناول الإلهيات، و ما يتصل بالديانات، و الشرائع، و التصوف، و هو مزاج التأمت في ه كل العناصر المؤثرة في الفلسفة الإسلامية سواء منها الشرقي و الغربي و الفلسفي و العلمي و الديني و الأدبي و الفني و الخرافي أيضا.

هذه الأجزاء الأربعة و عدد رسائلها احدى و خمسون رسالة ليست في حقيقة الأمر إلّا مقدمة و مدخلا إلى رسالة «الجامعة» التي هي خلاصة العلم، و غاية الغايات التي ينتهي إليها إخوان الصفاء، و هذه الرسالة يجب أن لا تعرض على أحد حتى يكون قد أخذ بحظه من هذه الرسائل. و إخوان الصفاء يشبهون أنفسهم برجل حكيم جواد كريم له بستان فيه من كل لذة، و فيه بهجة لا تعادلها بهجة، و لكنه لا يسمح للناس بالدخول إلى هذا البستان حتى يعرض عليهم نماذج ممّا فيه، فهم ينظرون إليه، و يدنون منه ثم يذوقون، و يشمون، و يلمسون، حتى إذا أنسوا، و اطمأنوا، ثم رغبوا، و اشتهووا أدخلوا إلى هذا البستان. و يشبهون رسالتهم «الجامعة» هذه بالدواء الذي يشفى الجسم عند ما يكون متهيا لقبوله، و يقتل إذا لم يكن الجسم متهيا لقبول.

إن هذه الرسائل مفيدة للذين تخصصوا بدراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية، لأنها كما ذكرنا تمثل عصرا بدائيا من عصور الفلسفة في

##PAGE=143##

الإسلام. و إنى أجزم بأن قراءة هذه الرسائل بعناية و تدبر ستكشف عن أشياء لم تظهر بعد، و ليس بعيدا أن يكون ابن سينا و الفارابي قد درسا، و أخذوا، و نهلا من معين هذه الرسائل، كما أنه ليس من المستبعد أن يكون الغزالي أيضا قد تأثر إلى

حدّ قريب أو بعيد بفلسفة هذه الجماعة، و لا سيما حين نلاحظ بأنه نشأ فيلسوفا ثم تحوّل إلى عالم محكوم عليه، و انتهى صوفيا معتزلا متعبداً. و إننا نرى إخوان الصفاء يستخلصون التصوف، و الغلو فيه من الفلسفة الخالصة، فهذا الدرس قد يفيد الذين يدرسون التاريخ السياسي للمسلمين، لأنه يكشف لهم عن أمور قد لا يظفرون بها في كتب التاريخ السياسي، فالتاريخ السياسي قد كتب كما يعلم كل إنسان تحت تأثير نوازع، و رواهب، و غايات، حالت دون الصدق و الاعتراف بالحقيقة و الانصاف بالحكم على الأمور، فكثير من أولئك الذين كتبوا هذا التاريخ السياسي لم ينظروا إلّا إلى ظواهر الأمور، و أعراض الحياة العامة، فهم كانوا خاضعين لتيارات تهب من كل جهة، فتذفّفهم من مك أن إلى آخر. و من يدري؟ فهذه الرسائل إذا قرأها الباحثون بعناية و إمعان فقد تكشف لهم عن أسرار علمية لا يمكن تقدير فائدتها، و كل هذا يفيد كل من يريد الاستفادة من العلوم المأخوذة من القديم.

إن الفكرة العامة عند الذين ينصرون القديم، و يتعصبون له الآن ...

إن هذا القديم ينحصر في الشعر و النثر، و ما يتصل بهما من علم اللغة، و من الأدب، فهم لا يعترفون بالفلسفة، و لا بالعلم، لأنهم يحسون بوضوح و جلاء تفوق الفلسفة الحديثة، و العلم الحديث على ما كان للقدماء من فلسفة و علم، و قد اثبتوا في ذلك أنهم نفعيون يتأثرون بمنافعهم فقط، و يخضعون لعقول هي أرقى من أذواقهم، فحين يقدرّون رقى العلم و الفلسفة، و هم يعتمدون نكران ما كان للعصور القديمة من علم و فلسفة، كما لا يقدرّون رقى العلم لفتور أذواقهم ... فإنهم يقدرّون الأدب القديم و يسرفون في تقديمه، و لو أنهم أنصفوا، أو لو أن هناك توافقاً بين عقولهم و أذواقهم لكانوا قدروا الأدب القديم، و العلم القديم، و الفلسفة القديمة كلها على حد سواء بشيء من العدل و الانصاف. فليس أدب القدماء أكثر حلاوة، و إمتاعاً للنفوس من علم القدماء و فلسفتهم، و إذا كان علم القدماء و فلسفتهم لا يلائمان عقولنا الآن، فأدب القدماء يجب ألا يلائم

##PAGE=144##

أذواقنا أيضاً، و عندئذ لا بد أن تكون قد مسخت هذه النفوس، و هانت عقولها، و إمّحت أذواقها أو كادت.

إن الذين ينصرون القديم، و يتعصبون له، و الذين يريدون أن يكونوا لأنفسهم ثقافة قديمة صالحة، و الذين يرغبون أن يعرفوا القديم على وجهه ليستطيعوا أن يعرفوا الحديث حق معرفته جميع هؤلاء خليقون أن يقرأوا الفلسفة القديمة كقراءتهم للأدب القديم .. في اعتقادي ... ليس كل الناس. بل ليس كل مثقف يستطيع أن يتفهم فلسفة الفارابي أو ابن سينا، فهذه الفلسفة وقف على الخاصة لأنها كتبت لها، و هذا عكس رسائل أخوان الصفاء التي وضعت لعامة المثقفين، و كان القصد منها إيجاد ثقافة فلسفية صالحة، فهي أدنى إلى العقول، و أيسر على النفوس ... و هي مقدمة صالحة للفلاسفة المتخصصين.

و قد يكون من الحق علينا أن نلفت أنظار الناس، إلى أن هذه الرسائل لم تقصد بها الفلسفة من حيث هي فلسفة و لا العلم من حيث هو علم، بل أريد منها تكوين ثقافة معينة تهتّء لنحو من السياسة معين، ففيها من التأويل، و فيها من الخيال ما يحسن الالتفات إليه، و الاحتياط منه معاً، و قد كان إخوان الصفاء أنفسهم مخلصين في ذلك، فقدروا، و لفتوا الأنظار، و دعوا، و ألحوا في الدعاء بأن لا تعطى هذه الرسائل للناس إلّا بمقدار، و قد كان ذلك ميسوراً في العصر القديم، حين كان العلم لا يؤخذ إلّا في المدارس، و من العلماء، و حين كان تحصيل الكتب وقفا على فئة معينة من الناس، و اقتناؤها لا يتأتّى إلّا بعد جهد و مشقة. أما الآن فبوجود المطبعة أصبحت الكتب تعرض نفسها على الناس، و تلج في العرض - و

الإغراء ... فنحن بين أمرين: إما أن نحظر نشر الكتب إلّا بمقدار، و بعد امتحان، و اختبار، و تمحيص، و فى هذا تقرير لمبدأ الجهل، و الجمود، و الانكماش، و إمّا أن نذيع الكتب، و ننشرها، و لا نقيّد حرية المطبعة إلّا بما لا بد منه لحماية الأخلاق، و حيطة النظام الاجتماعى، و هذا هو السبيل الذى سلكته الأمم، و الذى يجب علينا سلوكه راضين أو كارهين.

لرسائل إخوان الصفاء قيمة أخرى جديرة بالتقدير، و أعنى بها قيمتها الفنية الخالصة، فهى قد خصصت لجمهرة من الناس لتعليمهم و تثقيفهم، فعدلت عن العسر الفلسفى إلى اليسر الأدبى

##PAGE=145##

و كانت غاية مؤلفها تسهيل أسلوبها و جعله سهلا رقيقا مفهوما، و فى متناول الفكر . و قد نلاحظ أن فيها الكثير من التشبيه المتقن، و الألفاظ المتخيرة، و المعانى الميسرة، و ليس من الغلو أن يقال أنها قاربت المثل الأعلى فى تذليل اللغة العربية، و تيسيرها لقبول ألوان العلم على اختلافها، و حبذا لو أن لدينا بعضا ممن يعنون بالدرس الأدبى فيتوفرون على رسائل إخوان الصفاء درسا و تحليلا و نقدا فمن الممتع أن نتبين ما فيها من ثمرات. و جملة القول:

هذه الرسائل كنز لم يقدر بعد، لأنه لم يعرف بعد، و هو إذا عرف فقد يجلو نقطة مهمة من حياة الأمة الإسلامية فى عصر من أهم عصورها، و أجلها خطرا . و عسى أن يكون وجود هذه الرسائل بين أيدينا، المطلب الذى نطلبه و نحرص عليه فهو يقربنا من هدفنا المنشود و مثلنا الأعلى.

##PAGE=147##

القرامة

##PAGE=149##

الاسماعيلية الفاطمية

من المعلوم أن الإسماعيلية تنسب إلى الإمام إسماعيل بن جعفر.

و من هنا جاء الاسم إلّا أن بعض علماء الإسماعيلية ذهب إلى القول بأن إسم «إسماعيلية» قديم و إنه جاء منذ عهد إسماعيل بن إبراهيم الخليل. و لكن هذا القول لا تؤيده المصادر التاريخية.

ظلت التسمية «الإسماعيلية» قائمة و معترفا بها حتى بدء قيام الدولة الفاطمية على يد عبد الله المهدى فى المغرب . فى هذا الوقت حلت التسمية الجديدة «الفاطمية» محل الاسم القديم «الإسماعيلية» لأسباب عديدة أهمها: ربط إسم الدولة الجديدة باسم مرغوب فيه، و محبب لقلوب الناس فى المغرب ألا و هو إسم «فاطمة الزهراء» ابنة النبی محمد صلى الله عليه و آله من جهة، و من جهة أخرى للتمييز بينهم و بين «العلويين» الآخرين الذين ينحدرون من على بن أبى طالب من أم غير فاطمة الزهراء، و قد يكون عبد الله المهدى أراد بذلك إبعاد اسم «القرامة» عن دولته و جماعته، فهذا الاسم قد طغى على كل الأسماء فى عهد أئمة «دور الستر» فأصبح الإسماعيلي لا يعرف إلّا بالقرمطى، من قبل غير الاسماعيليين و هذا الاسم كان يقابل فى العالم الإسلامى بالاشمئزاز و الخوف، و خاصة فى بلاد المغرب. إذن فالفاطمية هو اسم الدولة، و اسم

الخلفاء الذين حكموا في المغرب و مصر . أمّا الإسماعيلية فاسم المجموعة المنضوية تحت لواء الأئمة الفاطميين . و من الجدير بالذكر أن اسم «الإسماعيلية» عاد بعد انهيار الدولة الفاطمية في مصر إلى الحلول محل «الفاطمية».

و كان موضوع «القرامطة» و ما زال، يستأثر باهتمام الباحثين و المتقنين العرب في هذا العصر، كما و إن العديد من المستشرقين قد

##PAGE=150##

تسابقوا إلى دراسته، و الكشف عن هوية منظمي هذه الحركة الثورية العنيفة التي ما زال الغموض يكتنف تاريخها، و يلف جوانبها. و من الواضح إن القراء العرب وجدوا في الحركة القرمطية تسليتهم و تعزيتهم، فكانوا يهرعون إلى قراءة كل ما يصدر عنها من بحوث و مقالات، و لكنهم انقسموا حيالها إلى فريقين : فريق يرى فيها حركة تقدمية اشتراكية، أو شيوعية أممية هدفت إلى إصلاح المجتمع، و الخروج به من عالم الظلام إلى دنيا النور. و فريق ثان اعتبرها حركة كافرة قامت على الضحايا و الدماء، و عبثت بالقيم و الأخلاق، فدمرت المدن، و قتلت النساء و الأطفال، و وصل الأمر بها إلى حد العبث بالأمكان الدينية المقدسة. و نحن في موسوعتنا هذه ... لا نريد أن نورط أنفسنا في هذا الجدل العقيم الذي لا يؤدي إلّا إلى الفرقة و الانقسام، و حجب الحقيقة عن الأنظار، فمهمتنا تنحصر كما أعلنّا أكثر من مرة بعرض الوقائع و الأحداث، مراعين بذلك الأمانة التاريخية قائلين مرددين بأننا لسنا ضد التقدمية البناء، أو الاشتراكية الصحيحة التي تكفل حقوق الفرد و المجتمع، و تقوده إلى حياة أفضل، كما أننا لسنا مع مبدأ الإرهاب، و القتل، و التدمير، و الاعتداء على الآمنين، و العبث بالأمكان المقدسة.

إن موضوع القرامطة، و هذا ممّا يؤسف له أشد الأسف قد أصبح في هذه الأيام مادة للتجارة، و موردا للرزق و الربح، فأكثر الكتب التي صدرت عنه توخّى مؤلفوها التجارة بالتاريخ من دون أن يكون للحقيقة أى وجود لديهم، و فتحت دور النشر أبوابها، و أعلنت عن ترحيبها لكل كتاب يحمل اسم «القرامطة» لأن هذه الدور وضعت أمام أنظارها المكاسب الطائلة و السريعة بمجرد نزول الكتاب إلى ساحات العرض في المكتبات، و هذا ممّا يؤسف له أشد الأسف.

سبق لى أن ذكرت في كتابي الأول «القرامطة» و في كتابي الثاني «ثورة القرامطة الاشتراكية» أن كلمة «قرمط» مشتقة من «DIMATEK» و هي يونانية الأصل، و يرى البعض أنها مأخوذة من «قرمط» أى غضب و عبس. و ممن يأخذ بهذا الرأي «برنارد لويس» و «دى ساسى» و يذهب الأب أنستاس الكرملى إلى القول بأنها آرامية، مشتقة من «قرمطونا» و تعنى «المدلس» أو الخبيث الماكر المحتال. أو من قرمط و هو الخبث و المكر و الاحتيال.

##PAGE=151##

و في اللغة فالقرمطة في الخط دقة الكتابة و تدانى الحروف و السطور، و في المشى مقاربة الخطو، و هي عند العامة التضييق و الاقتار. أمّا القرموط فدحروجة الجعل و الأحمر من ثمر الغضى و نوع من السمك.

أجمعت المصادر التاريخية على القول بأن كلمة «قرمط» أطلقت أول ما أطلقت على الداعي الإسماعيلي في سواد الكوفة المعروف «حمدان ابن الأشعث» لأنه كان يقرمط في سيره إذا مشى .. أى يقارب ما بين خطواته، و هناك رأى آخر يذكر بأن التسمية جاءت من «القرمذ» و هو الطوب الآجر الأحمر، و لم اكان حمدان أحمر الوجه، فإن هذا الأسم ألصق به . أما

المصادر الإسماعيلية فتؤكد بأن كلمة «قرمطي» كانت تطلق على كل اسماعيلي، وهذا من قبل الأعداء والناقمين تشفيا و انتقاما، و كل هذا كان سائدا قبل ظهور حمدان بن الأشعث على المسرح العام، و ممّا يعزز هذا الرأي إقدام عبد الله المهدي على إطلاق اسم «الفاطمية» على دولته، و كأنني به أراد إزالة هذا الاسم ..

أى «القرامطة» عن دولته و عن أتباعه، نظرا لما يحمله من ذكريات مؤلمة تقابل بالسخط و الازدراء فى العالم الإسلامى.

و بحسب المصادر الإسماعيلية، فإن بوسعنا القول مطمئنين : أن دعاء الإسماعيلية فى سواد الكوفة الذين تسلموا قيادة الدعوة فى آخر المطاف، لم يكونوا هم الدعاء الأوائل، أو المؤسسين، و هذه حقيقة تنسحب على حمدان بن الأشعث - قرمط أيضا .. فهناك دعاء قد سبقوه إلى تأسيس دعائم الدعوة، و ربما كان ذلك منذ عهد الإمام محمد بن إسماعيل الذى مرّ معنا إنه أقام فترة قصيرة فى سواد الكوفة، كما كان يوالى التردد إليها، و بعد وفاته استمرّ النشاط الدعائى، و ظلت الدعوة سائرة فى طريقها، و قائمة تزداد قوة و عددا يوما بعد يوم حتى عهد الإمام الحسين بن أحمد (الأهوازى) و بعد ذكر المؤرخ المقرئى، أنه خرج من سلمية إلى العراق سنة ٢٥٩ هـ. و كان والده الإمام أحمد بن عبد الله لا يزال حيا، و تشاء الظروف أن يلتقى بحمدان بن الأشعث «قرمط» فى سواد الكوفة، فيتعارفان، و يتحدثان، و يتناقشان فى مختلف الأمور، و منذ الجلسة الأولى، تمكّن الحسين من السيطرة عليه، و ما زال يكرر لقاءاته معه حتى تمكن أخيرا من استقطابه، و تجنيده فى صفوف الدعوة، و بعد أن أخذ عليه العهد و الميثاق، أطلق يده و رسم له الخطط و الطرق التى

##PAGE=152##

يجب عليه سلوكها، و هذه البادرة شجعتة على دعوته إلى منزله، و إحضار الناس لسماع أحاديثه، فتكلم فيه م، و أفاض، و عبّر بما يملكه من قوة البيان، و الاقتناع و القدرة على السيطرة على السامع بأسلوب ساحر آخاذ، فأعجبوا به إعجابا كبيرا، و لى الكثيرون منهم نداء، و خاصة بعد ما خبروا صفاته، و كرمه، و مثاليته، و تقشفه، و عكوفه على العبادة، و كل هذا جعل الناس يهرعون إلى دعوته لمنازلهم للتبرك به، و كان من يحظى بذلك يعتبرها نعمة من الله، و غنيمة كبرى، و لم تقتصر هذه الثقة على عامة الناس، بل تجاوزتها إلى رؤساء القبائل، و الوجهاء، و الطبقة المثقفة.

و تشاء الظروف مرة أخرى أن يلتقى زكرويه بن مهرويه السليماني فى إحدى رحلاته، و هذا الرجل المرموق تولاه حمدان و صهره عبدان فأثرا فيه، و غرسا فى عقله مبادئ الدعوة، و جاء الحسين ليكمل البناء، فأخذ عليه العهد، و أعطاه رتبة كبيرة. و زكرويه كما ذكرنا كان من الشخصيات الكبرى فى السواد، و كان يملك بساتين واسعة من النخيل لم يلبث ب عد دخوله الدعوة أن وزعها و تصدق بريعها على الفقراء، و المحتاجين تحقيقا لمبادئ الاشتراكية التى اعتنقها، فعظم فى أعين الناس، و صدقوه - و احتراموه، و صنعوا له هودجا، و عند ما يمرّ بين الناس يهرعون للتبرك به معتبرين أنه الممثل الأول للإمام المستور.

و بالإضافة إلى زكرويه فقد انضم إلى صفوف الدعوة الإسماعيلية كل من جلندى الرازى و عكرمة البابلى و اسحق السودانى و عطف النيلي . و غيرهم، و هؤلاء كان كل منهم سيدا على قومه، و وجيها فى عشيرته، و قد منحهم الإمام الحسين الرتب العالية و الألقاب التى تتناسب و مكانتهم فى المجتمع مع، و من بينهم الثرى الفارسى «دندان»^{١١} الذى وضع

^{١١} (*) ذكرت المصادر أنه تبرع للدولة القرمطية بمليون دينار . اسمه محمد بن الحسين و أصله من الكوفة، ثم انتقل إلى الأهواز و أقام فيها فترة ثم فارقه إلى قم . و أخيرا استقرّ بجها «اصفهان». بعض المصادر ذكرت أن له ثلاثين كتابا فى فلسفة الدعوة و لكن حتى الآن لم يعثر له على أي مؤلف.

ثروته بتصرف الدعوة، وهكذا تحول هؤلاء إلى دعاة يحملون على عاتقهم مسؤولية الدعوة، وإعلاء شأنها، وإطاعة أوامر المسؤول الأول فيها.

##PAGE=153##

أمّا «عبدان» فهو من الدعاة المفكرين الذين تخصصوا بالتأليف، وكان قد اعتنق الفكرة في وقت مبكر، وإليه يرجع الفضل باستقطاب «زكرويه» وإدخاله في صفوف الدعوة، بحيث خصص له منطقتين للعمل هما : «هد» و «طسوج»، وعاوناه في ذلك الحسن بن أيمن و تستر البوراني و ابن الوليد و أبو الفوارس، وهؤلاء تعاونوا على توزيع الأدوار و المهمات، و تشكيل المراكز، و الحلقات ... و لم تمض سوى فترة قصيرة حتى هزعت القبائل العربية للانضواء تحت لواء الحركة الإسماعيلية، و لم يتخلف «رفاعي» و لا «حنبي» من بطون قبائل العرب المتصلة بسواد الكوفة و خاصة «بنى عابس» و ذهل» و «عنزة» و «تيم الله» و «تيم ثعل» و «بري شيبان».

إن المتتبع لسيرة حمدان بن الأشعث - قرمط - يرى: إنه كان مخلصا للدعوة الإسماعيلية مطيعا للأئمة، ينفذ أوامره بحذافيرها، و لا يقوم بعمل إلّا بعد الاستئذان منهم .. هذا في عهد الإمام الحسين بن أحمد الأهوازي .. أمّا في عهد عبد الله المهدي فأحسب أن الموقف قد تبدل و ساد العلاقات بعض الفتور . ففي تلك الفترة الزمنية اتخذ حمدان لنفسه خطة تقضي بالالتزام بالمقررات المتخذة من قبل بعض دعاة السواد، القاضية بالخروج عن الصمت، و إثبات الوجود، و تعزيز المواقف، مع الإبقاء على الارتباط بمركز الدعوة الإمامي في سلمية، و عن د ما جاءت سنة ٢٧٥ هـ كان حمدان قد انتهى من وضع دستور دولته القرمطية المرتقبة، و عهد إلى الداعيين الكبارين أبي الفوارس و أبي حاتم البوراني السهر على التنفيذ، و كان قد استقدمهما من إقليم القطيف و البصرة حيث كانا يقومان بالدعاية.

كان حمدان متحمسا لقيام دولة إسماعيلية اشتراكية في منطقة سواد الكوفة، و هذا الحماس دفعه إلى البروز، و الإعلان عن دولته متحديا بذلك الدولة العباسية التي كانت غارقة في بحر من الفساد، و الفوضى، و عدم الاستقرار . فجاء إلى قرية «مهتماباز» و أمر ببناء سور كبير حولها جعل عرضه ثمانية أذرع، و من ورائه خندق عظيم، ثم نقل إليها الدعاة و المعلمين و أناط بهم مهمة تعليم المستجيبين، و إعطاء الدروس للطلّاب، و خاصة للمتطوعين في الجيش، كما جاء ببعض المحاربين و القواد، و أمرهم بتدريب الجنود على أساليب القتال ... و من جهة أخرى أخذ يعمّم النظريات الاشتراكية، و يطبقها في المناطق

##PAGE=154##

التابعة له، و ينمي موارد الدولة بفرض ضرائب على الأفراد القادرين، و على أصحاب الدخل و القدرات ... و يبدو أن استشارته بالزعامة الأولى لم يرض أسره «آل مهرويه» فأخذ الحسد و النقمة يعملان في نفوس أفرادها، و اشتد النزاع و تطور حتى اختفى «حمدان» في ظروف غامضة، و قتل صهره عبدان فأقام هذا الحدث الرهيب عبد الله المهدي و أقعده، و اتهم آل مهرويه بالجريمة، و أمر بتجريدهم من رتبهم الدينية و إبعادهم عن الدعوة، كما أمر بإلغاء مركز «داعي الدعوة» من سواد الكوفة و نقله إلى مدينة «حماه»، و عين له الداعي الكبير أبا الحسن الأسود.

و من الأمور الطارئة التي عجلت بإشعال نار الحرب، و توسيع شقة الخلافات الداخلية، إقدام أحمد بن حمدان بن الأشعث قرمط على مطالبة عبد الله المهدي بتعيينه في مركز والده، و لكن عبد الله المهدي أجابه بالرفض قائلا : إن المناصب في الدعوة الإسماعيلية يحصل عليها المستجب بالجد و الاجتهاد و العمل، و لا تخضع إلى التسلسل الوراثي، و هذا الرد حفز آل حمدان و أتباعهم على الوقوف موقف الغاضب، و التوقف عن مساندة عبد الله المهدي في صراعه مع «آل مهرويه» و لكنه لم يوقفهم عن اتهام آل مهرويه الم ذكورين بدم حمدان و عبدان و تهديدهم بأخذ الثأر، مما اضطر زكرويه إلى مغادرة السواد، و اللجوء إلى بلاد الشام، حيث ظلّ مدة عامين عاد بعدها إلى بلاده ليتولّى القيادة العامة، و ينفذ ما رسمه من مخططات، و كان ولداه يحيى و الحسن قد قاما بالثورة، و اندفعا ليهندا و يدمرا، و يقتلا، و أخيرا : قتل ولده يحيى على أبواب مدينة دمشق، و ابنه الثاني الحسن على أيدي العباسيين.

و بالرجوع إلى سيرة حمدان بن الأشعث يتبين أنه حقق انتصارات باهرة في مجال الدعاية، و قدّم للدعوة الإسماعيلية أجل الخدمات، كإقامه على اتخاذ «كلواذى» و هى إحدى المحلات فى ضواحي بغداد لنشر الأفكار و المبادئ الجريئة ضد الدولة العباسية، أضف إلى ذلك أنه نظم الصفوف، و أعد الكنائس، و الفرق العسكرية، و سلاحها، و دربها على أساليب القتال، و جعلها فى حالة تأهب دائم و أنه بنى دارا للهجرة كما ذكرنا فى «مهما باز» و جعلها قاعدة عسكرية للتعبئة و للتدريب، و إلى جانبها المدرسة الفكرية التي تعلم المستجيبين

##PAGE=155##

و الدعاة، و تؤهلهم للخروج إلى كل مكان للدعاية، كل هذا كان من الأسباب التي حبيته للناس حتى لم يبق أحد فى تلك الديار إلّا هاب جانبه، و حسب له حسابا، بل إن ذكره تخطى الحدود، و أصبح مصدرا للقوة و للرجولة.

أما عبدان، فكان من الشخصيات المثقفة الذين عرفوا بسعة العلم، و الفطنة، و الفهم و الحذق، و الإحاطة بكل شىء حوله، فقد قدم الخدمات، و أصاب النجاح، و ألّف الكتب، و أعطى الدروس حتى اعتبر أنه أحد الذين ساهموا بوضع دستور الدولة القرمطية، و المبادئ الاشتراكية. و من الجدير بالذكر إن عبدان هو الذى أثر فى أبى سعيد الجنابى الزعيم البحرانى الواسع النفوذ، و الذى لعب دورا كبيرا على مسرح السياسة. و تمكن من نقل الدولة القرمطية إلى البحرين، كما يعود الفضل إليه باستقطاب الثرى الكبير «دندان» كما ذكرنا، و زكرويه بن مهرويه.

و عند ما نتحدث عن زكرويه نرى لزاما علينا أن نقول:

أنه ساهم فى العمل فى وقت مبكر من انتسابه للدعوة، و أظهر إخلاصا ممّا جعل حمدان يمنحه الصلاحيات الواسعة، و يوكل إليه أهم المهمات. فقام فيها بالفعل و هو ممتلىء حماسا و لقد انحصرت خدماته للدعوة فى الشمال الغربى من العراق، و فى بادية السماوة و الشام و خاصة بين القبائل العربية التي كانت تعيش على شواطئ نهر الفرات، كبنى عليم، و أسد، و كلب، و ربيعة و العليص .. و غيرهم.

ثم رأى نفسه أهلا لمنصب القيادة، و داخله الحسد و الغيرة من حمدان، و عبدان، فعمد إلى التخلص منهما الواحد بعد الآخر، و عند ما شعر بنقمة الناس عليه، و بالحرب التي أعلنها عليه عبد الله المهدي فى سلمية غادر منطقة السواد، و لجأ إلى إحدى الجهات فى بلاد الشام بعد أن عهد إلى ابنه يحيى بالقيادة .. و يحيى هذا كان يلقب بصاحب الناقة، و هو الذى

قاد معارك الفتك و التدمير و القتل و السبي فى بلاد الشام، و بعد مقتله تسلّم شقيقه الحسن الملقب «بصاحب الخال» أو «الشامة» أو «أبو مهزول» و هذا الأخير جاء إلى سلمية و قصده القبض على عبد الله المهدي، و لكنه لم يجده، ثم قتل.

و بعد مقتله عاد والده إلى الواجهة من جديد، و قاد المعارك العنيفة ضد الدولة العباسية .

##PAGE=156##

الاشتراكية القرمطية

نحن أمام دعوة سرية، عاشت فى كنف العلم و المعرفة، و قامت فى جهة منعزلة من بلدان العالم الإسلامى فى فترة من فترات الفوضى و القلق و عدم الاستقرار، فاستنبطت الأفكار، و ابتدعت التعاليم، و سنّت المبادئ و القوانين، ثم أذاعتها فى الأقطار، و غرستها فى العقول حتى عمّت كل أجزاء العالم الإسلامى الشاسع.

نحن أمام عقول مبدعة نشيطة، خططت و عملت فى ظل مبدأ يهدف إلى خير الإنسانية، و بناء مجتمع أفضل . فنظمت الأمور، و رتبت المناهج، و دفعت بدعاتها العباقرية إلى كل مكان يحملون الأفكار، و يفتحون الفتوحات، و يحدثون الانقلابات فى المجتمعات البدائية زارعين بذور العلم، و الحضارة، و الفلسفة حاثين على التحرر، داعين إلى ثورة تطيح بالفساد، و تجرف السيطرة و الطغيان.

نحن أمام حركة ثورية أممية بالغت فى السرية، ثم ظهرت فجأة على المسرح بعد أن تمكنت من تحرير عقول كثيرة من أسرها، و الخروج بها من مكانها، إلى التوسع، و التحرر، و الانطلاق فى دروب الحياة.

نحن إمام مجموعة من الناس نالت قدرا كبيرا من الثقافة، و اكتوت بنار الظلم و الإرهاب، و ا لتحكم الجائر، فراحت تضع كل القوى التى تمتلكها لتغيير أساليب الحكم القائمة، و تقويض دعائم الدولة الجاثمة ... إنها الدعوة القرمطية، التى غمرتها السرية بأمواجها، و لفّها الغموض بردائه حتى التبس أمرها على الباحثين و المؤرخين، فوقفوا مشدوهين، و خانهم الحظ فما استطاعوا إعطاء فكرة صحيحة عن واقعها، و أهدافها، و ماضيها، و حاضرها.

و لقد قلت فى أكثر من مناسبة أن الإسماعيلية التى استأثرت باهتمام العلماء و الناس ستبقى كما كانت تعيش فى عالم المجهول، حتى يقوم فينا من يتوفر على دراسة تاريخها، و فلسفتها دراسة وافية تنزهت عن التعصب و الحقد، و لا ريب فى أن يومها العتيد هذا لم يعد بعيدا.

و نحن عند ما نضع أماننا الانتصارات الرائعة التى حققها هذا النظام الفكرى فى مجال نشر تعاليمه، و مبادئه، لا يسعنا إلّا العودة إلى مراجعنا و معرفتنا.

كانت هذه التعاليم تعطى للمستجيبين على شكل خطوات تتدرج من

##PAGE=157##

المبادئ البسيطة حتى تصل بالطالب إلى عالم فسيح من الفلسفة ..

وكان المستجيب لا يعرف شيئا عن الدرجات التي تلى درجته، وهكذا بالنسبة لأصحاب الرتب الأخرى فى الدعوة، فكان همّ كل واحد من الدعاة أن يؤدى دوره و يقدم الخدمات، و يبذل كل ما فى وسعه ليرقى إلى مرتبة أعلى، و كان العديد من الدعاة أيضا لا يعرفون شيئا عن رفقاتهم الذين انتظموا فى سلك الدعوة .. هذا .. و يشهد لهم الأعداء قبل الأصدقاء أنهم برعوا منذ نشأتهم بتنظيم المراكز، و الخلايا، و الحلقات تنظيما بارعا، و درسوا الفلسفة، و العلوم، و الآداب، و فقه الأديان، ممّا مكنهم من السيطرة على النوادى الأدبية، و المجتمعات الدينية، و بالإضافة إلى كل ذلك كانوا أشبه بالمخبرين الذين تنحصر مهمتهم بنقل أسرار الدولة الحاكمة، و حكام الأقاليم، و أخبار المجتمعات الأخرى إلى مركز دعوتهم الرئيسى ليصار إلى دراستها، و استغلال خيرها، و شرها لمصلحتهم . أما مبدأ التعاون - و الإخاء، و الصدق .. فكل هذا كان قائما، و معززا بأوامر مشددة، فالفرد عندهم كان مرتبطا بالمجموعة بوشائج قوية بحيث يرى هذا الفرد ان حياته و وجوده لا يتمان إلا فى التماسك، و التعاون مع الجماعة التى يرتبط بها، و هذا الارتباط المنبثق من الإيمان، و نكران الذات، فرضته الأوامر الإمامية العليا التى كانت تقول: بأن الجماعة تتكون من أفراد مختلفى المشارب و النزعات، و فى هذه الحالة تؤلف بينهم العقيدة التى آمنوا بها، و كرسوا حياتهم للدفاع عنها.

لهذا فإن مبادئهم السياسية و الإجتماعية ارتبطت بآرائهم الأدبية و الفلسفية ارتباطا جعلهم كأسرة واحدة، و كنفس واحدة، و لقد ظهرت عبقرية المسؤولين أو القياديين للحركة فى تطبيق هذه الأنظمة الحياتية، فكانوا يسهرون على تنفيذها، و يتعبون فى سبيل تطبيقها مدللين على قوة إرادتهم، و تحملهم المكاره، و المشقات فى سبيل هدفهم المنشود . و أكثر من ذلك، فإن الفرد من هذه الجماعة كان يعتقد بإخلاص من هم أعلى منه رتبة، و يرى أن طاعتهم واجبة، و من هنا توثقت عرى المحبة و الطاعة بين الكبير و الصغير لدرجة إن هذه الجماعة أصبحت مصدرا يفرض احترامه حتى على أعدائه . و مما يجب أن نشير إليه أن هذا التنظيم روعى فيه الدقة و المطابقة لمستوى الأذهان، و الإستعداد النفسى . فالجميع كانوا يعطون أصول

##PAGE=158##

المبادئ، و الخاصة و المستتيرون الأسرار، و المراتب العليا، و كانت الوديعه لديهم لا تلقى إلّا لحفاظ الودائع، و الأسرار لا تمنح. إلا لأهلها و مستحقيها، أما المستضعفون فكانوا يحسبون فى عداد المهملين، و المتخلفين.

لقد لعبت الحركة الإسماعيلية دورا مهما فى تاريخ البشرية، و أثّرت فيه تأثيرا بعيد المدى، فكانت فى كافة أدوارها، و مراحل وجودها أداة هائلة من أدوات البناء، و التغيير و الإصلاح، و إزالة المساوىء العالقة بالمجتمع، و تفكيك المفاسد التى تعطل مسيرة الإنسان، و الحضارة للإسماعيلية سحر خاص، و جاذبية غريبة كانت تهفو إليها نفوس الطبقات المتفكّنة فتستهويهم، و تستأثر بنفوسهم، و تبلغ منهم مبلغا يدفعهم إلى المخاطرة، و المجازفة فى سبيل مبدأ آمنوا به و كرسوا حياتهم لأجله.

و الحركة الإسماعيلية التى نتكلم عنها، لم يكن لها نظير فى اجتذاب الناس من مختلفى الألوان، و الاتجاهات فكان فيها المثاليون المخلصون، و الأبطال الأفاذاذ و العلماء، و الأمراء الفلاسفة، و الفدائيون، و الأغرار المندفعون، و المغامرون، و جميع هؤلاء شبا على ضروب من الشجاعة و الإقدام كل فى مجال اختصاصه، و أتوا بأمثلة رائعة لإنكار الذات، و انضوا فى حركة أقل ما يقال عنها، أنها جديدة بتنظيمها، و أساليب دعائها الذين تخصصوا بدراسة نفسيات الشعوب و عرفوا مصادر التذمر، و الرضى لديهم، و كل ما يحوط بهم من خير و شر، و من سعادة و شقاء.

إن الاشتراكية الصحيحة البناءة أو المساواة في أية دولة، أو مجتمع، لا يمكن أن تنمو و تزدهر إلا في ظل الحرية و الحكم الصالح الذى يقوم على دعائم من الشورى و العدالة . فالاشتراكية، و الحرية، صنوان لا يفترقان، و متى افترقنا وقع الانحراف، و سادت الفوضى، و عمّ الفساد و المظالم، و تحولت القاعدة الاشتراكية عندئذ إلى منظمة للسلب، و النهب، و الإثراء غير المشروع، و الاستبداد، و التحكم الفردى من قبل أفراد مغمورين حاقدين على المجتمع، و مجردين من القيم، و الأخلاق، و كل ما يمت للوطن و للأمة بصلة.

و نحن قد عرفنا الإسلام و أنه ساوى بين الناس، و لم يفضل أحدا على

##PAGE=159##

الآخر، و اعتبر الموارد الطبيعية الأساسية كالأرض، و الماء ملكا للأمة، و أنكر الاستغلال، و منع الاحتكار، و لا سيما السلع الغذائية، و حرّم الربا، كما حرّم تخزين الذهب، و الفضة و المال، و نادى بالعدالة، و الحرية، و الأخوة الإنسان ية دون أن يفرق بين إنسان و آخر إلا في مدى تحقيق القيم الرفيعة، و العلم، و الأخلاق، و الخدمات، و حث على الاجتهاد و العمل المنتج، و التضامن، و التحاب، و التقدم، و اعتبر عمارة الدنيا سبيلا لعمارة الآخرة . فمن هنا انطلقت الاشتراكية التى نادى بها، و حمل لواءها الإسماعيليون، و من الثابت، و الأكيد أن واضعى أسسها و تعاليمها هم «الأئمة المستورون» الذين عاشوا فى سلمية، عند ما أرادوا وضع دستور لدولتهم المرتقبة التى كانوا يبشرون بقرب ظهورها، و لكن هؤلاء الأئمة لم ينفذوا قراراتهم لعلل و أسباب ذكرنا بعضها، أو لأن ثمرتها لم تنتج بعد، فجاء أتباعهم «القرامطة» الذين خرجوا عليهم، فوضعوا موضع التنفيذ فى مجتمعهم، و حملوها إلى المناطق الأخرى، و لكن فى ظل الرماح و الحراب، و تحت وطأة القتل و التدمير و العبث، فلم تلبث أن انهارت دولتهم الارتجالية المبكرة تاركة وراءها أسوأ الذكريات.

إن الاشتراكية البناءة لا يمكن أن تستقر فى الأفكار إلا إذا قام على رعايتها و تنفيذ تعاليمها علماء مخلصون، و فلاسفة حكماء ذوو ضمير و وجدان ... فنحن مع الاشتراكية الصحيحة التى تدعو إلى الخير و الصلاح و لسنا مع الاشتراكية الملوطة بالحق و الدماء، و الا انتقام، و سلب ثروات الناس على أيدي الرعاع، و الدخلاء الذين نشأوا فى ظل الحق، و الجهل، و الضغينة.

كنا ذكرنا أن مدينة سلمية كانت القاعدة الأولى التى توزع الأفكار و التعاليم، أو المصدر الذى يصدر الأوامر و القوانين، و عند ما تحولت سواد الكوفة إلى عاصمة ثانية، أو عند ما انفردت و استقلت وحدها بالتنفيذ، و صياغة القوانين، و كانت الدولة العباسية فى تلك الفترة تخوض حربا ضارية ضد ثورة الزنج. و أحسب أن الثورتين القرمطية و الزنجية تعاونتا لتغيير وجه التاريخ الإسلامى، و لكن ذلك كان عسيرا لأن الحركة القرمطية كانت تختلف عن ثورة الزنج بالأفكار و الأهداف فالقرامطة أقاموا ثورتهم على أسس فكرية، بينما الحركة الزنجية قامت من دون أهداف أو أبعاد.

##PAGE=160##

كانت تلك الأفكار جديدة على الافهام فى تلك الفترة، و لكن تطبيقها كان ضروريا بسبب التضارب بين مصالح الأفراد ... بين الغنى و الفقر .. بين القوى بثروته، و الضعيف بحرمانه، و هذا التضاد لم يلبث أن تحول إلى نضال بين القبائل و الطوائف، حينما أخذت الطبقة الحاكمة حفاظا على ثروتها، و مصالحها تلجأ إلى قوتها الاقتصادية، للدفاع عن وجودها و

مكانتها، و عند ما أصبحت الملكية الشخصية أساسا للسلطة السياسية، و استئثار الطبقة المالكة بالحكم و التشريع، و حشد القوى المسلحة لفرض إرادتها على المجتمع، و إنشاء نظام اجتماعي يخدم مصالح الطبقة الحاكمة، و هكذا تصبح الدولة سلاحا ماضيا في يدها تشهره دفاعا عن سيادتها، و وجودها ضد الطبقات المحكومة المستعبدة، و المسترقة.

و ليس بالجديد أن تصبح الملكية في ذلك العهد ممثلة للارستوقراطية و لملاكي الأرض، و استخدام الدولة، و جعلها أداة لتعزيز سيادتها بإرهاق القوى المنتجة، و اخضاعها لمشيئتها. أما طبقة أصحاب الأموال، فإنها أخذت تتقوى و تنمو على كر العصور، و تناوىء الملكية و الارستوقراطية، و تنتزع زمام القوى الاقتصادية شيئا فشيئا، فلما اشتد ساعدها مالت على الملكية المضحلة، فحطمتها، و أبادت نظم الاقطاع، و استولت على مقاليد الأمور، و استأثرت كسابقتها بالسلطان السياسي و الاقتصادي، و استخدمت قوى الدولة لفرض سيطرتها على الطبقات العاملة.

كان النظام الإسماعيلي الاقتصادي في تلك الآونة متجاوبا مع رغبات، و تطلعات العمال و الكادحين، و الطبقة الفقيرة، فالقائمون عليه يرون في النظام الرأسمالي المتحكم بالمجتمع نظام احتكار و استئثار، و تحكم طبقة قليلة بأغلبية محرومة، و هذا ما عاهدوا اللع على محاربتة، و محوه من الوجود، فجددوا الطبقة العاملة المحرومة، و الفلاحين، و أصحاب الحرف، و غرسوا في أفكارهم ضرورة تغيير النظم السائدة، و تمليك الأرض إلى الطبقة الفقيرة، و إحلالها محل الطبقات الغنية، و اقتطاف ثمار الأرض، و إيجاد نوع من المساواة الاقتصادية بين جميع الأفراد بلا تمييز في القومية، أو الجنس، أو السن، و سحق استغلال الفرد، أو الجماعة، أو الدولة للفرد، و تحقيق الحرية، و العدالة، و المساواة بين جميع المواطنين دائما، و أخذوا بعين الاعتبار:

##PAGE=161##

أن العامل المأجور في ذلك المجتمع كان يتقاضى أجورا ضئيلة تجعله تحت رحمة مخدمه سواء كان فردا أم جماعة، و مهما قلت ساعات العمل، أو تضاعفت مواد الربح، فكان لا بد من تطبيق فكرة توحيد ملكية الأرض، أى إلغاء الملكية الفردية بما فيها من كنوز و أرزاق و تدخل في ذلك الأبنية العامة، و المصانع، و آلات الإنتاج، لأن الاستعباد السياسي، و الأخلاقي، و الفكرى الذى ساد الشعوب في ذلك العصر من عمر الدولة العباسية، كان أساسه نظام الملكية الفردية و منح الحق لكل إنسان بلا تمييز في القومية أو الجنس أن يستخدم كل الوسائل الإنتاجية سواء العلمية أو الجنس أن يستخدم كل الوسائل الإنتاجية سواء العلمية أو الفنية، و أن ينتفع بجميع الأنظمة الاجتماعية، مع المشاركة بكل وسائل أعمال المجتمع.

و من المبادئ التى أخذ بها، و طبقها النظام الإسماعيلي : المساواة الفعلية بالحقوق و الواجبات، و الاشتراكية في الممتلكات، و تقليل التفاوت في الثروات . و إنل نراهم يطبقون القواعد التى عبّر عنها «إخوان الصفاء» في رسائلهم، فمن كان منهم فقيرا أسعفوه، و من كان عاريا ألبسوه، و من كان جائعا أطعموه، و بهذا جذبوا إليهم الطبقات الفقيرة، و خاصة عند ما وزعوا عليهم الملابس، و الأدوية، و الأقوات، كما أنهم احتكروا بعض مصادر الثروة الفردية لاعتقادهم أنها أصل الشورى، و الأمراض الاجتماعية، و استولوا على بعض وسائل الإنتاج، و وزعوها توزيعا عادلا على الأفراد، و احتكروا الحوانيت و المستودعات و الأفران و الحمامات، و أداروها على حساب الدولة، و أفسحوا المجال للمزارعين و للحرفيين، و ل عاملين في مجال الأرض و الصناعة، و أرادوهم أن يكونوا هم المصدر الوحيد لكل الخيرات المادية و الروحية في كل نهضة اقتصادية. فعليهم أن يشاركوا و يساهموا في بناء أسس الحضارة، و تركيز دعائم القيم الإنسانية الرفيعة . أما إذا كان قد

حصل انحراف، أو طراً على النفوس مرض عضال، فهذه سنة الكون، والإنسان منذ أن وجد على سطح هذا الكوكب عرضة للأخطاء، وكثيرا ما تجنى الاجتهادات، على التطلعات، والآمال.

جاء في بعض المصادر التاريخية أن الخلفاء الفاطميين كانوا إذا سخطوا على أحد الأغنياء، و شعروا بمعارضته لحكمهم، عمدوا إلى نزع ملكيته، و ضم أراضيه و ممتلكاته إلى الدولة . و كانت فكرة مقاومة

##PAGE=162##

العصية القومية، و الدفاع عن الإخاء لا بين المسلمين وحدهم، بل بينهم و بين الشعوب و القبائل، و الأمم على اختلاف قومياتها و طبقاتها و أديانها .. من مبادئ الفاطميين الذين وجهوا اهتمام هم في بدء حياتهم إلى جعل أعضاء دولتهم المختلفى النزعات و الجنسيات كتلة واحدة و لم يتوانوا عن تعميم أفكارهم على كل الشعوب الخاضعة لهم على أساس احترام جميع الأديان الأخرى، و السماح لها بممارسة طقوسها بحرية كما أنهم بشروا بالاشتراكية، و جعلوها قاعدة العمل فى المجتمع، و لكن بأسلوب إنسانى، و وفق الاقتناع العقلى، دون اللجوء إلى العنف و الإكراه . و عند ما تسلم القرامطة زمام الأمور طبقوا الاشتراكية بأساليبهم الخاصة، فدفعوا للصناع ثمن آلاتهم، و أعانواهم على القيام بالعمل، و أصلحوا المنازل و المزارع و المرافق العامة بواسطة عمال الدولة من غير أن يتقاضوا أية أجور أو تعويضات، و طحنوا القمح و الشعير فى مطاحن الدولة دون أن يكلفوا أحدا من الأفراد بدفع أى مبلغ . و قد ذكر هذا الرحالة الفيلسوف «ناصر خسرو فى كتابه : سفرنامه».

إن عملية الإنتاج لدى القرامطة لم تكن مقتصرة على عمل الإنسان فى الطبيعة، بل تقتضى أن يعتمد على غيره من الأفراد، فلا ينتج الأفراد إلّا إذا عملوا معا و تبادلوا نشاطهم فى طرق معينة، و هم من أجل الإنتاج يتعاملون، و يرتبطون، و لا تؤثر جهودهم فى الطبيعة، أو بلغة أصح لا ينتجون إلّا بعقد هذه الروابط الاجتماعية بين المن تجين، و الظروف التى يتبادلون فيها نشاطهم، و يقتسمون ثمره جهودهم، و قد تختلف باختلاف الوسائل المادية، و تطورها، و تقدمها، و ليس المال سوى علاقة اجتماعية للإنتاج. لأن وسائل العيش، و آلات العمل و المواد الأولية التى يتكوّن فيها رأس المال لم تخلقها أو تنميتها إلّا ظروفاً و علاقات اجتماعية معينة، ثم بعد ذلك تستخدم للإنتاج من جديد تحت تأثير ظروف، و علاقات اجتماعية جديدة، و هذه الصفة الاجتماعية المعنية هى التى تطبع الإنتاج بطابع رأس المال، و فوق ذلك فإن جميع العناصر المنتجة التى يتكوّن منها رأس المال ليست إلّا حاجات تع يش و تنمو بالتبادل، و التعاون مع قوة اجتماعية مستقلة أخرى هى العمل، و كلتا القوتين لا تنتج إحداها دون الأخرى، و لكن مما لا ريب فيه أنهما ليستا على درجة واحدة من التكافؤ و القوة ...

ذلك أن العامل يأخذ من صاحب المال ما يقيم أوده مقابل عمله، و لكن صاحب المال يغنم نظير ذلك قوة المعامل المنتجة التى لا تقتصر على سد ما ليستهلكه، بل تسبغ إلى جانب ذلك على العمل المتكدس قيمة مضاعفة.

##PAGE=163##

فاللّاح الذى يعمل طوال يومه فى الحقول لقاء دراهم معدودة ينتج للمالك أضعاف هذه القيمة، و بذلك يستهلك المالك أجر العمل بطريقة نافعة مثمرة لأنه يستطيع أن يشتري عمل العامل بما يوازى الضعف أحيانا . فى حين أن العامل يشتري بما ينقده من الأجر الزهيد وسائل للعيش يستهلكها عاجلا، و لا يستطيع الحصول على غيرها إلّا إذا قدم عمله للسيد ثانية.

و العامل الذى يعمل فى مصنع للقطن مثلا، لا يق تصر عمله على إنتاج المصنوعات القطنية و حسب بل و يخلق المال فى الوقت نفسه، أو بعبارة أخرى يخلق قيما يستلزم عملها من جديد ليخلق مكانها قيما أخرى جديدة . و هكذا يستطيع المال أن يضاعف نفسه بمبادلة العامل المأجور، و استدعائه لمعاونته، و لا يمكن أن يتقدم العامل لمعاونة رأس المال إلّا لمضاعفته، أو بالأحرى إلى دعم القوى التى تعمل على تسخيرها و استغلاله.

و من الثابت أن الرأسماليين فى كل بلد هم أقلية صغيرة، و لكنها تقبض على جميع وسائل الإنتاج، و تسيطر على جميع الطبقات الأخرى، و تمسك بزمام القوى السياسية و العسكرية و التشريعية، فنهوض الكتلة العاملة التى تؤلف أغلبية المجتمع لا يمكن تحقيق فكرتها إلا بهدم النظم السائدة، و إحلال نظم جديدة مكانها . و من الواضح أن القرامطة فى المرحلة الأولى من حياة ثورتهم، أعلنوا عن اشتراكية أممية تقوم على أسس اجتماعية و اقتصادية، و على دعائم فلسفية و سياسية من أهدافها:

القضاء على استغلال الإنسان للإنسان، و نزع الأملاك الأرضية و العقارية الفردية الواسعة، و مصادرة الإيرادات الطائلة الخاصة لمصلحة الدولة، و فرض ضرائب معقولة متدرجة فى الضخامة، و إلغاء قانون الوراثة فى المناصب و القيادات، و مصادرة أملاك العصاة و المجرمين و المهاجرين، و وضع جميع وسائل النقل و المواصلات تحت تصرف الدولة، و زيادة المصانع الوطنية و آلات الإنتاج، و إصلاح الأراضي المجربة و تحسين المزرعة منها، و فرض العمل الإجبارى على جميع الأفراد، و وصل العمل الزراعى منها، و فرض العمل الإجبارى على جميع الأفراد، و وصل لعمل الزراعى بالصناعى، و إقامة نظام حكم شورى قائم على مجلس خاضع للانتخاب الجماعى يحل محل الملكية الوراثية، و نسف نظام الاستئثار، بين الطبقات و التمييز بينها.

و بالإضافة إلى كل ما ذكرناه، فإنهم شكلوا النقابات و الجمعيات بطريقة لا انتخابات، و على أساس الأكثرية عند اتخاذ القرارات، و جعلوها منظمات حرة تعمل لخدمة الدولة و الأمة، فكانوا بذلك أسبق الأمم إلى تطبيق النظريات الاشتراكية الصحيحة.

نهض القرامطة بدعوتهم على أسس فلسفية، و أخلصوا لها أشد الاخلاص، و ذهبوا فى تعزيزها إلى أقصى حد، فتراهم يشهرون الحرب

##PAGE=164##

على كل حكومة تعارض طريقتهم و أسلوبهم فى الحياة، و قلما يذكر التاريخ حركة ثورية ارتفعت قامتها، و تعالى صوتها فى سبيل مبادئها كالحركة القرمطية التى لبث أصحابها يهددون دولتين من أقوى دول العالم الإسلامى زهاء قرن كامل، فكان جيشهم من أقوى الجيوش تنظيما و اندفاعا و إقداما، و لسنا نبالغ إذا قلنا أنهم أشجع جند عرفهم تاريخ الإسلام، و أشدهم جلدا، و بسالة، و مرونة فى القتال و ما ذلك إلّا لأنهم كانوا يدافعون عن عقيدة آمنوا بها، و اعتقدوا بخيرها و صلاحها . أما تسلم بعض المغامرين منهم مركز القيادة، و إقدامهم على ارتكاب جرائم تدمير المدن، و العبث بالديار المقدسة، و سفك دماء الآمنين، و استباحة الأموال، فقد كانت وصمة عار فى جبين حركتهم، و طعنة فى صدر غاياتهم و أهدافهم .

و مهما تكن الظواهر التي لا بد منها لكل الحركات الثورية الفكرية، فإنها لا تغفر لهم هذه المواقف العنيفة، و لا تهوّن شأن أعمالهم المنافية للأخلاق، و لمبادئ الدين، فتورثهم على المجتمع اعتبارت انفجارا عسكريا مزق وحدته، و هزّ أساسه من الأعماق، و صدّع سلطانه السياسي، و أصابه في روحه، و أدى إلى تفككه، و إشاعة القلق في جوانبه، و المستنكرون لهذه الأساليب الجائرة، لا يسعهم إلا الوقوف مليا أمام واقع يقلل من الحماسة و الأسى و النعمة، إذ قلما نجد في المجتمع الإسلامي مذهباً أو دعوة إلى تغيير نظم دينية أو سياسية أو اجتماعية إلا استندت إلى القوة و العنف و حدّ السيف.

و هذه حجة من الحجج التي يدافع بها عنهم المؤيدون و المعجبون.

كانت الحركة القرمطية تعبيراً عن كل ما ذكرناه، و وثبة من أعظم و ثبات الهدم و الإصلاح في عصور الإسلام المبكرة، و هي ترجع فيما ترجع إلى نشاط هذه القوات الخفية و براعتها في استغلال سخط الجماعات، و دفعها إلى الهدم و التجديد، و تغيير الحياة العامة في جميع مظاهرها. فحمدان بن الأشعث «قرمط» نفذ ما كان قد تلقاه في مدرسة الدعوة في سلمية، و لم يسمع فيما بعد نصائح الأئمة بضرورة التريث و الانتظار، بل أخذ يعمل جاهدا دون توقف . و كان أن اتبع نظاما للضرائب المختلفة المتدرجة التي تنتهي بوضع مالية جماعية، و توزيعها توزيعاً عادلاً على جميع الأفراد دونما استثناء . و في هذه السياسة الاشتراكية، تكوّنت جماعة متحمسة مستميتة ليس فيها

##PAGE=165##

فقير، و أعدّها إعداداً تاماً لقتال عنيف ضد العباسيين، فاشتري السلاح الكثير بالمال الذي جمعه من الإنتاج، و بنى داراً للهجرة أو عاصمة لدولته، و أعدّها لتضارع المدن الكبرى، و أقام مسؤولاً في كل قرية .. أي رجلاً مختاراً من ثقاتها تجمع عنده أموال القرية من بقر و غنم، و حلى، و متاع، و كان يكسو عاريهم، و ينفق على سائرهم ما يكفيهم بحيث لا يبقى بينهم فقير و لا محتاج و لا ضعيف، و أخذ كل رجل منهم بالانكماش، و المكسب جهده، مما يتيح له الفضل في رتبته.

و جمعت المرأة كسبها من الغزل، و الصبي أمّن أجره من نظارته للبساتين، و للأغلال، و لم يكن الفرد يملك إلا سيفه و فرسه. و هكذا كوّن حمدان جماعة متحدة في الشعور و الآمال، فلا همّ للفرد منها إلّا عمل السيف و الاستعداد لمعركة التحرير و الإصلاح، و قد اشتركت فيها الجماعات العاملة و الفقيرة من النبطيين و فقراء السواد و الأعراب، و مما قرّبه إلى قلوب العامة إلغاء الملكية الفردية، و إعطاء كل فرد حاجته، و جعل مركزه الاجتماعي متناسباً مع خدماته، مما دفع بالآلاف من الناس إلى الانضواء تحت لواء حركته القرمطية، و خاصة بعد أن أسس مصرفاً لتسليف الزراع و الصناعات عند الحاجة، و بعد أن منع الربا، و جشع المرابين، و بعد أن احتكر التجارة الخارجية، و فتح أسواقاً لها في الخارج، و نظم شؤون التصدير و الاستيراد، و ضرب نقوداً من الرصاص لا تصرف خارج منطقته، و ذلك حتى لا تتسرب الثروة العامة إلى الخارج، مضافاً إلى كل ذلك انشاء المزارع النموذجية، و إدارتها من قبل الدولة.

أمّا أبو سعيد الجنّابي، الزعيم القرمطي في البحرين، فعلى غرار حمدان مشى فكان المثل الحي لتمثيل الاشتراكية، عند ما وضع نظاماً مالياً مناسباً للحالة العامة . و استلم كل محاصيل البلد من حنطة و شعير و فاكهة و وزعها بالتساوي، و أصلح الزراعة، و أنفق على الرعايا، و سخرهم لخدمة الأمة، و عين لكل فرد العمل الذي يجب عليه أن يزاوله، و نصب الأمناء، و أقام العرفاء، حتى أن الشاء كانت تذبح، و يسلم لحمها إلى العرفاء ليفرقوه على المستحقين، و يدفع الرأس و الأكارع و

الكرش إلى العبيد و الإماء، و يجزّ صوف الغنم، فيعطى لمن يغزله، ثم يدفع به إلى من ينسجه عباات و أكسية و غرائر و جوالق و تقتل منه الحبال، و يسلمّ الجلد إلى الدباغ، فإذا خرج من

##PAGE=166##

عنده سلم إلى خراز القرب و الروايا، أو إلى الإسكافي إن كان يصلح للنعال، و كل هذا يعود إلى خزانة الدولة.

إن التضحية في سبيل الدولة، كان المبدأ الذي اعتنقه الفرد عن يقين و إيمان فالقراطة لم يتوصلوا إلى تأسيس مجتمعهم الاشتراكي إلّا بعد أن أعطوا الأرض إلى من يحسن حرثها و فلاحتها، و بعد أن منعوا استخدام العبيد و الإماء، و بنوا المدارس لتعليم الأطفال العلوم، و ركوب الخيل، و أعمال الطعن، و الفروسيّة، بالإضافة إلى أنهم كانوا يقبضون كل أموال البلاد و الثمار و الحاصلات من حنطة و شعير، و يوزعونها بالتساوى، و هـ كذا بالنسبة للإبل و الغنم و المواشي، فكانوا يسرحون فيها رعاة على حساب الدولة، و يوزعون ألبانها و صوفها و لحمها على الناس بالتساوى أيضاً، و في هذا لم يبق في مجتمعهم غنى جشع و لا محتكر و لا فقير و لا عاطل و كل هذا كان يجري بسريّة تامّة و الخلفاء العباسيون قابعون في قصورهم لا شغل لهم سوى الإقبال على اللذات و التمتع بالسراري و رعاية الأقرباء و الأصهار و الحاشية.

و روى ابن حوقل أنه زار البحرين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد، و أنه رأى أشياء غريبة و جديدة و منها: النظام الاجتماعي للقراطة، و قد أبدى ملاحظات مهمة عن بنائها السياسي، فقال:

إن دولة القراطة كانت من نوع الجمهورية، فحاكمها غير مستبد بأي حال من الأحوال، بل هو رئيس جماعة متساوية في الحقوق و الواجبات، يعاونه في الحكم مجلس مؤلف من أتباعه المقربين و ممن تربطه بهم رابطة العقيدة و النسب.

و يذكر ابن حوقل أسماء بعض الأفراد و وظائفهم، ثم يتكلم عن الضرائب و المكوس التي تتكوّن منها موارد الدولة، و عن مصروفات هذه الدولة، و يؤكد أخيراً، أن دخل الدولة يومئذ قد زاد على المليون دينار ذهب.

و كتب ناصر خسرو في كتابه «سفرنامه» بعد أن قام بزيارة البحرين خلال القرن الحادي عشر للميلاد، و كان عائداً من مصر إلى بلاد فارس بأنه كان في الإحساء وحدها أكثر من عشرين ألف محارب.

و لما توفي أبو سعيد الجنّابي انتقلت الحكومة إلى مجلس شوري مؤلف

##PAGE=167##

من ستة دعاء كانوا يحكمون بالعدل و الانصاف ... و يضيف على ذلك فيقول:

كان لهذه الحكومة ثلاثون ألف عبد زنجي يشتغلون بالزراعة و فلاحه البساتين، و ليس عندهم ضرائب و لا أعشار، و إذا افتقر أحدهم أو استدان أعانه الآخرون ليستعيد وضعه، و ليس للدائن غير رأس ماله و كل غريب ينزل المدينة، و له صناعة يعطى ما يكفيه من المال ليشتري ما يلزم لصناعته من المواد و الآلات، و هناك بيوت معدة لسكنى الفقراء على حساب المجموع.

و قد شاهد أيضا طواحين تملكها الدولة، و تدير شؤونها، و هذه الطواحين مهمتها طحن الحبوب للرعية مجانا.

إن هذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن دولة القرامطة قامت على أسس فلسفية و مبادئ اشتراكية نفذها، و رعاها دعاء ذكرنا أسماءهم. و من الواضح أنهم كانوا ينقسمون إلى فرق ثلاث، و إلى مراحل ثلاث، و إلى أدوار ثلاثة.

فالفرقة الأولى: هم قرامطة سواد الكوفة، أو ما يسمّى قرامطة الشمال، و أبرز دعائهم : حمدان، و عبدان، و دندان، و آل مهرويه.

و الفرقة الثانية: هم قرامطة البحرين، أو الخليج الفارسي الغربي و دعائهم: آل الجنابي.

و الفرقة الثالثة: هم قرامطة القطيف، و جنوبى البصرة و دعائهم هم:

أبو حاتم البوراني، و أبو الفوارس، و كان هذا الأخير من أقوى الدعاء الذين أنجبتهم القرامطة فى جميع أدوارها، و فى مناقشته مع الخليفة العباسى المعتضد تتجلى جرأته وسعة اطلاعه، و إيمانه المطلق بالعقيدة التى اعتنقها، فقد جاء فى كتاب «رتبة الفكرة» للمنصوري (الجزء الخامس - ص ١٢٨).

إنه اجتمع مرة إلى الخليفة العباسى المعتضد الذى قال له : «هل صحيح ما تزعمون بأن روح الله تعالى، و أرواح أنبيائه تحل فى أجسادكم، و تعصمكم من الزلل و توفقكم لصالح العمل؟» فأجابه:

«يا هذا ... إن حلت روح إبليس فىنا فما ينفعك، فلا تسل عمّا لا ينفعك، و سل عمّا يخصك »، فقال المعتضد : «و ما يخصنى؟» فأجابه أبو الفوارس:

«إن رسول الله مات، و أبوكم العباس حى، فلم يطلب الخلافة، و لم يبايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر و هو يرى موضع

##PAGE=168##

العباس فلا يوصى إليه و لا أدخلهم فيه، فيماذا تستحقون اسم الخلافة الآن و قد اتفق جميع الصحابة على دفع جدكم عنها».

و قبل أن نصل إلى نهاية المطاف نقول: إن مجتمع القرامطة كان يتألف من أربع طبقات:

الأولى: و تشمل الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة و الثلاثين، و هؤلاء يعرفون بصفاء جوهر نفوسهم، و جودة القبول، و سرعة التصور، و يطلق إخوان الصفاء على هذه المجموعة فى رسائلهم اسم «الإخوان الأبرار الرحماء».

و الثانية: و تشمل من هم بين الثلاثين و الأربعين، فهؤلاء وصلوا إلى مرتبة الرؤساء ذوى السياسات، و تنحصر مهمتهم بمراعاة الإخوان، و تعهدهم، و إظهار العطف عليهم، و مساعدتهم و اسمهم «الإخوان الأخيار الفضلاء».

و الثالثة: و تشمل من كانوا بين الأربعين و الخمسين، و هؤلاء هم الذين عرفوا الناموس الإلهي معرفة مطابقة لدرجتهم، و هم أصحاب الامر و النهي، و نصر الدعوة، و دفع المعاندين، ممن يظهرون خلافهم، و عداوتهم للفكرة.

و الرابعة: و هي الرتبة الأعلى، و تنحصر بمن يزيد عمرهم على الخمسين، فمن يصل إلى هذه المرحلة يكون فوق الناموس و الطبيعة، و في درجة الكشف، و يطلق عليهم اسم «المعلمين» و «الحجج» و «المقربين».

و لا بد من التساؤل: هل ابتدع الإسماعيليون هذه الأفكار من عقولهم؟ أم أنهم تأثروا بفكرة فلسفية معينة، أو اقتبسوها من نظام آخر؟ و للجواب على هذا السؤال، نقول إن الأفكار التي بشروا بها، و نفذوها هي من وضع الأئمة المستورين الذين عاشوا في مدينة سلمية، و هي أفكار اقتضتها حاجات مجتمعتهم و دعوتهم السرية، و إن الذين تقبلوها كانوا من الذين تميزوا بالذكاء و العبقرية، و سرعة التصور، و الادراك للمعاني البعيدة، فكان لآرائهم القاضية بالتححرر من ربة المادة أكبر الأثر في تعهد الفضائل و تنميتها و إشاعة روح الفلسفة و الحكمة و السمو بالنفس.

ذكرنا أن حمدان بن الأشعث «قرمط» كان مخلصا لبيت الدعوة الإسماعيلي الرئيسي في سلمية في البداية، ينفذ الأوامر، و يحرص على

##PAGE=169##

الطاعة، و يجاهد في سبيل ازدهار الدعوة. على الرغم من أنه كان ثوريا متحمسا، و مقاتلا عنيدا، يمهّد لإعلان الثورة المسلحة على العباسيين متخطيا أوامر الأئمة التي كانت توصي بالترث و الانتظار، و الاستعداد بهدوء و سرية تامة، ثم جاء عبد الله المهدي إلى مركز القيادة و أعلن عدم موافقته على أي اجراء عسكري، و أثر التريث، و عدم الأخذ بالأمور بالشدّة خوفا من تصدع الصفوف. و في تلك الفترة قامت من جهة ثانية معارضة آل مهرويه لحمدان، و اتسع نطاقها، و اشتدّ التطاحن على الزعامة، و استمرّ فترة طويلة، فآل مهرويه كانوا يهدفون إلى إبعاد «حمدان» و أتباعه عن مركز القيادة، و لما لم يستطيعوا زعزعة قتله في ظروف غامضة، و قتلوا صهره عبدان من بعده، و عند ما قام أحمد بن حمدان محاولا التصدي للمتآمرين، و أخذ الثأر، ظنّ أن عبد الله المهدي سيد عمه و يؤثّر، فوجّه إليه طلبا يلتصق فيه منه تعيينه مكان والده، و لكن الجواب جاء قاسيا و رافضا طلبه، أضعفه، و جعل شعبية آل مهرويه تزداد رسوخا و قوة بين الناس. و لو أن عبد الله المهدي عينه في مركز أبيه لكان أبقى على نوع من التوازن بين الفريقين، و ربما كان تغير الوضع العام للقرامطة.

و نتيجة للتهديد و الضغط، اضطر زكرويه بن مهرويه إلى الاعتزال، و يقال إنه لجأ إلى إحدى قرى بلاد الشام، حيث ظل فيها ما يقارب العامين، و كان قبل مغادرته قد أوصى لابنه يحيى الناقعة بالزعامة.

فألف جيشا من قبائل بني كلب، و قشير، و عقيل، و العجلان، و العليص و موالبهم و انضمّ إليه العديد من قرامطة حلب، و حماه، و معرة النعمان، و ح مص، و دمشق، فبايعوه، و انضوا تحت زعامته. أمّا قبائل بني النصار، و مالک، و معرض، و الهانجين، و الباوي، و فخذاش، و هذيل، و زياد، و عليم، فلم يستجيبوا له، و ظلوا على ولائهم لبيت الدعوة في سلمية.

هذه الاستعدادات، و الحشود وصلت إلى أسماع شبل الديلمي مولى الخليفة المعتضد العباسي في ديار الشام، فكتب إلى الخليفة يعلمه بجلية الأمر، فجاء الرد بتجنيد القوى للقضاء على الحركة في مهدها، و بالفعل قصدهم «شبل» و التقى بهم في موقع الرصافة على مقربة من الفرات، و لكنه لم يلبث أن دحر منذ الجولة الأولى، و أيدت أكثر قواته.

بعد هذا الانتصار الساحق اندفع القرامطة نحو دمشق، و فى طريقهم دمروا القرى، و أحرقوا المدن، و قتلوا الأبرياء و الآمنين، و ما زال هذا دأبهم حتى وصلوا إلى ضواحي دمشق، و كان عليها طنج بن جف، واليا من قبل هرون بن خمارويه بن أحمد بن طولون فخرج على رأس جيشه لمحاربتهم، و لكنهم هزموه فى الجولات الأولى، و قتلوا العديد من أصحابه، مما اضطره إلى اللجوء لقلعة دمشق، و لكنهم حاصروه، و شددوا عليه الحصار دون أن يتمكنوا من الوصول إليه . و كان يحيى ابن زكرويه يقود المعارك بنفسه ممتطيا ناقته البيضاء، و لهذا سمّوه صاحب الناقة. أما طنج فظل سبعة أشهر محاصرا فى دمشق، حتى مات الكثير من جنده جوعا، إلى أن أرسل إليه ابن طولون من مصر غلامه «بدر الحمami» على رأس قوة كبيرة، فوصل إلى ضواحي دمشق، و لم يلبث أن خاض معركة طاحنة مع القرامطة، و بينما كانت الحرب مستعرة بين الفريقين، خرج «طنج» و جيشه من القلعة، و انضموا إلى بدر، و ظلت المعارك على أشدها حتى تمكن طنج أخيرا من إحراز النصر، فقتل صاحب الناقة، و شردّ جيشه.

هذا الانكسار الذريع الذى منى به القرامطة فى بدء عهدهم العسكرى، و ما نجم عنه من قتل قائدهم يحيى لم يشنهم عن عزمهم، أو يحل دون تنفيذ برنامجهم الطويل، فلم تمض أيام معدودة حتى أعادوا تنظيم جيشهم . و على ضفتى نهر الفرات بايعوا الحسن بن زكرويه شقيق يحيى بالقيادة و كان يعرف «بصاحب الشامة» أو «الخال» أو «أبو مهزول». فاندفع باتجاه دمشق، و عند ما وصل إلى «الرقّة» التقى بالجيش العباسى و ذلك سنة ٢٨٩ هـ. و قد تمكن فى فترة قصيرة من الاحداق به و إبادته و بعد ذلك تابع سيره، و اندفاعه، عبر حلب و حماه و حمص، فاتحا مدمرا مبيدا حتى وصل إلى دمشق، و هناك نازل «طنج» و قتله، ثم دخل دمشق فأعمل السيف فى رقاب أهلها انتقاما منهم لمواقفهم العدائية و انحيازهم إلى الطولونيين.

وصلت أنباء تلك المعارك و الانتصارات، إلى مسامع الخليفة العباسى المكتفى، فأرسل على الفور قائده أبو الأغر السلمى على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف فارس فوافاه القرامطة إلى موقع يعرف «بوادى البطنان» و فى المعركة الأولى انهزم أبو الأغر، و لكن القرامطة تبعوه و ظلوا يعملون السيف فى رقاب جنوده المتقهقرين حتى أتوا على

عامتهم، أما أبو الأغر نفسه فاعتصم بقلعة حلب مع ألف رجل من جيشه، و لم يمكن القرامطة من الوصول إليه فى ذلك الوقت.

بعد هذه المعارك الرهيبة التى سفكت فيها الدماء الغزيرة البريئة عاد الحسن بن زكرويه إلى معرة النعمان ففتحها، و منها توجه إلى حماه فدخلها فاتحا. و هكذا بالنسبة إلى حمص و بعلبك فخبط له على المنابر، و بايعه الناس و بعد ذلك عاد إلى سلمية و هو يحسب أن عبد الله المهدي فيها، و لكنه لم يجده . و كانت سلمية قد وقفت فى وجهه، و أغ لقت أبوابها و أسوارها. و بعد محاولات عديدة لم يتمكن من الدخول إليها. و كان لا بد له من استعمال الخداع سلاحا، فأرسل من حمل إليهم وعده و عهده، و أنه جاء مسالما، فانطلت حيلته على الأهلىين، و فتحوا له الأبواب . و عند ما دخل أعمل السيف فى رقاب الناس دونما استثناء، حتى أنه قتل صبيان الكتاتيب، و الأطفال، و الحيوانات الأليفة، و لم يبق فيها عين تطرف .. و مما تجدر الإشارة إليه أنه جاء إلى قصر «الدعوة» فقتل كل من فيه و كان عددهم /٨٣/ بين شيخ و شاب و امرأة و طفل.

و من بينهم شقيق عبد الله «أبو محمد» و كان مريضا، و بعد أن فرغ من إبادة الأسرة الفاطمية، انتقل إلى قصر العباسيين، فأعمل فيهم السيف حتى أبادهم عن بكرة أبيهم، و ذكر أن عددهم زاد على الأربعين شخصا.

لم يتوقف الحسن بن زكرويه في سلمية طويلا، بل عاد إلى دمشق و استقر فيها، و لكن نفوس الناس كانت تحمل النعمة، و أصوات الاستنكار، و الاحتجاج تتصاعد.

و وصلت الأصوات إلى أذن الخليفة العباسي المكتفي، فأمر بتأليف جيش كبير بقيادة محمد بن سليمان الذي سارع بالتوجه إلى الرقة فنزل فيها، و منها قصد حلب و حماة، فالتقى بالقرامطة سنة ٢٩١ هـ، في موقع يبعد عشرة أميال عن حماة باتجاه سلمية، و هناك نشبت المعركة الكبرى . و في نهاية المطاف أخذ القرامطة بالتراجع و الفرار. أما الحسن فقد غادر المكان مع ابن عمته عيسى، و أحد المقربين إليه، و غلام رومي اختاره لإرشادهم إلى طريق بعيد عن القرى و المدن، و عيون الناس يؤدي بهم أخيرا إلى سواد الكوفة.

و عند ما صاروا على مقربة من «الرحبة» في مكان يقال له «الدالية» نزل الحسن، و أرسل الغلام ليأتيه ببعض الحوائج، و لكن أهالي البلدة

##PAGE=172##

ارتابوا بأمره، فقبضوا عليه، و أتوا به الوالي، و هناك اعترف بالأمر الواقع و ذلك تحت التعذيب و التهديد، فأرسل الوالي جماعة مسلحة، فقبضوا على الحسن و رفيقيه و حملوهم إلى المكتفي ببغداد فوضعهم في السجن مع بقية الأسرى من القرامطة الذين أرسلهم محمد بن سليمان و كان عددهم مئة و ستين رجلا . و قد ذكر أن أكثرهم مات تحت التعذيب، و بعد قتلهم علقت رؤوسهم، أما الحسن بن زكرويه فقد صلب لمدة عام كامل .

هذه الوقائع العنيفة حفزت زكرويه بن مهرويه الأب على الخروج من عزلته، و قد آلمه مقتل ولديه، فصمم على الثأر . و تذكر المصادر التاريخية: أنه أرسل أحد دعائه المقربين و اسمه محمد بن عبد الله بن سعيد، و يكنى بأبي غانم إلى «بنى كلب». فدعاهم إلى التجند من جدى، فاستجاب له خلق كثير و منهم : بنو الاصبع، و بنو العليص و غيرهم، و عند ما أتم كافة الاستعدادات اندفع و قائده محمد بن عبد الله باتجاه دمشق فدخلها، و كان عامل المكتفي أحمد بن كيغلف غائبا يومئذ في القطر المصري، فدخلها، و منها توجه إلى «بصرى» و أذرعات و بلاد حوران ففتحها، ثم عاد إلى دمشق ثانية، و كان نائب أحمد بن كيغلف المسمى صالح بن الفضل قد استعد للمعركة بعد ذهابه . فخرج إليه، و لكن زكرويه تمكن من قتله، و إبادة جيشه في المعركة الأولى، و عند ما أراد دخول دمشق، وقف أهلها بوجهه، و قاوموه بضراوة، مما جعله يعود إلى «طبريا»، فاتحا غازيا، و جارفا كل ما في طريقه.

أرسل الخليفة المكتفي الحسين بن حمدان، و جهّزه بجيش قوى، و أناط به مهمة القضاء على زكرويه فसार و لكنه لم يتمكن من اللحاق به، لأن زكرويه و قائده محمد بن عبد الله سلكا من هناك طريق «السماء» و كانا قد اعتمدا خطة نزع الماء في كل قرية، أو بلدة ينزلون فيها، و عند ما يرتحلون منها . و هكذا عاد بن حمدان يتعثر بأذيال الخيبة و مال نحو «رحبة ابن طوق». أما القرامطة فتوجهوا إلى «هيت» فأغاروا عليها سنة ٢٩٣ هـ، و نهبوا السفن التي كانت في نهر الفرات، و

قتلوا خلقا كثيرا مما اضطرت المكتفى إلى إرسال جيش آخر بقيادة محمد بن إسحق بن كيداخ، و أتبعه بالوزير مؤنس، و لكن القرامطة كانوا ينزحون الماء فى القرى التى يمرون فيها، مما

##PAGE=173##

ساعدهم على اجتياز المراحل، بينما كان أعداؤهم يشكون قلة الماء، حتى أن المكتفى أرسل إليهم الماء بالزوارق من بغداد، و أمر ابن حمدان أن يفاجأهم بجيشه من جهة الرحبة. و هنا نلمح اضطرابا فى المصادر التاريخية التى ذكرت الوقائع بشكل مضطرب، و عزت سبب انكسار القرامطة إلى تنازع القواد فيما بينهم، فذكروا بأن أحد قواد القرامطة المسمى الذئب بن القائم قد قتل محمد بن عبد الله طمعا بالجائزة التى خصصها العباسيون لمن يحمل رأسه إلى بغداد، و لكن و على الرغم من هذا فإن قبيلة بنى كلب ظلت على حماسها، فقام أحمد بن القاسم و جمع الجموع، و سار بهم إلى الكوفة فدخلها وسط موجة من المظاهرات، و القذف بالحجارة، و السلاح . و بعد ذلك خرج إليهم منها اسحق بن عمران فقاتل قتالا شديدا، و تبعه جيش آخر أرسله المكتفى، و لكنه لم يستطع الثبات فى المجال، إذ تمكن القرامطة من القضاء عليه، و أخذ سلاحه، و عتاده، و بعد ذلك ساروا إلى الحجاج فقطعوا الطريق عليهم و قتلوا العديد منهم، و أخذوا كل ما يحملونه ، و من ثم عادوا إلى دمشق بغرض القتل و الفتح، و التدمير، و فى تلك الفترة لم يبق بيت إلّا و اكتوى بشروهم و ظلمهم، فأنفذ المكتفى جيشا آخر بقيادة ابن حوارتكين فأدرك القرامطة فى ظاهر المدينة، و هناك نشبت المعركة الكبرى، و بعد أن سيطر ابن حوارتكين على الموقف طرحت النار فى قبة زكرويه و لكنه تمكن من الخروج من خلفها فأدركه أحد الرجال، و ضربه حتى سقط إلى الأرض، و عندئذ أركب و أرسل إلى بغداد سنة ٢٩٤ هـ. فوصلها ميتا .. و لكنهم حنطوه و شهبوا به مدة طويلة، و مما يجب أن يذكر أن حرمة، و أولاده كانوا معه، فقتلوا جميعا.

بعد هذه الوقائع، و المعارك انطفأت شعله قرامطة السواد، و خفت صوتهم، و لكن رجلا منهم نهض، و تصدى للقيادة، معلنا عن ثورة جديدة، و كان يسمى أبو حاتم الزطى، و لكنه قتل قبل أن يتمكن من تحقيق آماله، فقام رجل آخر من بنى عجيل يدعى محمد بن قطبة فجمع الجموع و جاء إلى «واسط» و لكن أمير الناحية العباسى خرج عليه، و شنت شمل جماعته، و تعتبر هذه المعركة خاتمة المطاف بالنسبة لقرامطة السواد.

عند ما قامت ثورة القرامطة البحرينيين الثانية سنة ٣١٦ هـ تجاوب

##PAGE=174##

قرامطة السواد معهم، و أعلنوا عن تأييدهم، و مناصرتهم و تطوعوا فى صفوفهم. و هذا يدل على ترابط و ثيق بين الثورتين . و قد ذكر أن الحريث بن مسعود جمع وحده أكثر من عشرة آلاف فى سواد واسط، و من المشهور عنه أنه بنى دارا فى «الموقية» و سماها دار الهجرة، كما جمع عيسى بن موسى عددا من المقاتلين فى منطقة «عين التمر»، و قد تمكن من احتلال سور الكوفة و عندئذ أرسل المقتدر العباسى بعض قواده و عساكره و ضربهم ضربات مؤلمة أجهزت على البقية الباقية منهم.

أما أسباب إخفاق القرامطة فى تحقيق أهدافهم فتعود إلى عوامل كثيرة:

أولها: عدم تنظيم، أو تدريب المقاتلين، بل كانوا أفرادا من القبائل يجندون، و يرسلون إلى الميادين للقتال . و الثانية: اضطراب القيادة، و عدم وجود قائد بارز متمرن سبق له خوض غمار الحرب. و الثالثة:

تطلع الجيش إلى النهب و القتل دون التفكير بشيء آخر، و الرابعة:

هجومهم على سلمية و إعدام أفراد أسرة الأئمة و هذا أوجد فى القلوب نقمة و بغضا على القرامطة، و الخامسة: قتلهم الحجاج المسلمين. مما أثار سخط العالم الإسلامى، و أصبح اسم «قرمطى» يثير الرعب و الاشمئزاز. و كل هذا يدخل فى نطاق مخالفتهم أوامر الأئمة، و قيامهم بالثورة المسلحة قبل موعدها، و محاولتهم قطف الثمرة قبل نضوجها.

##PAGE=175##

المدى و القرامطة

تحدثنا عن قرامطة السواد ما فيه الكفاية و ألمحنا إلى علاقتهم، و أخبارهم مع عبد الله المهدي، و ذلك قبل قيام الدولة الفاطمية، و لم نتطرق إلى قرامطة البحرين الذين خلفوهم فى مقام القيادة على اعتبار أن نشاطهم، و أعمالهم ارتبطت ارتباطا مباشرا بالخلفاء الفاطميين الذين جاءوا بعد عبد الله المهدي، و يشمل ذلك حركاتهم العادية و المؤيدة، و كل هذا لم يمنعنا من التطرق إلى عرض حالة واحدة وقعت فى عهد عبد الله المهدي من قبل قرامطة البحرين . فمن المعلوم أن هذه المجموعة التى يرأسها آل الجناي تسلمت مركز القيادة العامة بعد انهيار قرامطة السواد على أيدي أسرة آل زكرويه بن مهرويه، و من المؤكد و المعلوم أن هذه الأسرة بعد أن سيطر أفرادها على الموقف لم يلبث أن عصفت بهم النزاع على الرئاسة فذهب فريق منهم إلى حد الاستسلام للعباسيين طمعا فى نيل دعمهم و مساعداتهم، بينما ظل الفريق الثانى على ولائه للفاطميين، و هكذا فإن الحرب بين الفريقين كانت مريرة، و عسيرة، و سجالا، و لم تتوقف يوما واحدا و لما تسلم أبو طاهر مركز قيادة القرامطة فى البحرين كان له من العمر سبعة عشر عاما، فوقع تحت حكم فئة من المتهورين الخارجيين الذين لم يكن لهم أى هدف فى حياتهم سوى اقتراف الجرائم، و ارتكاب المعاصى، و القيام بأعمال شائنة . و من الجدير بالذكر أنه تصدى للحجاج المسلمين فقتلهم، و مثل بجثثهم، و نهب كل ما يحملون . و لم يستثن من ذلك النساء، و الشيوخ، و الأطفال، ثم دخل الكعبة فنهب كل ما فيها، و عبث بمكة، و ردم بشر زمزم ثم نقل الحجر الأسود إلى «هجر»، هذه الأعمال أقامت العالم الإسلامى، و أعدته، و حركته على اللجوء إلى خليفة بغداد لمطالبته بوضع حد لهذه الأعمال الشائنة، و لكن الخليفة المذكور وقف عاجزا عن ردع القوى القرمطية، و اكتفى بإرسال جيوشه للتصدي لها من دون أن تتمكن من ردعهم، و لما كان أبو طاهر من الموالين للفاطميين، فإن بعض المؤرخين اعتبر الفاطميين شركاء و مسؤولين عن كل ما اقترفه القرامطة فى الأراضى المقدسة. فى حين أن الدلائل تؤكد بأن الفاطميين لم يكن لهم أية علاقة. و لا يمكن

##PAGE=176##

أن تصدر عنهم مثل هذه الأعمال، و قد ثبت أن قصة الحجر الأسود، و نهب الكعبة، و قتل الحجاج، قد حركت عبد الله المهدي و جعلته يقف موقف الرفض لهذه الأعمال، فأرسل إلى أبى طاهر كتابه المشهور.

و عند ما تلقاه أبو طاهر أعاد الحجر الأسود إلى مكانه . و كفّ عن ملاحقة الحجاج . و هذا معناه أن الفاطميين لم يشاركوا في أعمال القرامطة، و لم يرضوا بها . و هذا هو كتاب المهدي بنصه الحرفي، كما ورد في الكتاب الإسماعيلي «فصول و أخبار».

«إلى مقدم القرامطة: سليمان بن الحسن أبو طاهر الجنابي.

بلغنا إقدام رجالكم على التصدى لقوافل الحجاج المسلمين، و قتلهم النساء و الشيوخ و الأطفال، و التمثيل بجثثهم و نهب ما يحملونه. و بلغنا ما اقترفه رجالكم من الأعمال المخربة في الديار المقدسة. كنزهم كسوة الكعبة، و ردم بئر زمزم، و نقل الحجر الأسود إلى هجر . إنكم بهذا العمل المشين سجلتم علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي و لا الأيام، و حققتم على دولتنا و دعوتنا اسم الكفر، و الزندقة، و الالحاد، بما قمتم به من أعمال شنيعة مخالفة لمبادئنا و عقيدتنا.

لهذا أطلب إليك .. أن ترد على أهل مكة المتاع، و الأموال، و الحلّى، و على الحجاج ما سلبته منهم، و أن ترد الكسوة للكعبة المشرفة، و إلّا أتيت إليك بجنود لا قبل لك بها.

إننا نتبرأ منك، كما برئنا من الشيطان الرجيم في الدنيا و الآخرة، و نعوذ بالله من فعال سوء التي لا يقتربها إلّا أعداء الله أجمعين.

إذا لم تفعل ما أمرتك به، لا يكن بيني و بينك إلّا السيف، و البراءة منك على رؤوس الشهداء».

##PAGE=177##

سلمية المركز الأول للإسماعيلية

##PAGE=179##

تشكل مدينة «سلمية» أهمية كبرى سواء في التاريخ القديم أو الحديث، و تتميز عن غيرها من المدن السورية بموقعها الجغرافي المهم، و وجودها في نقطة ذات أثر بارز بالنسبة إلى الصحراء السورية، ممّا أتاح لها أن تكون محطة انطلاق، و التقاء، و عبور نحو الشرق و الغرب . و نحن هنا نتحدث عن هذه المدينة، و نقدم لمحة تاريخية عنها باعتبارها عاصمة الإسماعيلية قديما و حديثا، و المركز الذي انطلقت منه الحركة «القرمطية» من جهة، و الدولة «الفاطمية» في المغرب و مصر من جهة ثانية.

هناك أقوال عديدة، و مصادر تاريخية وردت عن أصل التسمية، و كلها تشير إلى أن «سلمية» كانت في العصور الغابرة ذات أهمية قصوى بدليل أن اسمها ورد في المصادر اليونانية «سالاميس» كما أن هذه التسمية ظلّت طيلة العهد البيزنطي، و يضاف إلى ذلك بأن هذا كان تخلص لذكرى معركة «سالاميس» التي أنتصر فيها اليونان على الفرس سنة ٤٨٠ قبل المسيح، بقيادة القائد اليوناني «تمستوكل» أو نسبة إلى مدينة «سالاميس» اليونانية الواقعة على ساحل بحر إيجه.

و ورد اسمها «سلم مائة». ذكر ذلك ياقوت الحموى فى معجم البلدان، و ذلك نسبة إلى ا لمائة شخص الذين نجوا من مدينة «المؤتفة» فهؤلاء جاءوا إلى سلمية و عمروها و سكنوها و على مرور الأيام تحرفت الكلمة من «سلم مائة» إلى سلمية.

و ورد فى أحد المصادر أن الاسم مشتق من «سيل ماء». و المعروف أن «سلمية» تعرضت فى غابر العصور إلى سيول جارفة ضربتها، و هدمت

##PAGE=180##

١٢

معالمها، و لا تزال حتى الآن تتعرض إلى «سيل الماء» هذا كما نرى.

و إنه لمن المفيد أن نشير إلى أن «سلمية» تلفظ بالفتحة على السين و على اللام، و السكون على الميم، و الفتحة على الياء، و السكون فى آخرها ... و لا يدخل عليها مطلقا «ال التعريف».

تقع سلمية فى سهل واسع منخفض، أو فى مروج لا يحدها البصر، و هى كما ذكر الشاعر المتنبى ء: «مروج مسومات». فهى على أبواب الصحراء السورية من الجهة الغربية، و على بعد ٢٨ ك. م من مدينة حماه إلى الشرق، و «٤٥» ك. م إلى الشمال من مدينة حمص ..

على خط عرض / ٣٥- د / و خط طول / ٣٧- د / شرقى غرينتش.

و تنتهى إلى الجهة الشرقية من سفوح جبال «البلعاس» المتفرع منها جبل «شاعر» المرتفع مسافة ألف و سبعمائة متر عن سطح البحر، و جبال تدمر، فهذه الجبال الجرداء اليوم كانت فى عهود الرومان، و عهد زينب ملكة تدمر المصيف الجميل أو الجنان الوارفة الحالية بالثمار و الغابات الشجراء من التين و العنب و التفاح و البطم. و تحد سلمية من الغرب التلال الكلسية البازلتية البيضاء المتقاربة، و هى بقايا هضاب عفا عليها الزمن و أهمها : تل عين الزرقاء، تل الكافات و غيرها . أما من الناحية الشمالية فتصل إلى خراب «الأندرين» مروراً بقلعة «الرمية» المشهورة بقلعة «النسر»، و «بقصر ابن وردان» البيزنطى، و من الجنوب تتصل بالسهول، و التلال الترايبية التى تمتد حتى مدينة حمص مروراً بسهول «المشرفة» أو «كاتانا» كما تسمى فى التاريخ القديم.

فهذا السهل الواسع الذى لا تحيط به العين، و الذى ترقد فيه هذه المدينة، يشكل بالنسبة للمنطقة منخفضاً سهلاً كانت تتجمع فيه المياه السطحية، ثم تفيض بغزارة فى أشهر الصيف لتعطى المنطقة حلة من الخضرة، و لتحولها إلى جنائن و بساتين، و حدائق غناء. و لكن لا بد من القول بأن هذا الانخفاض جرّ عليها التكتبات، و جعلها عرضة للسيول التى كانت تتجمع من المرتفعات المحيطة بها و خاصة من الشرق و الجنوب.

^{١٢} تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه، 4 جلد، رياض الرئيس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

عرفت «سلمية» كما ذكرنا بأنها عاصمة الصحراء السورية أو مفتاح هذه الصحراء، فمنها يمكن الانطلاق نحو «السحنة» و «الرصافة»

##PAGE=181##

و «الرقعة»، و «دير الزور» مرورا «باسرية» ... و منها يمكن الانطلاق نحو «تدمر» مرورا بجبال «البلعاس» كما يمكن الانطلاق منها إلى انطاكية و حلب مرورا ب «خناصر» مدينة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز.

و في العهود الغابرة كانت نقطة انطلاق للقوافل التجارية، ثم أصبحت بعد ذلك القاعدة الرئيسية في عهد القوافل، و ذلك عند ما تحولت الرصافة إلى قاعدة حربية في عهد الرومان، و قد أصبحت في تلك الفترة أيضا مركزا لتموين الجيوش المحاربة التي كانت في حروب مستمرة مع الفرس، و يجب أن لا يغرب عن البال أن هذه السهول و المروج كانت غارقة بالمياه، و الينابيع، مما جعل لها مهوى أفئدة القبائل البدوية التي كانت تزحف نحو الصحراء السورية من سائر الجهات، و غرضها الماء و الكلاً و الحياة الرغيدة.

يعتبر فصل الربيع فيها من أجمل الفصول، و قد يستمر شهرين، و في سنى الخصب و غزارة الأمطار تزدهر السهول، و تكتسى حلة جميلة من الأزهار، و شقائق النعمان، و هكذا في فصل الخريف، فتهب النسمات العذبة الرقيقة، و يتلطف الجو، و قد تسقط أمطار خريفية في هذا الفصل فتكون مدعاة للتفاؤل لدى المزارعين، و أصحاب المواشى بحيث تزداد نسبة مياه الألفية، و ينمو العشب، و بعض الأزهار البرية، و خاصة الوردة المعروفة «الوحواح». و قد أكد لي أحد علماء الزهور و النبات بأن هذه الوردة معروفة في أوروبا باسم «سلمية» و هى تباع في مخازن الورد بهذا الاسم. و لا ندري متى نقلت إلى أوروبا لأنه من المؤكد أن بذورها و بصيلائها موجودة في الأرض منذ العهد الرومانى . و كان من المعروف أنها الوردة المفضلة لديهم لعبيرها المنعش الذى لا يختلف عن عبير زهرة «الغاردينيا» المشهورة.

و مما يجب أن نذكره أن هذه الوردة توجد في ضواحي سلمية فقط، و ظهورها يكون في أواخر شهر تشرين أول . و قد تبقى حية لمدة شهر أو أكثر، ثم يعتريها الذبول. أما إذا غرست في الحقائق العامة و الخاصة فإنها تبقى مدة أطول.

عرفت سلمية بأنها بلدة عريقة في القدم، فهى كباقي المدن السورية التاريخية، تعرضت للحروب و للغزوات، و مرّ عليها فاتحون و غزاة قبل

##PAGE=182##

الإسلام و بعده، و قد ظهر كل ذلك جليا على آثارها الدفينة التي اكتشفت في مناسبات عديدة.

عرفت في زمن السومريين ٣٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ ق.م، و في زمن الأموريين منذ عام ٢٤٠٠ إلى ٢٠٠٠ ق.م، و خلال عام ٢٠٠٠ إلى ١٦٠٠ ق.م.

و من الثابت أن القوات الحثية و الميتانية اجتاحتها، ثم حكمها الهكسوس عام ١٥٠٠ ق.م، و في نهاية القرن الثامن حكمها الأراميون، ثم فتحها الآشوريون، و قد ظهرت فيها آثار كثيرة تدل على ذلك، و في العهد اليونانى البيزنطى كانت تابعة

لمدينة أفاميا، و في عهد زينب ملكة تدمر كانت تابعة لها، ثم أصبحت بعد ذلك مقرا لأبرشية مسيحية كبرى، و في تلك الفترة كانت تابعة لحمص، و بعد أن تعرضت الرصافة لغزوات الفرس، و زال عنها الطابع التجارى و الاقتصادى باعتبارها المحطة التجارية الكبرى التى تربط الشرق بالغرب ... أخذت سلمية مكانها، فأصبحت أكبر قاعدة تجارية لمرور القوافل، و التزود بالمواد، و في تلك الفترة كانت فيها كنيسة كبرى تعرف باسم «مار سركيس» و كان موقعها إلى الجنوب من المدينة، و تقع على غدير ماء، و دلت الاكتشافات الأخيرة على أن مكانها كان فى الأرض التى أقيم عليها الجامع الكبير المسمى «ذو المحاريب السبعة» المعروف الآن باسم الإمام إسماعيل.

عثر فى أمكنة عديدة فيها على نقود و بعض التماثيل و القطع الفخارية اليونانية و البيزنطية و الرومانية، كما عثر على بعض الآثار الآشورية، و لكن على نطاق ضيق.

ذكرها المؤرخ يعقوبى فى كتابه «البلدان» فقال:

«سلمية مدينة فى البرية .. و كان عبد الله بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب قد ابتناها، و أجرى إليها أنهارا، و استنبط أرضها حتى زرع فيها الزعفران، و أهلها من ولد عبد الله بن صالح الهاشمى و مواليهم، و أخلاط من الناس تجار و مزارعين».

و ذكرها ياقوت الحموى فى كتابه «معجم البلدان» فقال:

«سلمية بلدة فى ناحية البرية من أعمال حماه بينهما مسيرة يوم، و كانت من أعمال حمص ... اتخذها صالح بن على بن عبد الله بن عباس منزلا، و بنى هو و ولده الأبنية و نزلوها، و فيها المحاريب السبعة».

##PAGE=183##

و ذكرها المؤرخ أبو الفداء فى كتابه «تقويم البلدان» فقال:

«سلمية من أعمال حمص ... بلد نزهة، و مياهها قنى، و فيها بساتين كثيرة».

و ذكرها الطبرى فى كتابه «تاريخ الرسل و الملوك » عند ما وصف المعركة التى وقعت فيها فى «مرج الأخرم» «الحضيمة» اليوم. و هذه المعركة حدثت سنة ١٢٢ هـ بين عبد الله بن على العباسى أول قائد عباسى فى الشام، و بين أبى الورد الكوثر الكلابى من قواد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . و فى تلك المعركة قضى على آمال الأمويين، و خسروا ملكهم فى الشام، و إلى الأبد . و لما استتب الأمر للعباسيين جاء عبد الله ابن صالح بن على، و هو حفيد عبد الله بن عباس الصحابى المشهور، و مستشار الإمام على بن أبى طالب، و كان والده صالح عا ملا على قنسرين، و حمص، و دمشق. أما عبد الله فكان مغرما بالبناء و العمران، و لذلك أعاد هو و أولاده عمارة سلمية، و أجروا إليها الأنهار، و من الواضح أن لهذه الأسرة مكانة كبرى لدى الخلفاء العباسيين فى بغداد، بدليل أن الخليفة العباسى المهدي زارها سنة ١٦٣ هـ. و كان فى طريقه إلى بيت المقدس، و قد أعجب بها، و بارك عمراتها، و يذكر مصدر تاريخي آخر أن عبد الله هذا قد دعى إلى بغداد، و إن الخليفة المهدي قد زوج أخته مكافأة له.

من الثابت تاريخياً أن سلمية كانت خربة و غير مسكونة عند ظهور الإسلام . و من المؤكد أن هذا الخراب وقع فى أواخر العهد البيزنطى، حينما سادت الفوضى بلاد الشام، و عمّ مدنها الخراب، و انشغل الرومان بالحروب الطاحنة مع الفرس، و هناك مصدر تاريخى يؤكد بأن المدينة دمرها الفرس فى إحدى غزواتهم، أى عند ما احتلوا الرصافة، و استولوا على كنيسها، و لم يتمكن الرومان من إعادة تعميرها بسبب حروبهم مع الفرس من جهة، و ظهور الدعوة الإسلامية التى كان من أهدافها إزاحة هذه الامبراطورية عن مواقعها، مضافا إلى ذلك موقع سلمية الجغرافى على تخوم المدن الكبرى، و الممرات و النقاط الرئيسية، و التحركات التى كانت تأتى تارة من المغرب، و أخرى من الشرق.

و نحن نعلم أن عبد الله بن صالح العباسى عند ما نزلها أخذ بعمارها،

##PAGE=184##

و شجع الناس على السكنى فيها، مما يعنى أن المدينة كانت أنقاضا خربة فى العهد الأموى الذى خلت مراجعه التاريخية من أى ذكر لها، و بعد أن تمّ عمرانها، و ازدهارها فى ال عهد العباسى كما ذكرنا، ظلّت حتى سنة ٢٩٠ هـ. و فى ذلك العام فتك بها و بأهلها «القرامطة» و دمروها، و بعد هذا التاريخ لم تعمّر العمران اللازم، و لم يعد لها وجهها الأول، بل توالى عليها النكبات، فمرة اجتاحتها مرض الطاعون، فأتى على من فيها، و دخلها تيمور لنك فدمره ١ و أزال معالمها سنة ١٤٠٣ م فضلا عن الزلزال الذى دك أسسها فى مرتين أفجعهما سنة ٥٥٢ هـ و عن السيول التى أغرقتها ثلاث مرات.

و يضيف المؤرخ الطبرى : بأنه فى العام ٢٩٠ هـ. فتك القرامطة ببلدة سلمية، و معرة النعمان، و حماه، و كان على رأسهم الحسين بن زكرويه الملقب بأبى شامة أو صاحب الخال. و هذا القائد القرمطى حارب أهلها، ثم وادعهم، و أعطاهم الأمان، و عند ما فتحوا له الأبواب دخلها و قتل سكانها جميعا حتى صبيان الكتائب، ثم خرج منها و ليس فيها عين تطرف.

و فى سنة ٣٤٤ هـ، دخلها سيف الدولة الحمدانى و احتلها، و كان يطارد عربان البادية الذين شقوا عصا الطاعة عليه، و فى القرن الخامس للهجرة أصبحت سلمية من أعمال الأمير خلف بن ملاعب الكلّابى، صاحب حمص، و لكن هذا لم يدم طويلا لأن «تنش» أخا السلطان ملكشاه السلجوقى استخلصها منه، و فى سنة ٤٩٦ هـ.

دخلت فى حوزة «رضوان» و كان يحكم حلب.

و ذكر ابن الأثير فى «الكامل»:

إنه فى سنة ٥٣٢ هـ. جاءها عماد الدين زنكى، و خرج منها إلى مقاتلة الصليبيين، و كانوا فى «شيزر»، و فى سنة ٥٧٠ هـ. استخلصها صلاح الدين الأيووبى من فخر الدين الزعفرانى أحد قواد نور الدين محمود، و أعطاهما إلى ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين، فأصبحت بعد ذلك موضع نزاع بين الأيوبيين ملوك حماه من جهة و ملوك حمص من جهة ثانية، و قبل نشوب معركة عين جالوت جعل التتر منها نقطة حربية لتعبئة جيوشهم، و بعد المعركة أعطى الملك المظفر سلمية إلى الأمير منها آل فضل بن ربيعة من طى من كهلان، و كان قد اشترك مع ق بيلته فى معركة عين جالوت، و أبلى فيها البلاء الحسن، فظلّت فى يده و يد ابنه عيسى، و حفيده مهنا، و أعقابهم

##PAGE=185##

فترة طويلة، و من المعروف أن آل أبي ريشة و هم أمراء «الموالي» ملكوها، و جعلوها تحت نفوذهم . و فى القرن الحادى عشر سيطر عليها الأمير فخر الدين المعنى غير أنها ظلّت خاضعة لأمراء الموالى المذكورين الذين اتخذوها سكنا و مرعى، حتى تمكن الأعراب الآخرون من قبيلة عنزة ازاحتهم إلى الشمال . و فى سنة ١٨٤٨ م نزل الإسماعيليون فيها و عمروها بقيادة الأمير إسماعيل بن محمد و قد جاؤوا من «القدموس» و «مصياف» و «عكار» و «الخوابى»، و لا تزال سلمية تحمل اسم عاصمة الاسماعيليين كما كانت سابقا.

و ذكر ياقوت الحموى أيضا:

«إنه عاش فيها ... أبو الثور هاشم بن ناجية السلمى و عبد الوهاب السلمى و أبو عبد الله الشيعى فاتح شمالى أفريقيا، و جعفر بن منصور اليمن المعروف فى التار يخ بابن حوشب و على بن الفضل اللذان فتحا اليمن، و أحمد النسفى صاحب كتاب «المحصول» فى الفلسفة، و عاش فيها فترة الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبى ء و الشاعر ديك الجن المعروف بعبد السلام بن رغبان، و مرّ فيها الشاعر أبو فراس الحمدانى و كان يقود جيوش الحمدانيين، كما زارها الخليفة العباسى المهدي و هو فى طريقه إلى بيت المقدس».

أشهر مواقعها التاريخية: القلعة و السور ... و كانت القلعة قائمة فى وسط المدينة، و كان السور محيطا بها، بيد أنهما زالا مؤخرا، و كانا يحتفظان بالطابع الرومانى، و فيها «الحمام» التى لا تزال قائمة فى وسط المدينة، و هى بحالة جيدة، و كانت على مقربة من القلعة، و هى عربية البناء، و تمثل عصرا زاهرا من عصور الإسلام الذى اشتهر بزخرفة البناء، و فيها قلعة «الشماميس» الواقعة إلى الجهة الغربية منها، على بعد خمسة أميال، و من المؤكد أنها رومانية و ربما قبل ذلك، غير أن العرب أعادوا بناءها، و قد ذكرها المؤرخ أبو الفداء فقال:

فى سنة ٦٢٧ هـ شرع صاحب حمص «شيركوه» فى عمارتها، فأراد المظفر صاحب حماه منعه فلم يتمكن، و ممّا يجب الإشارة إليه .. أن بانيها قائم على قاعدة من البازلت، و كان لها أسوار و أبراج تشرف على السهول ا لبعيدة المترامية الأطراف. أما نسبتها فهناك مصادر تؤكّد بأنها كانت لأحد ملوك حمص العرب «شميسغرام» ثم ملكها غيره حتى عهد صالح بن مرداس و أخيرا انتهت إلى مرهف نصر بن على بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبى الحسن. و قد ظلت فى يده حتى

##PAGE=186##

وفاته سنة ٤٩١ هـ. و من الثابت أن هذه القلعة تهدمت سنة ٩٢٥ هـ. بفعل الزلازل على تاج الدين بن أبى العساكر بن منقذ و لم يسلم من سكانها أحد.

أمّا الأقبية الرومانية فقد ثبت أنه كان فيها ٣٦٠ قناة ماء، و كانت أعظمها و أغزرها و أطولها قناة «العاشق» التى كانت تسقى العديد من أحياء حماه و مدينة أفايا.

و هناك مقام الإمام إسماعيل أو «المسجد ذو المحارب السبعة»، و كان بيت الدعوة للأئمة الإسماعيليين (المستورين) على مقربة منه، و هذا المكان أقيم على انقاض كنيسة أو دير أو كاتدرائية «مار سركيس» و من الجدير بالذكر أنه يضم أضرحة اثنين من الأئمة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق بالإضافة إلى قبور الشهداء من أسرة الفاطميين الذين قتلهم القرامطة.

و من المواقع الأثرية القديمة في منطقة سلمية : قلعة الرّبة، الرحيّة، أم كبيبة، أسريّة، «الغاي» «الأندرين» «قصر ابن وردان» «تمك» .. و غيرها.

و قبل أن نختم حديثنا عن سلمية، لا بد من إعطاء لمحة عن المظاهر الأدبية التي انبثقت على أرضها، فقد ثبت أن الشاعر الكبير أبو الطيب المتنبي عاش فيها فترة من الزمن، و قد قبض عليه ابن علي الهاشمي العباسي بأمر من لؤلؤة صاحب حمص بحجة ادعائه النبوءة، و قد تم ذلك في قرية يقال لها «كوتكين» و هي الآن «كيتلون» و تبعد تسعة أميال عن سلمية إلى الجهة الشمالية الغربية و في هذا يقول المتنبي:

من آل هاشم بن عبد مناف

زعم المقيم بكوتكين بأنه

صارت قيودهم من الصفصاف

فأجبت مذكرت من أبنائهم

و يذكر المتنبي أيضا سلمية بقصيدة طويلة يصف فيها المعركة التي خاضها سيف الدولة الحمداني مع الأعراب الذين شقوا عليه عصا الطاعة. فيقول:

ضوامر لا هزال ولا شيار^{١٣}

فأقبلها المروج مسومات

تناكر تحته لو لا الشعار

تثير على سلمية مسطرا

##PAGE=187##

و ذكرها الشاعر أبو فراس الحمداني أيضا عند ما وصف المعركة المذكورة، و من الثابت أن ديك الجن عبد السلام بن رغبان كان يتردد إليها، و يقضى فيها فترات طويلة على مقربة من الأمير «جعفر بن علي الهاشمي» و عند وفاته جاء من حمص، و القى قصيدته المشهورة بتأبينه و منها.

و في كل جمع للذهاب مذاهب

على هذه كانت تدور النوائب

و هل يقبل النصف الألد المشاعب

نزلنا على حكم الزمان و أمره

قفوا حدثونا ما تقول النوادب؟

ألا أيها الركبان و الردّ واجب

و أيهم نابت حماه النوائب؟

إلى أي فتیان الندى قصد الردى

^{١٣} (1) شيار و تعني الحسنة المفرطة في الحسن.

و قبل أن نختم الحديث عن سلمية، نود الإشارة إلى مزاعم لا يؤيدها التاريخ، تقول بأن المسجد ذا المحاريب السبعة هو المسجد الذى اتخذ على أهل الكهف و كانوا سبعة، أى لكل محرابه، و الله أعلم بالصواب.

##PAGE=188##

سلمية فى التاريخ

لما توفي الملك المظفر «تقى الدين عمر» سنة ٥٨٧ هـ. خلفه ابنه المنصور «ناصر الدين محمد» فى ملك مدينه حماه و سلمية و المعرة و غيرها، و فى آخر عمره عهد بالملك لولده المظفر محمد، و لكن بعد وفاته ولوا ابنه الثانى الناصر قليج ارسلان، فذهب المظفر إلى مصر و استجار بالسلطان الملك الكامل الأيوبي و أقام فى خدمته . و فى سنة ٦١٩ هـ. جاء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق و حاصر ابن اخته الناصر صاحب حماه لثمنه عن دفع مال مستحق، و لما لم ينل مأربه ارتحل إلى سلمية و استولى على حواصلها العائدة للناصر و أقام فى مروجها يعد العدة لحصار حماه إلى أن جاءه أمر الملك الكامل بالارتحال عنها، و أمر أيضا بإبقاء حماه بيد الناصر، و تسليم سلمية إلى أخيه المظفر. و فى سنة ٦٢٦ هـ. جاء الملك الكامل إلى حماه بجيش سلم قيادته إلى أسد الدين شيركوه صاحب حمص و هو حفيد شيركوه الأول عم صلاح الدين الأيوبي و أمره بحصار حماه، فاستسلم الناصر و سلم حماه، فأمر الملك الكامل بإعادة المظفر إليها لى أن تنزع سلمية منه و تسلم إلى شيركوه فصارت سلمية فى تلك الفترة سببا للعداوة بين أبناء الأعمام ملوك حمص الأسديين و ملوك حماه التقويين و التى زادت ضراما عند ما عمر شيركوه أو حسن عمارة قلعة «الشميميس» سنة ٦٢٧ هـ. و يظهر أن سلمية و مروجها و غزارة مياهها كانت صالحة لمرور الجيوش، و قد نزلها الملك الكامل للمرة الثانية سنة ٦٢٩ هـ. و كان فى طريقه إلى «آمد» ديار بكر، و اجتمع فيها ملوك الأيوبيين، كما نزلها سنة ٦٣٠ هـ عند ما ذهب لقتال الملك كيخباد السلجوقي.

لقد سعدت سلمية فى عهد الأيوبيين، كما كانت فى عهد الهاشميين.

و لما جاء التتر فى عهد هولاكو و غازان اتخذوها مراحا يميلون إليه عند ما يأتون من حلب إلى حمص أو دمشق، و لما انتصر عليهم الملك المظفر «قطز» سنة ٦٥٨ هـ فى معركة عين جالوت. نزع سلمية من يد الملك المنصور و أقطعها للأمير مهنا آل الفضل، مكافأة له على حسن

##PAGE=189##

بلائته معه فى تلك المعركة الفاصلة، و منذ ذلك الحين و سلمية فى يده و يد أبنائه من بعده.

سكت التاريخ عن بيان جنسية سكان سلمية فى ذلك الوقت و خاصة على عهد «خلف بن ملاعب الكلابي» و الملوك الأيوبيين و السلاطين المماليك، و قد ثبت أن سلمية لم يقطنها الإسما عيليون بعد حادثة القرامطة و ذهاب عبد الله المهدي منها حتى سنة ١٨٤٥ م عند ما عمرها الأمير إسماعيل العلى الذى جاء من قدموس لعمارتها بإذن من الحكومة التركية و كانت خالية من السكان.

و فى سنة ٦٩٢ هـ. زارها السلطان المملوكى «الأشرف خليل» و كان فى طريقه من مصر إلى دمشق و حمص و ذلك سنة ٦٩٢ هـ و قد لَبَّى أُنْذ دعوة الأمير مهنا بن عيسى و بقى فى ضيافته ثلاثة أيام، ثم بدا له أن يقبض على هذا الأمير و على اخويه محمد و فضل فأرسلهم إلى مصر و قد ظلوا فيها إلى أن أطلقهم الملك العادل كتبغا و لم يذكر التاريخ أن الظاهر بيبرس قد زارها لَمَّا أمر بترميم قلعتها الشميميس التى ضربها التتر.

و قد ظلَّ هذا الخراب قائما ما يقارب خمسة قرون و نيف و طيلة مدة حكم الأعراب من آل مهنا الذين انقلب اسمهم إلى آل جبار ثم آل أبى ريشة و هم فرع من قبيلة الموالى.

و فى القرن الحادى عشر سيطر الأمير فخر الدين المعنى على بلاد حمص و حماه و تدمر و سلمية و حالفه أمراء آل ريشة و صادقوه، و استنجد به كبيرهم الأمير مدلج عند ما نازعه ابن عمه حسين على الزعامة، فجاء فخر الدين سنة ١٠٣٣ هـ و أنجد مدلج فأضافه و أكرمه فى سلمية و أهدى إليه الفرس «سعدة» المشهورة. و بعد عامين انتقض مدلج و قومه على الأمير فخر الدين و تمنعوا عن تسليم الضريبة المفروضة عليهم فهاجمهم و طردهم حتى نهر الفرات، و أخيرا عادوا إلى ديارهم.

و فى أواخر القرن الحادى عشر وفدت قبائل شمّر من العراق إلى البادية السورية و أرادوا الاستيلاء على سلمية و لكن الموالى صدوهم بعد حروب و غزوات دامت عشرة أعوام . و فى أواخر القرن الثانى عشر وفدت إلى البادية السورية قبائل «عنزة» الذين هاجروا من نجد

##PAGE=190##

فصمدت الموالى لهم و لكن كثرة عددهم تغلبت أخيرا فاستولوا على رقعة من البادية قريبة من حمص لفرقة منهم هى «الحسنة» ثم استولوا على سلمية أيضا و لكنهم تركوها أخيرا.

و فى نهاية المطاف عادت المدينة إلى أهلها بعد قرون و أصبحت عاصمة الإسماعيليين فى الشرق.

##PAGE=191##

١٦٥١٤

##PAGE=192##

١٧

##PAGE=194##

^{١٤} (1) الشيخ حامد خريجه فى قرية «الكيمي» من أعمال صافيتا.

^{١٥} (2) قلعة اسماعيلية قضاء جبلة.

^{١٦} (3) لم يكن لخليفة مصر ولد يسمى «الشيخ محمد معز الدولة».

^{١٧} (1) الخواي: من قلاع الاسماعيلية.

قلاع الاسماعيلية فى بلاد الشام

أحبّ الإسماعيليون القلاع و الحصون، و كرسوا جهودهم لامتلاكها و تحصينها و إعدادها لتكون صالحة للهجوم و للدفاع عند اندلاع نيران الحروب. و من الواضح أنهم كانوا يطمحون دائما إلى إقامة دولة مستقلة فى أى مكان وجدوا. ففى أفريقيا الشمالية و اليمن و فارس و سوريا كان امتلاك القلاع و الحصون دأبهم . و تذكر مصادر تاريخية عديدة أنهم امتلكوا قلاع حلب و دمشق و بانياس الشام، و الشقيف، و طرابلس الشام، و حصن الأكراد، و المرقب، و شيزر، و صهيون، و غيرها، و لكنهم كانوا يتخلون عنها عند ما تهاجمهم قوى أكثر عددا و عدة.

و كانوا أيضا يعتقدون بأن القلاع و الحصون وحدها كفيلة بتأمين الانتصار فى الحروب التى كانوا يخوضون غمارها و الاعتصام فيها عند اللزوم.

و فى هذه الصفحات نقدم لمحة تاريخية عن قلاع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الشام التى طبعت بطابعهم، و أقاموا فيها و لا يزالون. أمّا القلاع التى كانوا يحتلونهم ثم جلوا عنها لعلل و أسباب فمنكتفى بالإشارة إليها.

«قلعة قدموس»

ورد اسم هذه القلعة فى مصادر تاريخية عديدة «قلعة القدموس» و هذا خطأ لأن أُل التعريف لا تدخل على اسم العلم، و الأصح أن نقول: «قلعة قدموس».

تعتبر هذه القلعة من أجمل قلاع بلاد الشام، فهى صخرة طبيعية وجدت على مرتفع يعلو ألف متر عن سطح البحر، و لا يعرف بالتحديد متى وجدت فى هذا المكان الجميل، و متى أصبحت من القلاع الدفاعية التى لا يمكن الدخول إليها إلّا من باب واحد من الجهة الشرقية، و هذا الباب يصعب الوصول إليه إلّا بواسطة السلالم.

وجّه الإسماعيليون اهتمامهم إلى امتلاك هذه القلعة، منذ أن قرروا

##PAGE=195##

إقامة إمارتهم فى جبال «البهرة»^{١٨}. و قد اعتبروها عاصمة لقلاعهم فى فترة من فترات التاريخ.

تطلّ على مسافات بعيدة من كافة الجهات، إذ يمكن منها مشاهدة أضواء ميناء طرابلس الشام و ذلك فى الليالى القمرية، كما يمكن مشاهدة جبال قبرص عند ما تكون السماء صافية.

تبعد عن بانياس الساحل ثلاثين كيلومترا إلى جهة الشرق، و نفس المسافة عن مصيف إلى الغرب، لهذا فإن موقعها يشكل منتصف الطريق بين البلدين.

ذكرت المصادر التاريخية أن «المحارزة»^{١٩} العلويين شكلوا فيها إمارة صغيرة، و لكن التاريخ المشبوه لم يقدم لنا التفاصيل أو يحدد تاريخ هذه الإمارة و المدة التى دامت، و عادت هذه المصادر فذكرت أن الصليبيين تمكنوا من احتلالها سنة

^{١٨} (1) هي جبال العلويين اليوم و تمتد من عكار جنوبا حتى اسكندرون شمالا، و من شاطئ البحر المتوسط غربا حتى سهل حمص و حماه شرقا.

١١٩٥ م، و لكن صاحبها القديم «سيف الدين بن عمرو الدمشقي» تمكن من استرجاعه أو بيعها ثانية إلى مقدم الإسماعيلية «أبو الفتح» الذي حصنها و أدخل عليها تحسينات أكثر مناعة، و لكن «بوسمند الثاني» الصليبي هاجمها سنة ٥٢٣ هـ. فردّ على أعقابها، و لم يتمكن من الوصول إليها، و في عهد الظاهر بيبرس فرض عليها ضريبة باهظة و عين عليها حاكما مملوكيا عند ما رفض أصحابها الإسماعيليون استقباله حين مروره فيها و لكن التفاهم ساد بعد ذلك، و عاد الصفاء و التعاون بين الإسماعيلية و بيبرس.

تقول المصادر الإسماعيلية، و منها كتاب «فصول و أخبار»^{٢٠} أن الإسماعيليين اشتروا «قلعة القدموس» من ابن عمرو الدمشقي بعد أن عززوا وجودهم في قلعة «مصيف» في حدود سنة ١١١٧ م، و من المؤكد أن هذه القلعة جلا عنها الإسماعيليون ثلاث مرات، و لكنهم لم يلبثوا أن يعودوا إليها . و ليس مستبعدا أن يكون المحارزة قد حاولوا امتلاكها أو ظلوا فيها فترة قصيرة.

##PAGE=196##

من الثابت أن الإسماعيلية ضموها إلى أملاكهم في جبال البهرة بعد أن تمكنوا من السيطرة على عدد من القلاع الأخرى و من القرى و القطاعات الواسعة الأخرى.

و قدموس اسم فينيقي لملك من ملوك الفينيقيين ذكر أنه «ابن آجنور» ملك فينيقيا، ذهب إلى الغرب ليسترد أخته «أوروبا» بعد أن اختطفها «زفس» فتوقف في بلاد اليونان و أدخل فيها الأبجدية و أنشأ مدينة «ثيبة» حوالي القرن الخامس عشر ق. م.

أما في الجهة الشرقية من القلعة توجد غرفة كانت مقرا لشيخ الجبل سنان راشد الدين و في الغرفة نافذة تطل على الجهة الشرقية و ربما كانت للمراقبة.

و على مقربة منها يوجد جامع كتب على بابه «أمر بتجديد هذا الجامع المبارك المولى نجم الدين بن شمس الدين».

هاجمها القائد التركي «يوسف باشا» سنة ١٢١٧ هـ. فبنى بمحاذاتها برجاً ركز عليه المدافع و قذف القلعة حتى أخرج العلويين الذين كانوا قد احتلوها.

احتلها الشيخ صالح العلي قائد الثورة السورية سنة ١٩١٩ م بناء على طلب من الملك فيصل بن الحسين و قد تمكن آنذ من إخراج الإسماعيليين منها، و لكنهم عادوا بعد عامين إليها و لا يزالون.

على بعد أربعة كيلومترات منها إلى الشرق، و في قمة جبل يطل على قدموس يوجد قبر أطلقوا عليه خطأ اسم «المولى حسن بن نزار» و هذا الإمام مدفون في «الموت» ببلاد فارس. أما صاحب القبر الحقيقي فهو الداعي الإسماعيلي «أبو الفتح محمد العراقي» المعروف «برأس الأمور».

^{١٩} (2) طائفة علوية جاءت من مصر في ظروف غامضة و كانت من أتباع الفاطميين، و قبل أنما جاءت للمساهمة في حروب الصليبيين عند قيامهم بغزو بلاد الشام

^{٢٠} (3) مخطوط تاريخي إسماعيلي تأليف «نور الدين أحمد».

و هناك على بعد يقارب من عشرة كيلومترات إلى الشرق الجنوبي، و على قمة جبل سمّوه خطأ «النبي شيت» يوجد عدد من القبور غير معروفة بأسمائها و الأرجح أنها قبور بعض دعاة الإسماعيلية.

«قلعة الكهف»

تبعد قلعة الكهف عن قدموس مسافة عشرين كيلومترا في طريق ضيق صعب الاجتياز حتى على الدواب و الأقدام، و أفضل طريق إليها هو

##PAGE=197##

قدموس - مرمدة - دليبة - المريجة - الكهف - و هناك طرق أخرى توصل إليها إلا أنها أكثر صعوبة.

تعتبر قلعة الكهف من قلاع الإسماعيلية التاريخية التي شهدت حروبا و أحداثا ففي سنة ١١٠١ م. كانت من أملاك «سيف الدين بن عمرون الدمشقي، و في سنة ١١٣٩ استرجعها صاحبها سيف الدين من الفرنجة، و لكن بعد وفاته حدث خلاف بين أولاده مما جعلهم يعرضونها للبيع، فتقدم لشرائها «أبو الفتح محمد العراقي» و حولها إلى قاعدة كبرى، و بعد فترة وصل إليها «شهاب الدين أبو الفرج» المعروف بـ أبو محمد و كانت حينئذ تابعة إلى «الموت» الفارسية عاصمة الدولة الإسماعيلية النزارية - و بعد وفاة أبو محمد تسلم الأمر في قلاع الدعوة ببلاد الشام «سنان راشد الدين» و قبل وفوده إلى بلاد الشام تولّى الأمر فيها «علي بن مسعود» دون الرجوع إلى «الموت» و كان قد أجرى اتفاقا سريّا بين الداعي «أبو منصور» ابن أخت أبو محمد و الداعي «فهد» فأوفدوا من قتل «علي بن مسعود» و بعد هذا وقعت اضطرابات عنيفة ممّا مهّد الطريق لسنان راشد الدين للسيطرة على الموقف بعد ما تمكن من اطفاء نار الفتنة العائلية.

فأخذ بتجديد بناء الحصون و تنظيم الجيش و إعداده، بالإضافة إلى إقامة مدرسة لتعليم «الفدائية» اللغات السائدة في تلك العصور و ذلك في مدينة «مصياف».

زارها سنة ١١٩٤ «هنري كونت شامبانيا»، و زارها الإمام الفاطمي النزارى «جلال الدين حسن» و كان قد أرسل الرسائل يطلب اصلاح «الحمام» فيها.

فرض عليها الظاهر بيبرس ضريبة سنة ٦٦٨ هـ. أو سنة ١٢٧٠ م و لكن كل هذا قد زال عند ما حصل التفاهم بين بيبرس و المقدم نجم الدين الشعراني داعي الإسماعيلية في بلاد الشام.

تقع «الكهف» في أرض منخفضة بالنسبة للجبال العالية التي تحيط بها، و هي قائمة على هضبة صخرية فوق واد سحيق يجري فيه نهر تتجمع فيه مياه الشتاء.

مدخلها من البوابة التي كادت معالمها تزول الآن، و قد ظهرت عليها كتابة و برز اسم الملك الظاهر، و بعد أن يجتاز الزائر هذه المواقع

##PAGE=198##

يصل إلى الحمام التي تغطيها الأشجار والأشواك و التي تهدم سقفها، فأصبح الدخول إليها عسيرا، و قد ظهرت الكتابة التالية على بابها:

«بسم الله الرحمن الرحيم ... أدخلوها بسلام آمنين ... و على الله فليتوكل المؤمنون ... أمر بعمارة هذا الحمام المبارك المولى العادل سراج الدين، و الفقير مظفر بهاء الحسين أعزه الله و نصره في ولاية العبد الفقير إلى شفاعته مواليه الأئمة الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين».

حسن بن إسماعيل العجمي الألموتي في سنة ٥٧٢ هـ

شكل الحمام مثنى الأضلاع، و قبتة متهدمة، و لم يبق منها إلا القليل، و له أربعة أبواب فوقها عقد يعلوها تحسينات جميلة، و خلف كل جدار غرفة صغيرة مستطيلة، و بعض الأجزاء الأخرى محفورة في الصخر. أما المدخل الثاني فقد نحت كليا في الصخر، و بجانبه غرفة للحرس محفورة بالصخر أيضا و هي من أعاجيب البناء، و بعد ذلك يمكن مشاهدة أبنية متهدمة و أرض صخرية حرجية و بقايا سور محيط بالقلعة، و من الجدير بالذكر أن مياه القلعة كانت تجري إليها من عين ماء غزيرة واقعة في قرية «الدليبة» و هي تبعد عن القلعة - مسافة إثني عشر كيلومترا.

تمتد القلعة مسافة ستم أمتار تقريبا و عرض يتجاوز الخمسة عشر مترا، و لا يمكن إجراء أية ترميمات فيها حاليا فهي غير مسكونة و لا يمكن ايصال الطريق إليها، و قد يتعذر نقل المواد إليها.

زارها العديد من المؤرخين و السياح و في سنة ١٩١٤ م زارها المؤرخ الفرنسي «موريس باريس» - s ?erraB «eciruaM» و كتب عنها فصلا خاصا في كتابه «رحلة إلى بلاد الشرق» «tnaveL» «ud syap xua et ?euQ nE».

«قلعة الخوايى»

قلعة اسماعيلية تابعة و مرتبطة بقلعة الكهف. تبعد عن مدينة طرطوس إلى الشمال - مسافة عشرين كيلومترا تقريبا. موقعها في منطقة متوسطة بين جبال هي أقل ارتفاعا. و على العموم فهي من قلاع الإسماعيلية المعترف عليها و المتميزة بموقعها الحربي، و قد استولى عليها الإسماعيليون بعد عامين من وصولهم إلى قلعة الكهف.

##PAGE=199##

جدد بناءها سنان راشد الدين سنة ١١٦٠ م و هاجمها «بوهمند الثاني» الصليبي؛ و كانت أهدافه، ترمى إلى التآمر لابنه من الإسماعيلية الذين قتلوه، إلا أنه رفع عنها الحصار استجابة لوساطة قام بها أمير حلب.

بالإمكان الصعود إليها على سلم حجري، و تتألف من حارتين:

الأولى: حارة سنان راشد الدين «مركز القلعة و المنطقة المحيطة بها».

الثانية: حارة السقي.

تبعد عن قدموس ما يقارب الخمسة عشر كيلومترا إلى جهة الشمال الغربى و تقوم على أرض مشرفة تحيط بها الخضرة الدائمة.

بناؤها قائم على جبل صخرى كلسى بارز مما أكسبها منعة و هيبة و ارتفاعا . لم يذكر التاريخ للأسف اسم بانيتها الأول و معنى هذا تضارب الأقوال فى أصلها، و قد عثر على آثار يونانية غير بعيدة منها.

استلمها الملك الظاهر بيبرس و عزل عنها مقدم الإسماعيلية «نجم الدين الشعرانى» ثم عين مكانه «خالد الدين بن الرضى» و فرض عليها ضريبة سنوية، و قد تمّ ذلك عند ما تمكن من فتح قلعة حصن الأكراد، و كان ذلك سنة ٦١٩ هـ أو سنة ١٢٧١ م.

احتلها سنان راشد الدين. و ضمها إلى قلاع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الشام، رّم أسوارها، و حصّنها «سنقر العجمى» ثم تسلمها «أبو بكر العليشى» بعهد «محمد بن قلاوون الصالحى» حوالى العام ٧٤١ هـ. و عند ما اصطدمت الإسماعيلية بالمحارزة كانت هذه القلعة تنتقل من يد إلى أخرى بين كر و فر، و يروى أن «محمد بن عماد الدين العلقمى» البشراغى استولى عليها مرة، و ذكر أنه أحد جدود الشيخ صالح العلى، و أخيرا انتهت إلى الإسماعيلية و ظلّت تحت حكمهم و فى ملكيتهم حتى وقت قريب عند ما باعها أصحابها و نزحوا إلى مصيف.

لقلعة العليقة سوران أحدهما ضمن الآخر، و بهذا تصبح القلعة ضمن قلعة حيث تتوزع الأبراج فيها و القناطر عليها إلّا أن الأجزاء الأخرى تبدو متهدمة.

بوابتها الرئيسية واضحة المعالم حتى عهد قريب، و كانت تغلق ليلا

##PAGE=200##

إلّا أنها تهدمت و أزيلت و لا يزال على جدرانها بقايا من شجر اللبلاب.

فيها جامع تهدمت جدرانها، فلم يبق منه سوى الأقواس المتقاطعة مع بعضها و هى تستند على دعائم بجانب بئر ماء أعلاها مرصوف بالحجارة، و فى الأسفل حفرت فى الصخر الصلب و تتسع على شكل مخروطى، و قد طليت جدرانها بالكلس، كما يوجد بئر ماء أخرى محفورة على مقربة من الحمام و هو عبارة عن حجرات مبنية بالحجارة على شكل رأس و هى نصف أسطوانية متقاطعة، كذلك يوجد فى الطابق الأرضى منها حمام جميلة و لكن يصعب النزول إليها لأن بابها الرئيسى شبه مسدود، أما سقفه فمعمود نصف أسطوانى يتخلله أقواس متقاطعة و تضم تحسينات مثلثة تحتوى على خزان ماء محفور بالصخر و سقفه من الحجارة، و قد تصدعت درجاته بفعل الزمن، كما أن جدرانها طليت بالكلس، و طوله ٨،٤٥ متر و عرضه ٦/٠ أمتار.

بوابة السور الداخلى جيدة و فريدة من نوعها و حجارتها متداخلة مع بعضها، و بالإضافة إلى ذلك تضم القلعة أقنية ضخمة جيدة البناء و عليها صور حلقات للرقص، و يبدو أن معظم الأبنية القديمة قد أزيلت جدرانها، إلّا أن معالمها لا تزال باقية، و قد عثر عليها فى القناطر و الأبراج. هناك حجر كتب عليه كلمات مهمة و لكن أمكن استخلاص ما يلى:

«أمر بتجديد هذا البرج الزردخانى المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى «سقر العجمى النيطرى» سنة ٦٧٠.

كما عثر منذ فترة على أربعة غرف كلسية بيضاء تحت الأرض و هى حاليا مطمورة و غير ظاهرة . كما أن على مقربة منها توجد مقبرة إسلامية، و تضم قبر «الشيخ محمود العليقة» و هو أحد دعاة الاسماعيليه الكبار . كما وجدت كتابة على أحد الأحجار التى تشكل برجا كبيرا و قد كتب عليها:

أمر بعمارة هذا البرج الزردخانى «شيخا جمال الدين» و هذا كان من قواد الإسماعيلية البحارة الذين خاضوا معارك بحرية كبرى ضد الأعداء الصليبيين.

«قلعة المينقة»

من قلاع الدعوة الإسماعيلية فى بلاد الشام، و تقع فى منطقة تابعة

##PAGE=201##

لمدينة «جبلة». تبعد عن العليقة مسافة عشرة كيلومترات . احتلها الإسماعيليون عند ما أرسوا قواعدهم فى قلعة العليقة و قد اعتبرت المركز الرئيسى للقطاع الشمالى الذى يضم قلعة «المهالبة» و قلعة «ميرزا» و قلعة «صهيون».

كانت مقرا للفيلسوف الإسماعيلى الداعى «شهاب الدين أبو فراس» المينقى صاحب المؤلفات العديدة و المشار إليه فيما سبق، و من الجدير بالذكر أن هذا الفيلسوف يرقد تحت أحد أبراجها.

هجرها الإسماعيليون نهائيا فى حدود سنة ١٢٠٨ م بعد معارك طاحنة.

قلعة الرصافة

تبعد عن قلعة مصيف ثمانية كيلومترات إلى جهة الغرب الجنوبى، بناها سنان راشد الدين على قمة جبل يشرف على مسافات واسعة من الجهة الشرقية و الغربية و قد اعتبرت برجا للمراقبة.

اعتبرت من قلاع الدعوة الإسماعيلية رغم صغرها، و اليوم تحولت إلى كومة من حجارة.

«قلعة مصيف»

ذكر التاريخ أن الإسماعيليين احتلوها سنة ١١٤٠ م و هذا خطأ، فهذه القلعة التاريخية احتلها الإسماعيليون عند ما جاءوا إليها من شيزر، أى فى العام ١١٠٧ م فى أغلب الظن.

اسمها فى التاريخ «مصياد» أو «مصيد» أو «مصيف» و لا أحد يدري متى أصبحت مصيف، و فى العهد التركى سميت «العمرانية».

هذه القلعة الأثرية الجميلة المبنية على صخور صلبة و المسوّرة بسور طويل لا أحد يدري من الذى قام ببنائها لأول مرة و الأرجح أن اليونانيين و الرومان و العرب بعدهم كانوا يجددون بناءها و يدخلون تحسينات عليها.

ظلت فى كافة الأوقات القاعدة الرئيسية أو عاصمة الإسماعيليين فى بلاد الشام . اتخذها سنان راشد الدين قاعدة له، و فيها عقد اجتماعه مع صلاح الدين الأيوبي حيث عقدت راية الصلح بعد عداء كاد يشعل حربا.

لا تزال تعتبر مركز التراث الإسماعيلى القديم.

قلعة شيزر

فتحها أبو عبيدة بن الجراح سنة ٦٣٨ م. قلعة قديمة تقع إلى الغرب

##PAGE=202##

الشمالي من مدينة حماه، على ضفة نهر العاصى الغربية و هى موقع حصين يتحكم بوادى العاصى و يسيطر على الطريق الداخلية التى يسلكها المغيرون من الشمال و خاصة الصليبيون و الروم أيام الحروب.

موقعها الحربى جعل لها أهمية كبرى بالنظر لقربها من حماه و أفاميا و إشرافها على سهل الغاب و على قلعة «المضيق» التى تعتبر متممة لها .. و هذه الهضبة التى تقوم عليها شيزر تسمى «عرف الديك» نظرا لبروزها و ارتفاعها و زاد فى منعها و ارتفاعها أن نهر العاصى يحيط بها من جهاتها الثلاث، و كانوا قد حفروا خندقا فى الصخر يقطعها عن البر و أقاموا فوقه جسرا يصلها به حين يرغبون.

وقعت بأيدي البيزنطيين، ثم استردها العرب، و قد تداولها العرب و الصليبيون مرارا إلى أن احتلها الإسماعيليون و كانوا قد قدموا من حلب، فظلت بأيديهم فترة طويلة.

كما وقعت فى يد عز الدين سديد الملك أبو الحسن على جد «أسامة ابن منقذ» بعد أن أقطع بنى منقذ الاقطاع الذى ذكر فى جوارها و ضمها إليه.

داهمها زلزال سنة ٥٥٢ هـ فهد أركانها و دمرها تدميرا قضى على أهلها . و حاصرها الروم سنة ٥٣٢ هـ و نصبوا عليها المنجنيقات.

و هاجمها الاسماعيليون و احتلوها سنة ٥٠٣ هـ و كانوا قد تسللوا إليها من حلب، و احتلها جيش الفاطميين بقيادة جعفر بن فلاح و منها ذهب إلى انطاكية لحرب الروم . و احتلها جيش الحاكم بأمر الله عند ما طرد منها الصليبيين و الروم . و احتلها القرامطة بقيادة الحسن بن زكرويه صاحب الخال. كما احتلها القائد الفاطمى جوهر الصقلى.

تبعد عن حماه / ٢٨ / كيلومترا.

ظل سكانها من الاسماعيليين من آل غيبور، و حيدر، و زريق و غيرهم حتى جاء عهد الاقطاع فجلاهم عنها.

##PAGE=203##

الإسماعيلية في شمالي إفريقيا

##PAGE=205##

الفتح العربي شمالي أفريقيا

خرج عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري لغزو أفريقيا الشمالية في عشرين ألف رجل و ذلك في عهد الخليفة الثالث «عثمان ابن عفان»، و عند ما وصل إلى طرابلس الغرب، وجد الروم قد تحصنوا فيها فتركهم و سار باتجاه شاطئ البحر، حيث هاجم السفن الراسية في الشاطئ. فتمكن من الاستيلاء عليها، و على ما فيها من المتاع، و السلاح، و المؤونة، ثم رحل إلى «قابس» و كان الروم قد تحصنوا فيها، فدخلها دون قتال، ثم أكمل طريقه حتى وصل إلى شمالي أفريقيا، و هنالك واجههم ملكها «جرجير» بمئة و عشرين ألف مقاتل، فعرض عليه ابن سعد الدخول في الإسلام، فامتنع لما رأى أن الكثرة التي معه قادرة على سحق القلة المسلمة، و أقسم في ذلك الوقت أن يزوج ابنته بمن يأتيه برأس عبد الله بن سعد، و لكن القائد عبد الله ابن الزبير، استطاع أن يتسرب إلى قصر جرجير مع ثلاثين من أصحابه سالكا طريقا اعتاد أن يسلكه الجند في الوصول إلى الملك، فلما وصل ابن الزبير و أصحابه إلى القصر ظن الملك أنهم من جنوده، ففاجأوه و قتلوه . و بعد ذلك حمل المسلمون على عساكره فهزموهم و لاحقوهم في السهل و الوعر حتى أبادوا أكثرهم و غنموا غنائم كثيرة من الأموال و الحلوى و الذهب و اعتقلوا ابنه الملك جرجير و قادوها إلى ابن سعد فسألها عن قاتل أبيها فأشارت إلى ابن الزبير فأعطاهما له.

و في عهد يزيد بن معاوية ولى عليها عقبة بن نافع، فذهب إلى القيروان، و خلف فيها ولده مع البعض من جيشه، و رحل مع عسكر عظيم إلى «باغاية» فقاتل أهلها قتالا عظيما و هزمهم، و منها يمم شطر «حمس» فهزم أهلها، و دخل «الزاب»، و ظل متقدما حتى وصل إلى

##PAGE=206##

«تاهرت» فوجد عليها جموعا من البربر و النصاري فأوقع بهم، و هزمهم، و دخل «لواتة» و «هواره» و زواغة» و «مطماطة» و «زناتة» و «مكناسة»، و بعد أن فرغ من احتلال المغرب الأوسط دخل إلى المغرب الأقصى و ذلك سنة ٦٢ هـ. فوصل إلى «طنجة» و كان عليها «يليان» فاستأمنه، و منها ذهب إلى مدينة «وليلة» بقرب «فاس» [قبل بناء فاس] فهزم جموع البربر و اتبعهم حتى «درعة» ثم نزل إلى الصحراء و من «درعة» إلى «تلمسان» حيث تم له دخول «صنهاجة» و هناك نزل على «أغمات» ثم على «نفيس» ثم «وادي السوس» و سلك «ماجة» ثم «جرجارة» ثم «صورة» و «ايصرول» و «سرنو».

و فى سنة ٦٩ هـ أرسل عبد الملك بن مروان حسان بن نعمان الغساني فى أربعين ألف فسار حتى وصل إلى «القيروان»، و فى سنة ٨٩ هـ أرسل الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير إلى الأندلس، فأرسل موسى ابنه مروان إلى السرس الأقصى، و أرسل «زرعة بن أبى مدرك» إلى قبائل البربر، فطوقهم، وأخذ رهائن من «كتامة» و «زناتة» و «هواره» ثم ولى عليهم طارق بن زياد و عاد إلى أفريقيا.

فى عهد الدولة الفاطمية التى نكتب تاريخها، كانت بلاد شمالى أفريقيا مكوّنة من شعوب غريبة غير متجانسة، و من عناصر، و قبائل مختلفة لم يكن بالأمر السهل دمجها فى وحدة شاملة، أو إخضاعها لنظام عام . فطبيعة البلاد الجغرافية، و توزيع السكان فى المناطق، و انتشار القبائل بعضها فى أمكنة صالحة، و بعضها فى أمكنة صعبة، كل هذا وقف حائلا دون إيجاد العلاج الناجع. فالوحدة التامة كانت غير ممكنة التحقيق كما قلنا، كما أن إخضاع هذه القبائل و الشعوب إلى سلطة عليا، و دمجها فى دولة واحدة، ضرب من المستحيل، و من هنا انبثقت المتاعب و أطلّت المصاعب بوجه كل مصلح، أو أى إنسان يتصدى لعمل الخير . و فى عهد الخليفة الفاطمى الثانى «القائم بأمر الله» برزت إلى الواجهة السياسية المغربية قبيلة «صنهاجة» و هى فرع من قبيلة «زناتة» فانهازت إلى الفاطميين، بعد أن رأت أن القبائل الأخرى - أى شقيقتها - قد اتخذت سياسة معادية للفاطميين، فانهازت إلى جانب الأمويين، فزعيم «صنهاجة» زيرى ابن مناد هرع إلى مصالحة «كتامة» و الدخول معها فى حلف تحت سلطة الفاطميين، و ذلك ردا على زعيم آخر كان ينازعه السيادة هو

##PAGE=207##

محمد بن خزر، الزناتى زعيم قبيلة «مغراوة» فى المغرب الأقصى الذى أعلن الولاء للأمويين . و من الجدير بالذكر أن هذه المناورات، و الثقلبات دامت وقتا طويلا، فكانت شغل الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله فى بداية عهده، كما كانت شغل الخليفة الأموى الناصر صاحب الأندلس.

هذا غيض من فيض، و لمحة عابرة عن الفتح العربى لبلاد أفريقيا الشمالية، و قد كان علينا أن نشير إليها باختصار، بالنظر لعلاقتها بموضوع كتابنا، و حتى لا يفوت القارئ شىء من كل ما له صلة بالفاطميين.

قبائل شمالى أفريقيا

«البربر» قبائل عديدة، و شعوب مختلفة نزلت فى أفريقيا الشمالية، و امتدت أوطانها من حدود «برقة» حتى المحيط الأطلسى. و من المعلوم أنهم كانوا يتكلمون لهجات مختلفة قبل استعراهم و لا يزالون حتى الآن، أما أصلهم فيرجع إلى عناصر عرقية مختلفة استقرت فى تلك البلاد قبل الميلاد، و عرفت منها «مملكة نوميديا» أى «موريتانيا» اليوم.

اختلف بهم الفينيقيون و اليونان اختلاطا عابرا. و من الواضح أنهم لم يرتاحوا فى حياتهم إلى حكم روما، و لا قبلوا الديانة المسيحية، فمالوا عن الأولى، و الثانية ... اشتهروا بانحيازهم «للفاندال» و تسهيل مهمتهم عند ما اقدموا على غزو أفريقيا، و لم يسالموا البيزنطيين. دخل قسم كبير منهم فى الإسلام مع عقبة بن نافع، و رافقوا الجيش العربى فى فتوحاته إلى أسبانيا بقيادة طارق بن زياد كما أنهم اتبعوا الخوارج، و أعلنوا فى أكثر الأوقات عصيانهم على العباسيين . و هم ينقسمون إلى ممالك و سلالات منها: الاغالبية، و الرستميون، و المرابطون، و الموحدون ... و هذه الممالك زالت جميعها فى أواخر القرن الثالث عشر ميلادى، فاختلط أهل المدن منهم بالعرب، و اعتصم الآخرون بجزال الأوراس و الأطلسى و فى الريف، و بلاد

القبائل، و الصحراء، حيث لا يزال القسم الأكبر منهم يحافظ على عاداته، و لهجاته، و تقاليده، اشتهروا بحبهم للقتال، و تعودوا على شطف العيش، و الحياة القبلية القاسية التي اكسبتهم التمرد، و عدم الاخلاص للنظام ... نفوسهم متأهبة دائما و أبدا للمخاطر، و ركوب متن

##PAGE=208##

الأهوال. فأخلاقهم على العموم لا تعرف اللين، و من المؤكد أنهم دون العرب حضارة، و أن للعرب الفضل الأكبر عليهم، و لكن بالرغم من كل هذا فإنهم ينظرون إليهم نظرتهم إلى عدو مستعمر جاء إلى بلادهم فاتحا . أما تزودهم من الحضارة الإسلامية فلم يكن على المستوى المطلوب.

إن أعظم قبائلهم، و أكثرها عددا هي «صنهاجة» و هي من قبائل «البرانس» و أوفرها شدة و بأسا و استعدادا للقتال، و تتفرع من «زناته» التي هي مجموعة من القبائل . و يتفرع من «صنهاجة»: الطوارق، و الهقار، و المثلثون ... و هؤلاء لعبوا دورا كبيرا في قيام دولة المرابطين، و تأتي بعدهم «كتامة» و هذه القبيلة اعتنقت المبادئ الإسلامية على يد «أبو عبد الله الشيعي» و قاتلت مع الفاطميين عن عقيدة و إيمان.

دول شمالي أفريقيا في عهد الفاطميين

عند ما قامت الدولة الفاطمية في شمالي أفريقيا، كانت هناك دول ثلاث تبسط نفوذها على تلك الأرض الواسعة و هي:

«بنو الأغلب» في المغرب الأدنى، و المغرب الشرقي، و «بنو رستم» في المغرب الأوسط، و «الأدارسة» في المغرب الأقصى. و من مجريات الأحداث يظهر أن الأولى، و الثانية، ما لبثتا أن انقرضتا بمجرد أن سطع نجم الدولة الفاطمية. أما الثالثة فقد حافظت فترة غير قصيرة على ممتلكاتها. و من الجلي الواضح أن «بنو الأغلب» كانوا في حالة انحطاط عند قيام الدولة الفاطمية، فلم يتمكنوا من الصمود أمام الفتح الفاطمي الذي استهدف بلادهم في وثبتهم الأولى . إن عاصمة بلادهم كانت «القيروان» و أحيانا «رقادة» و سلطتهم كانت تمتد حتى «قسنطينة» و من الثابت أن الثورات الداخلية من قبل العشائر في ممتلكاتهم لم تكن لتهدأ، و هكذا الاغتيالات، و الاضطرابات، و المآمرات.

أما «بنو رستم» فكانت عاصمتهم «تاهرت» و كانوا يحكمون المناطق الصحراوية «الجزائر اليوم» و كانت علاقاتهم ودية مع جيرانهم «الزناتيين»، و من الغريب أن هذه المملكة كانت سريعة الزوال، لم تقو

##PAGE=209##

على الصمود، و لو يوما واحدا بوجه الفاطميين .. و هناك مناطق أخرى كانت تحكمها إمارات صغيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى، «فبنو مدرار» في «سجلماسة» و ما يتبعها، و هناك على شاطئ المحيط الأطلسي إمارة «برغواطة» و إمارة «نكور» .. أما بقية البلدان الأخرى، فكانت خاضعة لسلطان «الأدارسة» الذين يرجع نسبهم إلى إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب و إدريس هذا دخل المغرب في سنة ١٧٠ هـ. في إمارة يزيد بن حاتم في أفريقيا، و إمارة هشام بن عبد الرحمن الداخل في قرطبة، و في فترة ظهور «بنو مدرار» في «سجلماسة» كان نزوله «بوادي الزيتون» بمدينة «البلد» و قيل في ضواحي «طنجة» .. أما سبب هجرته إلى شمالي أفريقيا فتتلخص بأن الحسين بن علي

بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أقام في المدينة المنورة في أيام موسى الهادي العباسي، ثم خرج منها، و معه جماعة من أهلها و بنى عمه و منهم ادريس، فبعث الهادي إليهم «محمد بن سليمان بن علي» فحاربهم «بفخ» و قتل الحسين . أما ادريس فقد تمكن من الفرار و التوجه إلى مصر، و كان على بريدها رجل يسمى واضح مولى صالح بن منصور فحملة على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بمدينة «و ليلة» من أرض طنجة و هناك أعلن عن نفسه و نسبه . فاستجاب له بعض قبائل البربر، و يذكر التاريخ أنه توفي سنة ١٧٥ هـ . فخلفه مولاه «راشد» على البربر، و من الجدير بالذكر أن ادريس ترك جارية بربرية اسمها «كنزى» فولدت له غلاما سمى باسم أبيه، و عرف بادريس الثاني سنة ١٨٧ هـ . و كان له من العمر أحد عشر عاما . و بعد أن استتب له الأمر أسس مدينة «فاس» و كانت عدوة القرويين غياضا في أطرافها بيوت من «زواغة»، ثم أنه غزا «انقرة» و وصل إلى تلمسان ثم رجع لواصل الزحف حتى «وادي نفيس» و بلاد «المصامدة»، و أخيرا مات مسموما في سنة ٢١٣ هـ . بعد وفاته تسلم ابنه محمد، ففرق البلدان الخاضعة له على اخوته بناء على أوامر جدته «كنزى» فأعطى «طنجة» و ما يليها للقائم، و أعطى «صنهاجة» لعمر، و «هواره» و «تاملت» لداؤود كما أعطى عيسى و يحيى و عبد الله بلادا أخرى.

و من الأمور البارزة في تلك الفترة أن عيسى خرج عن طاعته و ثار عليه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم يأمره بمحاربتة، فامتنع و عاد فكتب إلى عمر فأجابه، و سارع إلى نصرته.

##PAGE=210##

توفي عمر في إحدى بلدان «صنهاجة»، و نقل إلى «فاس» و هو جد «الحموديين»، و بعد محمد تولى يحيى، و هذا من جهته ولى أعمامه و أخواله إدارة بعض البلدان التابعة له، فأعطى حسين الجنوب من مدينة «فاس» إلى «أغمت»، و ولى داؤود المشرق من مدينة «فاس» و «مكناس» و «هواره». و ولى القاسم غربى «فاس» و هى «و لهاتة» و «كتامة». و من المشهور عن يحيى أنه كان منهمكا بالشراب، و محبا للنساء . و بعد يحيى توفي على بن عمر بن ادريس و هو صهره و ابن عمه، و فى عهده قام «عبد الرزاق» الخارجى من مدينة «مديونة» و أعلن الخروج عليه، ثم قاد جيشا، و استولى على «فاس» و بعدها ملك «عدوة الأندلسيين» .. و هنا اجتمع الأدارسة و قدموا «يحيى بن القاسم بن ادريس» عليهم و كان يلقب «المقدام» فملك «عدوة الأندلسيين»، و أخرج منها «عبد الرزاق» و لكنه قتل أخيرا سنة ٢٩٢ هـ على يد ربيع بن سليمان و بعد موته عاد الأمر إلى بنى «عمر بن ادريس» و ظل نفوذهم قائما . و سلطتهم موجودة إلى حين قدوم القائد الفاطمى، مصالة بن حبوس فى سنة ٣٠٧ هـ . و فى تلك الرحلة و طد مصالة صداقته مع موسى بن أبى العافية و سلمه جميع ما استولى عليه من بلاد المغرب الأقصى.

بعد هذا لم يتوقف يحيى بن ادريس صاحب «فاس» عن الإغارة، فلمّا عاد «مصالة» احتل «فاس» و أقام فيها مدة خمس سنوات، و كان موسى بن أبى العافية يسعى إلى إلحاق الأذى بيحيى و يتهمه امام «مصالة» بالخروج على الفاطميين؛ و الاتصال سرا بالأمويين، و هذا ما جعل مصالة يقبض عليه و يبعده من «فاس». و بعد ذهابه تولى موسى شؤون البلدان التى كان يحكمها. و فى سنة ٣١٠ هـ . جاء حسن بن محمد الحجام، فأوقع بموسى فى إحدى المعارك و قتل ولده «منهل» و ملك «فاس» و ما يليها لمدة سنتين، و لكن حامد بن حمدان الهمداني اللوزى عارض و استولى على المدينة، ثم قبض على حسن، و أخبر موسى بذلك، فخفف إليه . و دخل فاس ثم قتل حسنا انتقاما لولده «منهل». و بدلا من أن يكافىء حامدا على فعلته هدهد بالقتل، فاضطره إلى الفرار و الالتحاق بالمهدية، كما أنه رحل جميع أفراد أسرة الأدارسة و وضعهم فى مدينة «حجر النسر»، و هو حصن منيع بناه إبراهيم بن القاسم بن ادريس. و فى سنة ٣١٧ هـ استخلف موسى

ابنه «مدين» على «فاس» فظل فيها حتى حين قدوم القائد الفاطمي حميد بن يصال الذي قتل ابن موسى، و ولى مكانه على فاس، حامد بن حمدان. و مما يجب أن نذكره أن موسى بن أبي العافية قد خطب للخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر بعد أن خلع طاعة الفاطميين في كل البلدان التي كانت تخضع له في المغرب الأوسط، و الأقصى، و لكن تلك الخطب لم تلبث أن انقطعت بعد ذهابه.

بين الفاطميين و الأمويين

العداء المستشري بين الفاطميين و الأمويين، قديم و أسبابه باتت معروفة و لا فائدة ترجى من سردها هنا، و لكن العداء هذا، سرعان ما انتقل من المشرق إلى المغرب بشقيه الشمالي، أى الأندلس و الجنوبي أى بلاد المغرب . و على الرغم من نظرة الأفارقة، سكان البلاد الأصليين، إلى حكام الفريقين، على أنهم غزاة قدموا بلادهم فاتحين و مستعمرين، فإن التاريخ يروى كيف أخذ ذلك العداء يتطور و يكتسب أبعادا فائقة الخطورة، فالحكم الأموي في الأندلس، لم ينظر بعين الرضا إلى الدولة الفاطمية التي قامت على حدوده، تقاسمه النفوذ و تسدّ عليه الآفاق، و هنا اكتسب الكره التاريخي القديم أسبابا جديدة و صار للتراث القديم ذرائع جديدة تبررها.

لقد خشى الأمويون من خطر الدولة الفاطمية و امتداد رقعتها، فاستنفروا جيوشهم، و استخدموا عيونهم لا بل خصصوا أجهزة عديدة لمراقبة كل ما يصدر من حركات عدائية من قبل الفاطميين، فضلا عن اتخاذهم زمام المبادرة لتمويل الحركات الثورية، و الانتفاضات الداخلية التي تنبثق ضد الفاطميين، و ذلك بالأموال، و السلاح، و العتاد، و أحيانا بالرجال، و مع كل هذا فإن الحيلة و الخوف من هجوم مباغت كان الهاجس الأول.

كانت الدولة الأموية، و خاصة في عهد عبد الرحمن الناصر غنية بمواردها و أموالها، و لكنها لم تكن غنية بالهدوء، و الأمن، و الاستقرار.

فالموآمرات كانت تحاك في وضح النهار، و الروم في الشمال يعملون على توسيع دائرة أملاكهم، و النفاد إلى الجنوب خاصة بعد أن تمت لهم السيطرة على «برشلونة»، و ظهرت الإمارات المسيحية في الأقاليم الشمالية بمظهر المعارض العنيف، و المطالب بالحاح بالاستقلال

و الحكم الذاتي، و لكن كل هذا كان بالنسبة للأمويين حركات عادية لا خطر منها على الدولة، و إنما الخطر على الدولة كان يكمن في نوايا الفاطميين المتطلعين إلى الماضي و إلى التارات القديمة.

و من الأمور التي يجب أن ننظر إليها من الزاوية التاريخية إن الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لم يحاول و لا طمح إلى فرض سيادته على المغرب، أو أى جزء من أجزائه إلى دولته الأندلسية، بل كان جلّ ما فعله إنه استولى على سبتة و طنجة راميا من وراء ذلك إلى اتخاذهما نقطة دفاعية أو درعا يقيه من أى هجوم فاطمي محتمل على الأندلس . و كان الناصر يقول للمقربين منه أنه لو افترض بأ ن عبد الله المهدي لن يقيم في هذا الجنوب فمن يكفل سكوت ولى عهده «القائم بأمر

الله» فيما بعد لقد كان الخليفة الأموي في قرطبة يتبع بالنسبة لأفريقيا الشمالية نفس السياسة التي كان يتبعها بالنسبة للملوك المسيحيين، فلا اعتداء، ولا ضم أراض جديدة لدولته، بل الوقوف موقف الدفاع عن النفس، والاكتفاء بالوضع السائد المتمثل بالدفاع عن كيان دولته، وحدودها الطبيعية، واجتذاب الناس عن طريق اللين، والتعايش السلمي، مع مبدأ إشغال الفاطميين بقضايا داخلية، وتمويل الحركات التي تقوم ضدهم، مما يعوقهم عن التفكير بغزو الأندلس، فخوفه من الفاطميين كان هاجسه الأول، بل كان يقض مضجعه كلما خلا إلى نفسه، وتذكر الانتصارات الفاطمية في شمالي أفريقيا، وكل هذا كان يدعوه إلى التساؤل: ماذا كان على أن أفعل لو أن عبد الله المهدي بدلا من أن يرسل ولي عهده القائم بأمر الله إلى مصر لاحتلالها، أرسله إلى الأندلس للغرض نفسه ولا سيما وأنه صار يمتلك أسطولا بحريا لا يقاوم فضلا عن جيوشه البرية الجرارة؟ فضلا عن تمويل ثورة عمر بن حفصون الذي أعلن العصيان في قلعة «بشتر» عند ما عرض عليه خدماته، ونادى باسمه في مقاطعته، وكان يردد على أصدقائه ما معناه: أن الأندلس لم تكن يوما من الأيام أقوى من دولة بني الأغلب، أو بني رستم، أو الأدارسة، وهذه الدول سقطت بسرعة أمام ضربات الفاطمية الأولى.

إن سكوت المهدي عن الأندلس، وقوفه منها هذا الموقف مدعاة للتساؤل ولعله من الأسرار التي لم يكشف عنها التاريخ العربي،

##PAGE=213##

ولعل المهدي، ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين اتخذوا لأنفسهم مبدأ يقوم على إقامة دولة تبدأ حدودها من شواطئ المحيط الأطلسي، وتنتهي في أطراف الخليج العربي ... فخطتهم كانت ترمي إلى منافسة الأمبراطورية العباسية بضم مصر وبلاد الشام، وجعل مكة المكرمة قاعدة للخلافة الإسلامية، كما كانت في عهد الرسول الكريم محمد «ص». أما الأندلس فيأتي حسابها في المرحلة الأخيرة.

وهناك احتمال آخر، وهو أن وصول الجيوش إلى الشرق كان أسهل، وأقل كلفة، حيث أن الأوضاع العامة في هذه البلدان كانت موشكة على السقوط من دون كبير عناء، والمهدي والخلفاء الفاطميون الذين جاؤوا من بعده كانوا يحنون إلى الشرق حيث ولدوا وترعرعوا ...

فهناك مصر، ودمشق، وبغداد أخيرا . وقد يكون بناء «المهدية» من قبل المهدي، وجعلها على ساحل البحر من الأمور التي درسها ونفذها بعناية. إذ عن طريقها البحري عبر صقلية يستطيع أن يصل إلى القسطنطينية من جهة . ومن جهة ثانية عبر مصر ودمشق بحيث تصبح بغداد تحت الحصار، ولكن عبد الله المهدي مات قبل أن يحقق هذا الحلم، وكانت الثورات الداخلية تندلع فتصدع عن احتلال مصر، فالشام التي كانت هدف الفاطميين منذ وصولهم إلى شمالي أفريقيا، ولكن لا القائم بأمر الله ولا خليفته «المنصور بالله» وسعهما بلوغ تلك الغاية، فلقد حالت ثورة الخوارج بينهما وبين ما تمنياه، ولكن «المعز لدين الله» الخليفة الفاطمي الرابع هو الذي حقق المرام فاحتل البلاد المصرية والشامية و صار قاب قوسين أو أدنى من العراق تحت الخلافة العباسية.

##PAGE=214##

الاسماعيلية في شمال أفريقيا

ضرب أئمة الإسماعيلية ودعاتهم المستورون الذين عاشوا في مدينة سلمية الرقم القياسي في استنباط أساليب الدعاية لنظامهم، ونشر التعاليم والمبادئ ... وهذا هو تاريخهم يطفح بالعدد الوافر من الانتصارات التي حققوها بسرعة مذهلة. و يحدثنا أيضا بأنهم منذ أن حطوا الرحال في سلمية، لم يدخروا وسعا، ولم يتقاعسوا عن تنفيذ المهمة الأساسية بإرسال الدعاة المتقنين إلى المناطق البعيدة للدعاية والتأسيس، وقد ذكرنا أن أولى الطلائع كانت سنة ١٢٥ هـ.

ففي ذلك العام أرسل الحلواني وأبو سفيان إلى شمالي أفريقيا، وبعدهما منصور اليمن، وابن الفضل إلى اليمن خاصة.

و يشاء حسن الطالع أن يتعرف الإمام الحسين بن أحمد (الأهوازي) وهو في موسم الحج إلى الحسن بن أحمد بن زكريا الذي عرف بتاريخ اليمن فيما بعد بأبي عبد الله الشيعي أو «الصنعاني» أو «الصوفي» أو «المعلم». وأبو عبد الله هذا يمني الأصل، كان يعيش في بغداد، ويتولى وظيفة أعمال الحسبة، فأنس إليه الأهوازي، وتوسم فيه خيرا، بل وجد فيه ضالته المنشودة، وبعد سلسلة من اللقاءات أقنعه بصواب فكرته، وبصحة مبادئه، وعرض عليه فكرة الذهاب إلى اليمن، والاتحاق بالداعي منصور اليمن للتمرن على يديه، فقبل أبو عبد الله المهمة بعد اقتناعه بصوابها، ثم أنه التحق به، ولازمه وعاونه، وتعلم منه كل ما يتعلق بمهمته وعمله، وبعد مضي فترة قصيرة تمكن من الحصول على ثقته وتقديره، وأصبح موضع سره، ومن المقربين إليه، ولما كان منصور يعلم بأن منصب رئاسة الدعوة في المغرب أصبح شاغرا بعد وفاة الحلواني وأبي سفيان، فإنه عهد إليه بشؤون الدعوة في المغرب، وزوده بالتوصيات، والمعلومات، والأموال، وكل ما يحتاج إليه. فغادر اليمن إلى الديار الحجازية - وفق خطة مرسومة، وأقام فيها فترة، وهو يخفي مهمته إلى أن حان وقت وفود الحجاج إلى المدينة، ففي تلك الفترة بذل نشاطه، ونفذ خطته. فاتصل بحجاج قبيلة كتامة المغربية، وتحدث إليهم طويلا، فأعجبهم علمه، وتفكيره، وبعد نظره، فاطهروا له رغبتهم باصطحابه إلى كتامة لقضاء

##PAGE=215##

مدة بينهم، يتولى في خلالها تعليمهم، وتزويدهم بالعلوم والمعارف، وقواعد الدين .. فأعلن لهم عن تردده مظهرا انشغاله بأمور أخرى، ولكنه نزل أخيرا عند رغبتهم، ووافق على طلبهم، وكان تردده مناورة أخفى وراءها أغراضه ومراميه، فازداد تعلقهم به يوما بعد يوم، واجتمعوا على محبته، والانضواء تحت إرادته، وخاصة بعد ما رأوا فيه من الورع، والتقشف، والصدق، والرجولة، ما لم يروه لدى غيره من الرجال. وتذكر المصادر التاريخية إنه سار معهم عن طريق مصر، ولكنه هنا أظهر لهم رغبته بالعودة إلى وطنه، وإلغاء الرحلة، وعند ما تقدم لوداعهم ظهرت عليه علامات الحزن والأسى، فشق عليهم فراقه، ولم يتمالكوا أنفسهم عن ذرف الدموع، وسألوه قائلين:

«ففيما كان قدومك معنا إلى مصر إذن؟ أو ما كان بوسعك سلوك طريق غير هذه؟» فقال لهم «إنما أنا رجل يحتاج إلى علم يستفيد منه، وهذا ما حملني على ترككم غير كاره» فأعادوا الكرة عليه، والحواء، وسألوه الوفاء بالوعد، وما زالوا به حتى أجابهم إلى طلبهم، فاستأنفوا السير حتى بلغوا كتامة.

وصل أبو عبد الله إلى منطقة «كتامة» سنة ٢٨٨ هـ. فتمكن في فترة قصيرة من الإحاطة بكل شيء من أحوال هذه القبيلة الكبيرة، والوقوف على رغباتها وآمالها، فاستغل هذه الإدراكات وجعلها منطلقا للنفاذ إلى أهدافه وآماله، فلقد عرف منذ الأيام الأولى اشتياقهم إلى حمل السلاح، وشن الحروب، وافتتاح البلدان ومناهضة الملوك والحكام المستبدين الذين يعكرون صفو حياتهم، ويسئون معاملتهم، ويشيعون في أرجاء بلادهم الظلم والفساد.

تذكر المصادر التاريخية الإسماعيلية أن أبا عبد الله بعد أن استقرّ في بلاد كتامة سأل ذات يوم أصحابه : أين «فج الأخيار»؟ فدلوه عليها . فقصدها، و هي قرية صغيرة تقع في سفح جبل «ايكجان» القريب من «قسطنطينة»، وهناك، و على مسمع من الرجال الذين رافقوه .. قال لهم:

هذه «فج الأخيار» و ما تسمّت إلّا بكم، فلقد جاء في الأخبار أن للمهدى المنتظر هجرة يجلو بها عن الأوطان، و ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان .. قوم اسمهم مشتق من «الكتمان» و لخروجهم من هذا الفج سميت «فج الأخيار» ...

##PAGE=216##

فتندرت بأقواله القبائل، و أتته البربر من كل مكان، و عظم أمره فيهم، و هرعت القبائل إليه طائعة مستسلمة مليية رغباته، عارضة خدماتها، راجية إنزاله في ضيافتها . و من الجدير بالذكر ... إنه اتخذ من «فج الأخيار» دارا له، و منطلقا لتوجيه دعائه، متخذا من كل هذا ذريعة للاجتماع في كل عام بالحجاج المسلمين الذاهبين، و العائدين من الأندلس، و شمالي المغرب الأقصى، و بالرغم من تحقيق هذه الانتصارات الدعائية، و كسب التأييد المطلق من القبائل، فإن طريقه كان مليئا بالعثرات، محفوا بالمصاعب .. فهناك الفقهاء و العلماء، و رجال الدين الذين نازعهم الحسد، و تسرّب إليهم الخوف على مراكزهم و وظائفهم، ممّا جعلهم يزرعون المصاعب في طريقه، و يضعون العقبات، و يختلقون الاشاعات و كانوا قد علموا بما يتمتع به من حب و تقدير، و ولاء مختلف طبقات الشعب، و لكن أبا عبد الله تغلّب عليهم بما أوتيته من علم و فصاحة، و بيان و قدرة على مجابهة الأحداث، و كل هذا شجع الداخلين في طاعته على مضاعفة الولاء و الطاعة، و هكذا توافدت الناس على تأييده، و الأخذ بناصره، فقوى أمره، و استقام له البربر خاصة، و عامة «كتامة».

إن الأعوام الثمانية التي قضاها أبو عبد الله من سنة ٢٨٨ هـ إلى سنة ٢٩٦ هـ. كانت أعوام جهاد و نضال، سلك في خلالها سياسة الحزم، و الحكمة، و القوة، إلى جانب اللطف و الليونة . فبنى و اكتسب المؤيدين و الأنصار، و أصبح أخيرا الرجل الأول في منطقة البربر، و البربر شعب عرف بحبه للقتال و للغزوات، و اقتحام المخاطر، و ركوب متن الأهوال، و الصعاب في سبيل الحصول على العيش الكريم، و الحياة الأفضل، و كانوا بالإضافة إلى كل ذلك شديدي الخشونة لا يرحمون من يتصدى لقتالهم، أو النيل منهم، فحب السيطرة و فتح البلدان، و توسيع رقعة أرضهم، و بسط نفوذهم ، ناهيك بنقمتهم على الملوك و الأمراء، و على غطرتهم، و انحرافهم عن نهج العدالة .. كل هذا عرفه أبو عبد الله و وعاه، فضرب على هذا الوتر، و أثار حماسهم و حميتهم بكلماته، و عباراته، و بيانه مذكرا بأوضاعهم، و ما هم عليه من الفقر و الضيق و شظف العيش، و الحرمان في حين يتمتع الحكام، و من يتبعهم بخيرات الأرض، و يعيشون حياة البذخ، و الترف، و ساعد في هذه النعمة أوضاع بلادهم العامة و موقعها الجغرافي في جبال

##PAGE=217##

عسيرة جرداء، و بقاع - رملية، و تلال متناثرة خالية مجدبة لا شجر فيها، و لا ماء، و لا حياة، فهذه الأرض لا يمكن أن تمدهم بما يحتاجون إليه من أمور الدنيا، و بما يكفل لهم تجاوز المحن القاسية، مضافا إلى ذلك عدم صلاحها لأن تكون صلة الوصل بغيرها من الأمم، أو مكانا لاستقبال المدينيات، و الحضارات، و الثقافة، اللهم إذا استثنينا ذلك السهل الضيق الذي يتاخم البحر الأبيض المتوسط، الذي كان أكثر سكانه من عروق مختلفة فمنهم : القرطاجيون، و الاغريق و الروم و العرب. و في الواقع لم يكن خروجهم على الولاة، و قيامهم بالثورات، و معارضتهم للأوضاع، و تأهبهم للحروب، و

للغزوات، ناتجا عن اعتقاد ديني، أو عن نزعة عنصرية، بل كان سببه ال ظلم، و التعسف، و الفساد، و الاضطهاد، و لجم الحريات، و فرض الضرائب الفادحة المنهكة و الاستثثار بشؤونهم، و مقدراتهم، و حياتهم، و يضاف إلى ذلك أنهم لم يجدوا من يقدر أوضاعهم، أو يعمل على إنصافهم، و انتشالهم مما يعانونه، فكل هذا كما يظهر ساعد أبا عبد الله على النجاح في مهمته، و مهد له السبيل للوصول إلى أهدافه، فجعلهم يتسابقون إلى السير وراءه، و اللجوء إلى كنفه معتبرين أن الله أرسله إليهم كمنقذ، و قائد يقودهم في طريق الحياة المعبد الصالح، و ينتشلهم من براثن الفقر و الحرمان، و يبعد عنهم ظلم الأمراء و الحكام، و يفتح أمامهم الآفاق الواسعة، و لهذا عاهدوه، و محضوه ثققتهم، و تجندوا- تحت قيادته، و انطلقوا أخيرا إلى الفتح، و إخضاع المدن و القرى إلى دولتهم المرتقبة.

ففي سنة ٢٩١ هـ، بدأ أبو عبد الله أعماله الحربية، فانطلق على رأس جيش كبير من الكتاميين كان قد أعده، و جهزه بنفسه ميمما شطر بلاد الأغالبة أصحاب المملكة الواسعة، فوقعت في يده عدة قرى و مدن، و ساعده في ذلك موت إبراهيم بن الأغلب سنة ٢٩١ هـ، ثم موت ابنه «أبو العباس» فيما بعد، و تولية ابنه الثاني زيادة الله، و هذا الأخير لم يكن يملك شيئا من صفات رجل الحكم و القيادة، بل كان مستهترا لا يفكر إلا في اللهو و الترف و الشراب.

و مهما يكن من أمر ... فإن إبراهيم بن الأغلب شعر قبل موته بهذه الثورة النفسانية العارمة التي تكاد تتدلع في أطراف بلاده، و حسب أنها لا بد ممتدة بسرعة لتتحرق بلهيبها بلده و مملكته، ففكر بالعلاج،

##PAGE=218##

و قرر في النهاية بأنه لا بد من اتخاذ الخطوات الجريئة، و قد لا يتم له تحقيق أى انتصار إلا بالقضاء على رأس الحركة المدبر «أبو عبد الله الشيعي»، فبذل جهودا في بادىء الأمر في سبيل اجتذابه، و استقطابه دون قتال، عارضا عليه المناصب، و المراتب باذلا شتى المغريات، و لكن أبا عبد الله لم يكثر بعروضه، وردّ عليه بكتاب يدل على الجراءة، و القوة، ممّا دعاه أخيرا إلى إرسال حملة كبرى لمحاربته، فصمد أبو عبد الله بوجه الجيوش، و قاومها و في النهاية أوقع بها، و هزمها شر هزيمة. فعاد إبراهيم بعد مضي عدة شهور، و جهّز حملة ثانية، و لكنها لم تلبث أن منيت بالهزيمة كسابقتها.

بعد هذه الانتصارات الحاسمة التي وقعت في نهاية سنة ٢٩٥ هـ.

فكر أبو عبد الله أن عليه بعد ذلك إزالة دولة الأغالبة كليا، و احلال الرقعة الواسعة التي تحكمها في المغرب الأوسط . و تعتبر هذه الخطوة المرحلة الأولى بالنسبة لخطة، و ممّا تجدر الإشارة إليه أنه نفذ برنامجه على مراحل، و بعد سلسلة من المعارك و الحروب. ففي سنة ٢٩٦ هـ. دخل مدينة «رقادة» جنوبى القيروان، و استقر في دار الإمارة، فجمع كل ما كان فيها للأغالبة من مال و سلاح و عتاد . و وزعه على الجند، ثم أمر الخ طباء و أئمة المسجد أن يعلنوا الخطبة باسم الخليفة الفاطمي الإمام المهدي عوضا عن اسم الخليفة العباسي، كما أمر بسك العملات باسم المهدي . و من رقادة و اصل الزحف إلى القيروان. و كان فيها زيادة الله بن الأغلب . فلما تحقق زيادة الله بعدم قدرته على التصدي لجيش أ بي عبد الله شرع بإعداد عدة الهرب، فحمل ما خفّ وزنه، و غلا ثمنه، ثم ركب فرسه، و تقلّد سيفه، و وقف يتأمل الناس و قد لاذت بالفرار، و هنا أخذت جارية من جواريه عودا، و وضعت على صدرها، و غنّته لتحركه على حملها معه، فقالت:

و جفنها في دموعها غرق

لم أنس يوم الوداع موقفها

فدمعت عيناه، و شغله الموقف الحرج عن أخذها معه، و خرج من رقادة مع رجاله و عبيده، و لحق بمدينة طرابلس و هو ييكي ملكا أضاعه، و لم يحسن الحفاظ عليه.

##PAGE=219##

و بعد أن تمّ لأبى عبد الله احتلال بلاد دولة الأغالبة فى المغرب الأوسط «تونس»، هذه الدولة التى دام حكمهم لها من سنة ١٨٤ هـ حتى سنة ٢٩٦ هـ، أقام عليها أخاه «أبو العباس»، و خرج إلى المغرب الأقصى و كانت جميع المدن الواقعة بين سجلماسة بالمغرب الأقصى و المغرب الأوسط قد خضعت له، و أظهرت له تأييدها و طاعتها، أو بعبارة أوضح اهتز له المغرب بأجزائه كافة، و خافته قبيلة «زناتة»، كما دانت له القبائل التى أعلنت العصيان فى بادىء الأمر، فأنته رسلها للدخول فى طاعته، و السير فى ركابه، و هذا ما جعله يفكر من جديد فى القضاء على دولة بنى مدرار، و بذلك يكون قد حقق القسم الأكبر من أحلامه بضم المغرب الأقصى إليه، مضافا إلى كل ذلك أنه تطلع أيضا إلى «تاهرت» عاصمة دولة بنى رستم. و كان هذا قد جاء فى المرحلة الثانية؛ فأمر جيوشه بالزحف، و عدم التوقف. و كان الفضل فى هذا الزحف السريع و الانتصار الحاسم يعود إلى «الدعاة» الذين كانوا يسبقون الجيش إلى الأقاليم المرشحة للغزو للدعوة و التمهيد و لتحريض الشعب على الحكام المستهترين، و الجنود على القادة الذين عكفوا على اللهو و الشراب و اشباع رغباتهم، تاركين الأمور على غاربه دون أن يعلموا بما يبيت لهم، و ما يجرى وراء ظهورهم من مؤامرات و زرائهم، و كان أكثرهم يتسابقون على الاتصال بأبى عبد الله، و إعلان الولاء و الاستعداد لخدمته إنقاذا للنفس و تحسبا للمستقبل.

أصبح أبو عبد الله بين عشية و ضحاها صاحب السلطة المطلقة فى المغرب الأقصى و الأوسط، فبعد أن تمكن من إزالة دولة الأغالبة، و بنى مدرار، و بنى رستم ... رسم لنفسه سياسة القائد الحكيم الذى أرسله الله لإقرار مبادئ العدل، و توطيد دعائمه بين الناس عن طريق القوة أحيانا و اللين غالبا. فأظهر حبه للشعب، و عطفه على مطالبه، و خاصة طبقة الفقراء و المحرومين، كما منع الظلم، و الإرهاب، و أعلن عن تدابير عاجلة لتوفير الأمن، و الرخاء، و المساواة بين جميع طبقات الشعب، و يتجلى بعد نظره، و عدالته فى حديثه مع أخيه أبى العباس، يوم طلب منه الإذن باستعمال القوة و الإكراه مع الناس الذين يأبون الدخول فى العقيدة الإسماعيلية، و ذلك فى المقاطعة التى يحكمها. فزجره قائلا:-

##PAGE=220##

احذرک من ذلك، فدولتنا دولة حجة و بيان، و حرية رأى، و ليست دولة قهر، و استطالة، و عنف، و إكراه. فترك الناس على مذاهبهم، و إياك أن تنفذ أى عمل من هذا بالقوة.

و عند ما استولى على مدينة «طبنة» سنة ٢٩٣ هـ. أتاه والى المدينة مع بعض عمال الجباية، فقدموا إليه الأموال التى جمعوها من الأهلىين ... و عندئذ قال للوالى:

«من أين جمعت هذا المال؟»، فأجاب: «من العصور»، فقال أبو عبد الله:

إنما العصور حبوب، وهذا عين «»، ثم قال لقوم من ثقاة «طبنة»: «اذهبوا بهذا المال، فليرد على كل رجل ما أخذ منه، و اعلموا أننا أمناء على ما يخرج الله من أرضكم، و سنة العصور معروفة في أخذه و تفرقة على ما ينصه الله في كتابه العزيز»، ثم قال لآخر: «من أين هذا المال الذي بيدك؟»، فقال: «جبيته من اليهود، و النصارى (جزية) عن حول مضى»، فقال له: «و كيف أخذته عينا، و إنما رسول الله (ص) كان يأخذ من الملى ثمانية و أربعين درهما، و من المتوسط أربعة و عشرين، و من الفقير إثني عشر» فأجابه: «أخذت العين عن الدراهم بالمصرف الذي كان يأخذه عمر رحمه الله»، فقال أبو عبد الله: «هذا مال طيب». ثم أمر أحد أتباعه بأن يفرقه على أصحابه، و قال لمن أتاها بمال الخراج: «هذا مال لا خير فيه. و لا قنى، و لا خراج على المسلمين في أموالهم».

ثم أمر ثقاة «طبنة» برده على أهله، و قبض مال الصدقة من الإبل و البقر، و الغنم .. ثم بيعت و جمعت أثمانها، فلما سمع أهل طبنة ما قاله، تقدموا منه، و أعلنوا عن ولائهم، و باركوه، و انتشر خبر أقواله في نواحي المغرب، فتاقت النفوس إليه، و تقربت القلوب منه، و كاتبه الناس، و رغبوا في الدخول بدعوته.

يعتبر تاريخ «أبو عبد الله الشيعي» المدخل إلى تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، فأبو عبد الله هو بحق مرسى قواعدها، و موجد عظمتها، و مقيم بنيانها، و إليه يرجع أمر تدبير أمورها في بداية عهدها، و قيادة جيوشها، و تعليم فتيانها و شبابها كيف يحملون السيوف للذود عن حريتهم و كرامتهم، و كيف يحطمون العروش و التيجان.

امتاز أبو عبد الله الشيعي ببراعته في التحدث و الخطابة، و ذكر عنه امتلاكه ناصية البيان و البلاغة في إيراد الفكرة، و الإفصاح عنها، و تأديتها ببيان ساحر، و أسلوب إقناع يؤثر في السامع، و يدخل في

##PAGE=221##

هذا النطاق طول باعه في علم المنطق، و الفلسفة، و أصول التشريع، و الفقه الإسلامي، و الحديث، و كل هذا جعله . يفرض احترامه، و يقربه من قلوب الناس الذين تأثروا بأفكاره، و طربوا لبيانه، و لم يستطيعوا بعد ذلك التخلف عن الاستجابة له، و السير في ركابه.

و امتاز أيضا بطيبة قلبه، و ورعه، و كرمه، و تربيته، و وفائه، و حبه للطبقة الفقيرة من الشعب، و للمحاربين الذين يسرون تحت أمرته.

فكان حريضا أشد الحرص على رفع شأنهم، و إعطائهم حقوقهم و إنصافهم، و توفير الحياة الأفضل لهم . أما جراته، و استهانته بالخطوب، و لذته باقتحام الصعاب، و بعد نظره باختيار الأعوان و الرفقاء .. فهذه صفات لازمت منذ الصغر، و كانت خى معين له على الوصول إلى الهدف.

ظهر أمره كما ذكرنا عند ما أطاعه البربر أو - و هو الأصح - عند ما دخلت «كتامة» في طاعته، و استجابت لأوامره و دعوته. فاتخذ منها أداة لتحقيق ما يصبو إليه، و جند رجالها، و جعلهم نواة لجيشه الكبير الذي اندفع يحطم الإمارات

الصغيرة، و الزعامات القبلية القديمة، و التيجان البراقة التي كانت تسطع فى تلك الأيام على رؤوس رجال أعمتهم الجهالة، و الغباء، و الفوضى، و التخلف، فلم يراعوا للشعب حرمة، و لا عرفوا للكرامة قيمة.

اندفع أبو عبد الله على رأس جيشه الكبير الذى سهر الليالى الطوال فى اعداده و تنظيمه و تدريبه متقدما، فاتحا، و عابرا من مدينة إلى أخرى، واضعا نصب عينيه دولة «بنى الأغلب» كمرحلة أولى، و لم يتمكن زيادة الله الأغلب الثالث من إيقاف الزحف الهادر الذى هبط على حين غرة من جبال الأوراس و قد أخذت تتحدث به الركبان و تقول : إن المغرب لم يشاهد فى كل عصوره ما يماثله كثافة، و اعتدادا، و تصميمًا على القتال . و كانت معركة «كينونة» و هى أول معركة يخوضها، و منها تصدى له إبراهيم بن حبشى ... و من الجدير بالذكر أنها دامت من طلوع الفجر، و لم تنته حتى أسدل الليل ستاره، فعندئذ فر إبراهيم و تبعه كل من كتبت له النجاة من جيشه.

أما الجيش الكتامى المنتصر فشغل بالأسلاب، و السلاح، و الأموال، و الغنائم، و من الطريف أن جيش أبى عبد الله ارتدى فى اليوم التالى

##PAGE=222##

الثياب الحريرية، و تقلد أفراده السيوف المحلاة بالذهب و ركبوا على خيول مفضضة السروج، مذهبة اللجم، لأول مرة فى حياتهم.

فى سنة ٢٩٤ ه عاد إبراهيم بن حبشى إلى الظهور ثانية على مسرح الأحداث، و ذلك بعد أن أتم تجهيز جيشه الجديد، فالتقى بأبى عبد الله على مقربة من مدينة «طبنة» و دارت، رعى المعارك، و كانت فى هذه المرة أكثر عنفا و ضراوة و لكن إبراهيم أدرك، منذ الجولة الأولى، بأن لا قدرة لجيشه على الثبات طويلا، مما جعله فى نهاية المطاف ينزع إلى الفرار، تاركا جيشه فلولًا و شراذم شاردة فى البرارى و القفار، و هكذا وضع نهاية لحياته، و انطوت صفحته إلى الأبد.

فى سنة ٢٩٦ ه. وصل أبو عبد الله إلى «قسطيلية» و تمكن من إلحاق الهزيمة بأبى مسلم بن منصور، و بشبيب بن أبى الصارم. و كلاهما وقف بوجهه، و فى هذا العام زحف إلى «الأربس» و نازل إبراهيم بن الأغلب فقاتله، و انتصر عليه، و أفسح له المجال للفرار إلى القيروان.

بعد أن أبيدت جيوشه إبادة تامة، و فى القيروان . دعا الناس إلى الأخذ بيده، و نصرته، و لكن الأهلى رفضوا الاستجابة له، ففرّ و لحق، بزيادة الله. أما أبو عبد الله فصار إلى «باغاية» و احتلها، و منها توجه إلى القيروان و دخلها دون قتال، و هكذا «رقادة» و ممّا تجدر الإشارة إليه أن جيشه فى تلك المرحلة كان مؤلفا من سبعة عساكر، و يقدر بثلاثمائة ألف فارس و راجل.

فى تلك الأيام التاريخية، و فى غمرة الانتصارات الحاسمة، بلغته الأخبار عن وصول عبد الله المهدي إلى «سجلماسة»، و وقوعه فى قبضة اليسع بن مدرار فلم يرهبه النبأ أو يثر حماسه، بل تابع زحفه ببرودة أعصاب، و عدم اهتمام حتى وصل سجلماسة، و كان ذلك، يوم السبت ٧ رجب سنة ٢٩٦ ه. و فى صباح اليوم الثانى دخل المدينة دون قتال، بعد فرار صاحبها «اليسع بن مدرار» فجاء إلى المكان الذى يقيم فيه المهدي و أخرجه، ثم قدمه للجيش كما ذكرنا.

بعد أن تمّ لأبى عبد الله تحقيق هذه الانتصارات الرائعة . توجه إلى «تاهرت» فدخلها، سلما، و لكن بعد فترة قصيرة قام يقظان بن أبى يقظان بحملة، و تصدى له، فقبض عليه و أمر بقتله، و من تاهرت تابع

##PAGE=223##

السير إلى سجلماسة فولى عليها إبراهيم بن الأغلب بعد أن جاءه طائعا، و نادما، و فى هذا يتجلى حسن تدبيره، و بعد نظره، و سياسته الحكيمه. أما اليسع بن مدرار فقد غدر به أفراد من قبيلة بنى خالد، و هى من البربر، و كانت قد استأمنت أبا عبد الله فأمنها.

ستظل فتوحات أبى عبد الله فى أفريقيا الشمالية تشغل عددا من صفحات التاريخ العربى فهى لم تتوقف حتى بعد وصول عبد الله المهدى إلى المغرب، و الإعلان عن خلافته الفاطمية، و لكن الأقدار تأبى إلا أن تغيّر مسيرة التاريخ، كما تأبى إلا أن تعكر صفو الحياة، فقاتل الله السياسة، و حب الرئاسة، و الغرور الذى كثيرا ما يتحكم فى رؤوس الرجال، فيغيّر مجرى حياتهم، و يؤدى بهم فى النهاية إلى الهلاك.

و اعدم أبو عبد الله فى سنة ٢٩٨ هجرية، نتيجة للدور الذى لعبه فى مؤامرة أخيه أبى العباس ضد الامام و الخليفة المهدى.

##PAGE=225##

عبد الله المهدى الخليفة الفاطمى الأول

##PAGE=227##

كنا ذكرنا أن أبا عبد الله الشيعى أخرج المهدى من الأسر. و جاء به إلى قصر «بنى مدرار» فى مدينة سجلماسة حيث نادى به أميرا للمؤمنين و خليفة للمسلمين، و أوعز إلى قواد الألوية و رؤساء الكتائب بمبايعته على أنه الخليفة الفاطمى الأول، و بعد أن تمّ هذا وسط الأهازيج و المهرجانات التى دامت عدة أيام، ذهبوا بالمهدى و عائلته إلى مدينة القيروان . و هناك فى وضح النهار بايعه الزعماء، و القواد و أفراد الجيش، و رؤساء القبائل، و رجال الدين، الذين هرعوا من كل مكان للإعلان عن الطاعة و الولاء، و كان ذلك سنة ٢٩٦ هـ. و من ثمّ انتقل إلى مدينة «رقادة» سنة ٢٩٧ هـ، فبايعه فريق آخر من الناس، و كان يقف بين يديه قائده الكبير و مستشاره الأول أبو عبد الله الشيعى و رؤساء قبيلة كتامة.

و هكذا أقام المهدى فى قصر الإمارة، و من ديوانه فى القصر أعلن للملأ مباشرة الأعمال، فكؤوس النصر المترعة، و مهرجانات الفرح و الابتهاج يجب أن تنتهى، و يبدأ العمل بعدها، فالدولة الفتية بحاجة إلى دعائم، و أسس و سواعد متينة، و اشتراك المخلصين فى معركة البناء، و قد شمر (المهدى عن ساعده و برز إلى الساحة. فعين القواد، و الوزراء. و الخبراء، و العمال، و الولاة، و القضاة . و أقام الدواوين، و شرع بالبناء و العمران بهمة لا تعرف الكلل، كما خصص قسما من أوقاته للسهر على راحة الشعب و سماع شكاوى المظلومين، و تأمين الحاجات لجميع أفراد الشعب، و توفير الأمن و الاستقرار، و الرفاهية و الحياة الأفضل.

كل هذا و لم يشغله أى شاغل عن تنظيم الجيش، و تقسيمه إلى فرق

و كتائب مستقلة و مرتبطة بقيادة عامة، كما خصص لأفراد هذا الجيش و قواده الرواتب الشهرية التي تكفل لهم حياة تتناسب مع ما يقدمونه من خدمات، و توضيحات، و لم يغرب عن باله تنظيم شؤون الدولة المالية كالواردات و النفقات، و غير ذلك من القضايا التي ترفع ببيان الدولة الفتية، و ترسي قواعدها، و هكذا تمكن من إظهار وجه الدولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى - فدانت له البلاد، و رضخت له القبائل، و هذه المرحلة تعتبر مرحلة البناء و العمران، و قد كلفت جهودا مضنية، و نشاطات جبارة. و حول هذا الموضوع يمكن تقسيم مدة حكم المهدي إلى مراحل ثلاث.

فالمرحلة الأولى بدأت بوضع الأسس للدولة الفاطمية، و اعتماد القوانين الحديثة التي تتلاءم و طبيعة البلاد، و تطلعات الشعب، و كل هذا يتطلب خبرة، و معرفة، و اختيار معاونين، و الولاة و القواد، و رؤساء الأقسام . فالمهدي لم يكن يتطلع إلى إقامة إمارة صغيرة فقيرة بمواردها و عدد سكانها و قوتها العسكرية، بل كانت أمانيه و أحلامه تمتد إلى أبعد من ذلك ... كانت أمانيه تتجلى. بإقامة دولة كبرى، أو امبراطورية واسعة تضارع الدولة العباسية، بل تفوقها قوة، و مدنية، و حضارة مع مراعاة المبادئ الاشتراكية التي آمن بها المهدي، و سهر هو و أجداده على تعميمها . فالقضاء على دولة الأغلبية، و بنى مدرار ليس كافيا بحد ذاته، بل يجب أن يمتد هذا الزحف شرقا و غربا بحيث لا يحول بينه و بين المحيط الأطلسي حائل، من هنا فإنه أدخل في حسابه إزالة دولة الأدارسة .. و الوصول إلى حدود دولة الأندلس، و بهذا يكون قد أخضع القبائل الأخرى، و جند شبا بها، و ضمهم إلى جيشه الذي يمهد لضم المغربين الأقصى، و الأدنى إلى دولته الفاطمية بالإضافة إلى جزيرة صقلية التي يمكن الانطلاق منها إلى البحار المتصلة بالعالم الغربي . أما مصر فتبقى أمنيته الوحيدة، ففي ضمها إلى دولته يكون قد قطع الشريان الحياتي للدولة العباسية ، و منها يمكن الانطلاق إلى أجزاء أخرى من العالمين العربي و الإسلامي.

أما المرحلة الثانية، فنعتبرها ما بين سنة ٢٩٧ هـ إلى سنة ٣٠١ هـ.

و في هذه المدة تم للمهدي تسلم جميع السلطات و الصلاحيات، و الاضطلاع بكافة المهمات القيادية، و مرافق الدولة، و تمّ له تجريد

الولاة و القواد من النفوذ المتزايد، و الحد من صلاحياتهم، و إلزامهم بإطاعة الأوامر العليا، و الرجوع إلى الخليفة في كل شاردة و واردة، فأثبت أنه القائد الذي يستلهم العمل من العقل المدرك، و الفكر النير، و أنه طبق المبدأ الذي كان يعمل على ضوئه، بأن يبقى السيد المطلق الذي لا يعلو على رأيه رأى آخر.

كانت السنوات الأولى من خلافة عبد الله المهدي سنوات الإنشاء، و التأسيس، و إصدار القوانين، و القيام بالفتوحات، و القضاء على المؤامرات الداخلية، و لكن المهدي وقف من كل هذا موقف رجل الدولة الساهر على شؤون دولته ، و هذا ما جعله يجتاز العقبات، و يتغلب على الصعاب، و يبعد أعداءه الواحد تلو الآخر، فأثبت في نهاية المطاف أنه الحاكم المطلق الذي لا ينازع . و لم تقف الأحداث، و الوقائع بوجه اهتماماته و رغباته بتطبيق القوانين، و السهر على مصالح الشعب، و تعزيز مكانة الدولة، و توسيع رقعتها، بل أولاها ما تستحقه من اهتمام و عناية، و لا بد من الإشارة إلى إقدام أهل

طرابلس - الغرب على عزل الوالى الفاطمى سنة ٢٩٨ هـ، و قيام «الزناتيين» باحتلال «تاهرت» و لكن حسن تصرف المهدي، و بعد نظره أنقذ المدينة، و أعاد ارتباطها - بالدولة الفاطمية و ذلك بتعيين أحد القادة الكتاميين واليا عليها، و هكذا بالنسبة إلى طرابلس - الغرب.

و فى المرحلة الثالثة الواقعة ما بين سنة ٣٠٢ هـ إلى سنة ٣٠٩ هـ.

و هى المرحلة الأكثر عنفا و تقلبا و اضطرابا ليس فى الولايات الفاطمية فى المغرب الأقصى فقط، بل فى كل أجزاء المغرب، و على الأخص فى جزيرة صقلية، و قد كان مقتل «حباسة» و شقيقه «عروبة» و كلاهما من زعماء كتامة البارزين مضافا إلى ذلك إبعاد بعض القواد الآخرين الذين قادوا الجيوش، و ساهموا بالفتح، و أحرزوا الانتصارات، و ركزوا دعائم الدولة الفاطمية سببا بظهور الثورات، و خاصة العصيان الذى وقع فى «برقة» و لما كانت هذه المقاطعة تشكل أهمية خاصة من وجهة النظر الفاطمية على اعتبارها قاعدة تؤدى إلى الأراضى المصرية، و هذا ما حدا بالمهدي إلى إرسال ولى العهد «القائم بأمر الله» إليها، فتمكن بعد سلسلة من المعارك التى دامت أكثر من سنة و نصف من إعادتها إلى الحضيرة الفاطمية.

##PAGE=230##

أما «تاهرت» الواقعة فى المغرب الأوسط، فهذه المدينة دخلها أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩٦ هـ. و اعتبرها قاعدة ينفذ منها إلى المغرب الأقصى، و من الجدير بالذكر أن «بنو رستم» ملكوها زهاء مئة و ثلاثين عاما، و هى اسم لمدينتين متقابلتين. ففى هذه المرحلة ولى عليها المهدي أحد قواده البارزين «مصالة بن حيوس» و ذلك بعد مقتل «عروبة بن يوسف» كما ذكرنا .. و كان من الطبيعى أن يبدأ «مصالة» حياته العسكرية فى صراع عنيف مع قبائل «صنهاجة» و قد تمكن فى نهاية المطاف من الاستيلاء على قاعدتهم «ناكور» و ذلك سنة ٣٠٥ هـ. و لعل هذا كان بداية الصراع الدامى بين الفاطميين من جهة و الأدارسة و معهم الصنهاجيين من جهة ثانية، أو بلغة أصح بين الفاطميين و الأمويين أصحاب الأندلس، و لما كان الصنهاجيون يمتلكون قوة عسكرية كبيرة، كثيرا ما تصدت، و هددت دولة الأغالبة، و وقفت فى وجهها، فإن المهدي حسب لهم حسابا، و كثيرا ما أرسل إلى قواده الأوامر بضرورة التودد إليهم حينما، و تهديدهم بالحرب حينما آخر، و لكن كل هذا لم يردعهم، أو يعيد الثقة إلى نفوسهم. فوقفوا موقف المعارض القوى، و هذا ما جعل «مصالة» يخرج عن صمته، و يبادر إلى احتلال قاعدتهم، و ضرب فلولهم ... و بعد أن تم له إحراز النصر عليهم كتب إلى المهدي يعلمه بما أحرزه، كما وصف له فرار أمراء «بنى صالح» إلى الأندلس و التحاقهم بالناصر الأموى، فأمره المهدي عندئذ أن يفعل ما يراه مناسبا، و أطلق يده باتخاذ كافة التدابير التى تعيد للدولة الفاطمية هيبتها و مكانتها .. هذا و من الجدير بالذكر أنه بعد أن وطد الأمور عاد إلى «تاهرت» و ولى على «ناكور». رجلا يقال له «ذلول»، و لكن «صالح بن سعيد الصنهاجى» هاجمه سنة ٣٠٥ هـ. بجيش كبير موله الأمويون، فتمكن من قتل «ذلول» و أصحابه، و استلم المدينة، و أعلن الولاء للأمويين، أصحاب الأندلس، و فى هذه الرحلة أيضا برزت على مسرح الأحداث قضية «الأدارسة» و دولتهم فى «مكناس». و من الجدير بالذكر أن أحد قوادهم قام على رأس قوة كبيرة، و أخذ يقوم بأعمال القرصنة على حدود الدولة الفاطمية، فأرسل المهدي إليه حملة عسكرية بقيادة ولى العهد «القائم بأمر الله» فتمكن من إخماد نار الفتنة، و إعادة الاستقرار بعد القضاء على زعامة الأدارسة فى مكناس، و فى تلك الفترة عين عليها واليا من قبله هو «حميد بن يصال» و لكن «موسى بن

##PAGE=231##

العافية» عاد إليها، وأطاح بالوالي الجديد، وأرسل رأسه إلى الناصر الأموي، وقد شجع و ساعد هذا الانتصار «يحيى بن إدريس» وهو آخر ملوك الأدارسة، وكان يتمتع بنفوذ كبير لم يبلغه أحد من أسلافه، فجرد جيشا جرارا و هاجم حدود الدولة الفاطمية، و غرضه احتلال كامل أجزاء المغرب الأقصى، و عندئذ أوكل المهدي إلى القايح الكبير «مصاله بن حيوس» أمر تصفية الحساب مع يحيى، فتقدم على رأس جيوشه الفاطمية حتى مكناس، و هناك التقى يحيى، و دارت معركة كبرى بين الفريقين انتهت بهزيمة يحيى و انسحابه إلى فاس، و اعتصامه فيها، و لكن «مصاله» لحق به و حاصره، و ما زال يشدد عليه الحصار حتى طلب الصلح لقاء تأديته الأموال، و مبايعة المهدي بالخلافة، فقبل مصالـه طلبه بعد موافقة المهدي على أن يبقى في فاس، كما ولى ابن عمه «موسى بن العافية» على مقاطعة أخرى في أحد الأقاليم الخاضعة للفاطمين.

مما يجب أن نشير إليه، أن موسى كان في بداية أمره مخلصا للفاطمي ين، و أنه كان على اتصال مستمر مع أبي عبد الله الشيعي، و كان كثيرا ما يذكره، و يحثه على احتلال دولة الأدارسة و ضمها إلى الدولة الفاطمية، و لكنه انقلب عليهم في النهاية. و في سنة ٣٠٩ هـ عاد القائد مصالـه إلى فاس فاجتمع بموسى الذي أوغر صدره على ابن عمه يحيى مته ما إياه بالخيانة، و الاستغلال، و الإثراء، و الاتصال سرا بالأمويين، و بعد ثبوت ذلك قبض مصالـه عليه، و صادر أمواله، ثم نفاه إلى خارج البلاد، فذهب إلى بلاد الريف حيث أبناء عمومته، و لكن مصالـه خاف من عودته فلحقه و عاد به حيث أودعه السجن، و بعد عشرين عاما أطلق سراحه فجاء إلى «المهدي» و عاش فيها بقية حياته حتى سنة ٣٣٢ هـ.

بعد هذه الأحداث عاد مصالـه إلى فاس، و ولى عليها «ريحان الكتامي»- و لكن مدة ولايته كانت قصيرة، لأن «محمد بن القاسم الإدريسي» الملقب «بالحجام» و هو من الأسرة الإدريسية ثار عليه، و تمكن سنة ٣١٠ هـ من قتله، و الاستيلاء على فاس، و لم يكتف بذلك بل تطلع إلى أبعد من حدود فاس ... و هنا كلف المهدي ابن عمه «موسى ابن العافية» بالتصدي له، فزحف على رأس قوة من رجاله، و عند ما التقيا دارت بينهما معارك طاحنة قتل في إحداها «ابن موسى» كما

##PAGE=232##

قتل «محمد» في معركة بعدها. و كل هذا مهد لموسى الاستئثار بتركة الأدارسة، و لكنه طمح بعد فترة بالاستقلال و خلع طاعة الفاطمين، كما أنه أخذ يهدد بلدانهم، و يمتلكاتهم في المغربين الأقصى و الأوسط، و من أنه كان يتلقى الدعم المادي، و المعنوي، و العسكري من الأمويين أصحاب الأندلس إزاء هذا الموقف كان لا بد من إرسال حملة فاطمية كبرى إلى منطقتهم بقيادة حميد بن يصال صاحب «تاهرت» و ابن أخ مصالـه الكتامي، فتمكن بعد سلسلة من المعارك من الاستيلاء على البلدان التي احتلها موسى .. و أخيرا ضيق عليه الخناق، و أجبره على الفرار تاركا فلول جيشه عرضة للقتل و الأسر، و هكذا اختتمت حياته، و حياة الأدارسة، و عاد الهدوء و الاستقرار إلى المغرب الأقصى، و رفرت على ربوعه رايات المهدي، و أعلام دولته الفاطمية الفتية، و لكن لا بد من التساؤل : هل تم للمهدي السيطرة التامة على بلاد شمالي أفريقيا كاملة؟ الجواب قد يكون هنا واضحا، و المصادر التاريخية كلها جاءت تؤكد بأن الثورات ظلت تندلع من هنا، و من هنالك منذرة مهددة كما وجد أصحاب المطامع، و الناقمين، و المعارضين فرصة سانحة، أو سبيلا إلى إضرام النار، و إعلان التمرد و العصيان.

لم يكن سهلا على المهدي إرساء الهدوء و الاستقرار في أرجاء دولته الفتية خاصة بعد غياب أبي عبد الله الشيعي، و كما ذكرنا كان عليه أن يخوض المعارك بنفسه، أو يوكل أمرها إلى ولى العهد «القائم بأمر الله». من هنا فإن تأديب العصاء. و إخماد الثورات ليست عملية سهلة. بالنسبة إلى رجل أنيطت به مهمة حكم دولة جدية. و لا بد من القول بأن أهم حدث

واجهه في أول عهده، هو خروج قبيلة «زناتة» عليه و اتخذها خطه العدا شعارا لها، حتى أنها لم تتورع عن التصدي و الهجوم، يدلنا على ذلك مهاجمتها «تاهرت» عاصمة «بنى رستم» و استردادها من الجيش الفاطمي، و لم تنفع المقاومة الصورية من قبل عاملها الفاطمي «دوأس» الذي فر أخيرا، و لجأ إلى «رقادة»، و بعد فترة قصيرة اتهم بالمواطأة، و التقصير، و الاشتراك بموآمرات ضد الدولة، و هكذا اعتقل، و حوكم، و قتل .، و بعد أن عين المهدي «مصالة بن حيوس بن بهلول الكتامي المكناسي» قائدا عاما لجيوشه، فوض إليه أمر إخضاع، و تأديب الزناتيين. و هذا القائد عرف

##PAGE=233##

بصلابته، و إقدامه، و مهارته في قيادة الجيوش، فجاء إلى موقع «فك مديك» و نازل الزناتيين، و تمكن بعد سلسلة من المعارك العنيفة من قتل أعداد كثيرة من أفرادهم و قوادهم، و إلحاق الهزائم بهم.

المهدي و صقلية

كانت «صقلية» جزيرة كبرى في البحر الأبيض المتوسط، تميّزت بموقعها الحربي العظيم، و بكونها من أهم المرافئ التجارية الصالحة للتصدير و للاستيراد، مضافا إلى ذلك جودة مناخها، و كثرة فواكهها، و ثمارها و صلاحها لقضاء فترات الراحة، و الاستجمام، و الاصطياف، ناهيك عن كون تربتها مليئة بالمعادن كالفضة و النحاس، و الزئبق، و الرصاص . و كل هذا استأثر باهتمام أبي عبد الله الشيعي منذ أن حطّ رحاله في شمالي أفريقيا، أي قبل وصول عبد الله المهدي، و إعلان قيام الدولة الفاطمية . فبذل جهوده للاستيلاء عليها، و ضمها إلى دولته الفاطمية. و من الجدير بالذكر أنه لم يكد يحرز انتصاراته على الأغالبه، و يفرغ من احتلال بلدانهم، و ممتلكاتهم حتى أرسل إلى صقلية موفدا لدعوة أهلها إلى الاستجابة له و الانضواء تحت لواء دولته، فهبّ أهالي الجزيرة، و لبوا نداءه، و هجموا على الوالي المعين من قبل لأغالبه المسمّى حسن بن رباح و ولوا مكانه «عليا بن أبي الفوارس» بعد أن أخذوا موافقة أبي عبد الله الشيعي . و بدأ تحولت الجزيرة فصارت ملكا للفاطميين.

و عند ما اعتلى عبد الله المهدي كرسى الخلافة الفاطمية، وضع قانونا أساسيا للدولة اعتمد في تنفيذه على الكتاميين ، و بذلك حصر مناصب الدولة الرفيعة فيهم على اعتبار أنهم ضحوا بدمائهم في سبيل الدولة، و هذا ما جعله يصدر أوامره بعزل أبي الفوارس، و تعيين الحسن بن أحمد الكتامي مكانه، و لكن الأهالي رفضوا ذلك، و أنفوا من الاستكانة، و العيش في ظل البرابرة، و كان المهدي قد عين قبل ذلك سنة ٢٩٩ هـ عليا بن عمر البلوي واليا على الجزيرة، و لكن هذا لم يلبث أن قتل قبل أن يتسلم عمله، الذي أراد المهدي أن يسلمه إياه بالنظر لما عرف به من التقوى و الورع، و العطف على الفقراء و المحرومين، و مما تجدر الإشارة إليه أن هذه التحركات، و الهجمات كان يقوم بها، و يوحد ناراها أنصار أبي عبد الله الشيعي.

و في سنة ٣٠٠ هـ، عين المهدي على الجزيرة بالاتفاق مع زعماء

##PAGE=234##

الصقالبة أحمد بن قهرّب، و كان عربيا، غير أن الكتاميين المقيمين في الجزيرة ثاروا على الوالى الجديد، و اتهموه بالعنصرية العربية الاستقلالية، و عند ما هبّ العرب لنجدته، وقعت المعارك بينهم و بين الكتاميين، فانتصر العرب، و أعلنوا الولاء للدولة العباسية، و هنا كان لا بد من إرسال حملة عسكرية كبرى إلى الجزيرة لإعادة الأمن إليها، و كان قائدها أبو سعيد المغربي الذى لم يلبث أن قتل.

هذه الأحداث المروعة جعلت المهدي فى نهاية المطاف أمام وضع يقضى باتخاذ تدابير عديدة، و حاسمة فى آن واحد، فعين عليها حاكما عسكريا، و زوّده بالصلاحيات التامة، و أبقى تحت إمرته مجموعة من الجنود، و أطلق يده فى شؤون الجزيرة دون الرجوع إليه إلّا فى الأمور الخطيرة، و منذ ذلك الوقت ظلت الجزيرة تحكم عسكريا .. و لعل هذا كان من الأسباب التى ساعدت على الاحتفاظ بها، و إشاعة الأمن و الاستقرار فى ربوعها، و من ثم تحويلها إلى قاعدة بحرية، كان لها أكبر الأثر فى حياة الدولة الفاطمية.

لقد كان الخليفة المهدي حريصا على الاحتفاظ بجزيرة صقلية، و جعلها القاعدة البحرية العسكرية و الاقتصادية لدولته، مهما كلفه ذلك من تضحيات . فخطّة المهدي كانت تهدف إلى إقامة امبراطورية فاطمية كبرى تكون صقلية قاعدة بحرية لأسطولها الذى بناه، و أعدّه، و جهّزه رغم انشغاله بالقضاء على الانتفاضات الداخلية، و الثورات التى لم تكن تتوقف. و من جهة أخرى نظر إلى غارات الروم المستمرة على بلاده، فكان لزاما عليه أن يضع حدا لها، ليتحول بعدها إلى مهاجم يستهدف مدن الروم الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، و مصر، و البلاد العربية الأخرى، و أن يبنى «المهدية» القاعدة البحرية الثانية لدولته على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

لم تشغل الحروب، و الانتفاضات الداخلية المهدي عن النظر إلى ناحية الروم، و اعتبارهم أعداء بلاده، و أصحاب الأطماع، و القراصنة المستعمرين الذين لا يهدأون، و لا يتورعون عن . إلحاق الأذى بالمسلمين، و لهذا سبّر المهدي أسطوله الكبير سنة ٣١٣ هـ. من صقلية، و أمره مهاجمة مدن الروم الساحلية بالرغم من المعاهدة الموقعة بينه و بين الروم سنة ٣٠٥ هـ التى تنص على أن يدفع الروم

##PAGE=235##

للفاطميين جزيرة مقدارها / ٢٢ / ألف قطعة ذهبية فى العام، و هذه المعاهدة لم يلتزم بها الروم.

و كان المهدي قبل ذلك أى سنة ٣٠٦ و سنة ٣١٠ و سنة ٣١٢ هـ، و على فترات قد أمر أمير البحر جعفر بن عبيد بغزو بلدان الروم الساحلية.

و من الجدير بالذكر أن الأسطول الفاطمي يومئذ قد هاجم بلاد «انكبدرة - لومبارديا»، و تمكن بحارته من الاستيلاء على بعض المواقع المهمة، و غنموا الغنائم الكثيرة . و فى المرة الثانية استولى جعفر على مدينتى «أورو» و ذكر أنه قتل فى

^{٢١} تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه، 4 جلد، رياض الرئيس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

حصارهما أكثر من ستة آلاف رومي . و فى المرة الثالثة أسر جعفر عشرة آلاف رجل من الروم، و فى إحدى الحملات استولى على مدينتى «تارنت» و «أورنت» و لو لا تفشى الأمراض لوقعت أكثر بلدان الروم الساحلية بأيدي الفاطميين.

هذه الغزوات درّت على الدولة الفاطمية الأموال الطائلة، و جعلتها فى حالة من الازدهار الاقتصادى، بسبب الغنائم و المعدات، و الأموال التى كانت تدفع مقابل فكّ الأسرى.

##PAGE=236##

المهدى و معركة البناء

كان الخليفة المهدى حريصا رغم الحروب المتواصلة التى يخوضها فى الداخل و الخارج على إشاعة البناء و العمران و الازدهار فى أرجاء الدولة . و كان يركز بشكل خاص على بناء الطرق و تعبيدها بين المدن الرئيسية و بين القرى لكى يشجع على تعزيز الحركة التجارية و الزراعية و تسهيل مرور القوافل . فالطرق التى يتردد منها معين الانماء و الازدهار، و تدل الوقائع أنه فى مدة قصيرة أوجد شبكة من الطرق المعبدة الرئيسية بين المدن الكبرى، عدا عن الطرق الفرعية التى تصل القرى و المزارع بالمدن، فنشطت التجارة، و ازدهرت، و عمّ الرخاء، و تضاعفت الموارد. و وجدت التسهيلات التى كانت الجيوش بحاجة إليها عند قيامها بالمهام العسكرية المطلوبة.

و تلفت المهدى صوب الصحراء، و خاصة ما كان متصلا منها بالديار المصرية ... فهذه الصحراء العسيرة كثيرا ما كانت تبتلع القوافل القادمة، و الذاهبة إلى مصر، فتهلك إمّا عطشا أو جوعا أو انقطاعا، و لهذا أمر بإقامة محطات فى هذه الصحراء، و زوّدها بكل ما تحتاج إليه، و جعل مهمتها حماية القوافل و تزويدها عند اللزوم بالماء، و الغذاء، و الإرشاد إلى الطرق، و المعابر الواجب سلوكها للوصول إلى نقطة الأمان.

و تذكر المصادر الاسماعيلية اللويفية أن المهدى وجّه اهتمامه إلى تنظيم البريد بين المدن القريبة و البعيدة، فعين موظفين، و مكاتب مهمتهم تأمين الرسائل و الأمانات، كما جهّز لنقل البريد أسرع الخيول و خصّص السفن للبلدان الواقعة على الشواطىء و الثغور ...

كل هذا لم يشاهد أهل أفريقيا الشمالية له مثيلا من ذى قبل.

و كان المهدى فى سنة ٢٩٧ هـ قد قرر إقامة مدينة تحمل اسمه، و تكون عاصمة لدولته، فخرج فى أحد الأيام مع بعض المقربين إليه للتفتيش عن أرض صالحة يقيم عليها مدينته المرتقبة . فأعجبه موقع يتصل بالبحر الأبيض المتوسط على بعد ستين ميلا من القيروان إلى جهة الجنوب الشرقى، يحيط به البحر من جهاته الثلاث، فوضع

##PAGE=237##

حجر الأساس لمدينة «المهديّة». و يروى التاريخ أن بناءها دام ستة أعوام، و عند ما انتقل إليها مع عائلته سنة ٣٠٣ هـ ... قال كلمته المشهورة:

«الآن أمنت على أبناء فاطمة» بنى على مقربة منها مدينة ثانية سماها «زويلة»، وهو اسم إحدى قبائل البربر الموالية للفاطميين، فعمر فيها الأسواق و الساحات و الحدائق و الحمامات و المساجد و الشوارع، و قسمها إلى مناطق و أسواق بحيث جعل لكل طبقة من التجار سوقا خاصة بها، و هكذا بالنسبة للصناع و لأصحاب المهن . و هو لعمري ترتيب دقيق سبق فيه المهدي عصره .. و من المفيد أن نذكر أنه جعل لها أرباضا كثيرة و عامرة، كما جعل لها خمسة أبواب، و سورا منيعا يحيط بها فازدهرت الصناعة في هذه المدينة، و تعززت الأسواق التجارية، و قامت نهضة اقتصادية أصبحت حديث الناس. هذا و يجب أن لا يغرب عن بالنا عناية المهدي بشؤون التربية و التعليم، فهو قد أنشأ المدارس، و شجع التعليم للكبار، و للصغار، و بنى مثلها في القرى، فضلا عن الاستراحات و الخانات و المساجد، و المآذن التي أولاهها عناية خاصة، و من الواضح أنه أولى هندستها و زخرفتها أهمية في تلك الأعمار، لأنها تعطي صورة عن الدولة، و عقيدتها الدينية.

أما الأسطول فكان شغله الشاغل بعد بناء المهديّة، و لقد استقدم المهندسين و النجارين من الأصقاع النائية لبناء السفن السريعة و القوية فالمغرب بلد واسع، متصل بجميع بلدان العالم، و في أطرافه خطوط عديدة، أهمها الخط الأوروبي الذي يبدأ من الأندلس مجتازا المغرب الأوسط و الأدنى و الأقصى حتى يصل إلى مصر، و وضع في حسابه العلاقات التجارية و الثقافية التي بين مصر و صقلية، فخلال تلك الفترة كانت أكثر السفن الذاهبة من مصر إلى إيطاليا، و جنوبي فرنسا مضطرة إلى العبور عبر صقلية، مما يضطرها في أكثر رحلاتها إلى التوقف لشراء ما تحتاجه من موارد المغرب، أو بيع ما تحمله من أصناف.

و على العموم فإن الأسطول الفاطمي في عهد المهدي، كان من أحدث أساطيل العالم تنظيما و إعدادا و أوفرها عدّة كانت آخر ما وصلت إليه الصناعة الحربية في تلك الأيام.

##PAGE=238##

و شجّع المهدي الزراعة، و أدخل اصلاحات عامة عليها، فأمر بفلاحة الأراضي المعطلة، و جلب لها مياه الأنهر، و استقدم بذور النباتات، و الأغراس المثمرة من بلاد بعيدة، حتى أنه ينسب إليه إدخال زراعة شجر الزيتون و الحمضيات إلى بلاد المغرب الأوسط «تونس»، و خفف الضرائب الجائرة المفروضة على المزارعين، و الصناع، و التجار، و خصّص السفن التجارية لنقل صادرات بلاده، و جلب الواردات، و كانت هذه السفن تجوب البحار في الشرق و الغرب، و كل هذا لم يسبق للشعب المغربي أن شاهد مثله . و إذا كان المهدي قد أطل التحديق بمصر، فلاّ نه رأى في ثروتها الطبيعية ما يساعده على توسيع قواعد دولته، و مد رواق سلطانها إلى بلاد أخرى، لأن الدولة الفاطمية التي أقامها في الغرب كانت بحاجة إلى موارد أخرى تسد حاجات الجيش، و الأسطول، و رجال الدولة، و المستخدمين.

و جاء المهدي بخبراء ماليين أناط بهم وضع نظام عادل للضرائب، و للرسوم المفروضة على التجار، و الصناع، و المزارعين، و على كافة السلع، و يدخل في هذا النطاق الضرائب على البائعين الذين يستخدمون الأماكن العامة لعرض تجارتهم، و على أصحاب الحمامات، و الخانات، و مالكي السفن الخاصة، و المصانع، و المسالخ، و المذابح، و أصحاب الموازين، و المكايل، و كل هذا كان يدر على خزينة الدولة الأموال، و يجعلها قادرة على الوقوف، و التطلع إلى دفع النفقات المطلوبة و الاصلاحات العامة كإشادة المدارس، و نشر العلم، و إقامة المستشفيات، و دور الكتب، و المكتبات، و دور الحكومة، و إقامة الجسور، و المعابر، و المحطات، و شق الشوارع، و إقامة الساحات، و الحدائق العامة.

و بذل المهدي جهودا جبارة في مستهل خلافته لإقامة ديوان الخراج، و سهر على تنظيماته، و قوانينه الخاصة بالضرائب و طريقة فرضها، و جبايتها، و تأمين الأموال اللازمة لخزينة الدولة ال مكلّفة بتأمين نفقات الحملات العسكرية التي تتوجه للفتح أو لإقرار السلام، و الأمن، و الاستقرار في المناطق، و على حدود الدولة، و يأتي بعد هذا الجيش يأخذ دوره في معركة البناء على اعتبار أنه العرق النابض، أو العمود الفقري الذي يركز عليه جسم الدولة ..

##PAGE=239##

لقد قرأنا في كتب تاريخ الإسماعيلية أن المهدي كان ضليعا في علم الهيئة، و الفراسة، فلا يفوته ما يعتمل في نفوس الرجال بمجرد النظر إلى وجوههم، و سماع أحاديثهم، و من جهة أخرى كان كريما يغدق الهبات و العطايا على أعوانه . و قواده، عند ما يتأكد من أمانتهم، و إخلاصهم، و كل هذا كان يشجعهم على حمل السلاح، و بذل الأرواح في سبيل الدولة و الخليفة الذي محضهم ثقته و عطفه.

«نهاية المطاف»

و أخيرا مات الخليفة الفاطمي الأول «عبد الله المهدي» في قصره بمدينة «المهدية» و كان له من العمر ثلاثة و ستون عاما، و من المعلوم أن ولادته كانت سنة ٢٥٩ هـ، و وفاته سنة ٣٢٢ هـ و كانت المدة التي قضاها في الحكم هي خمسة و عشرون عاما أى من سنة ٢٩٧ حتى سنة ٣٢٢ هـ.

مات الرجل الكبير بعد عمر طويل قضاه في الجهاد، و النضال، و مقارعة الأحداث، و عوادي الأيام ... مات الرجل الذي استطاع أن يؤسس دولة كبرى م ن العدم في ديار بعيدة، و في أرض غريبة لم يسبق أن وطأها قدماه، أو عرف شيئا عن طبيعتها، و أحوال سكانها، ليجعلها بين عشية و ضحاها قبلة الأنظار، أو قل دولة ذات كيان، ينظر إليها الشرق و الغرب نظرة إعجاب و تقدير ...

و على العموم فإن غياب الرجل العظيم ترك آثارا و انعكاسات لم يكن من السهل تجاهلها و خاصة بالنسبة إلى ولي العهد «القائم بأمر الله» الذي أمضه المصاب، و جعله فريسة الحزن و الارتباك، و الآلام، يبكي فقدان الأب العطوف الذي رباه، و علّمه، و هيا له هذا الملك الواسع.

لقد أدرك القائم بأمر الله في تلك الساعة الرهيبة - ساعة الفراق - بأنه فقد أغلى إنسان عليه. و أدرك أنه أصبح وحيدا في وطن ليس له فيه أهل و لا أقرباء، لا أسرة و لا أبناء عمومة، إلّا بعض الشباب، و الصغار الذين لا حول لهم و لا قوة . فالمهدي كان النور الذي ينير جوانب نفسه، و الأمل الباسم الذي يطل عليه من بعيد حاملا البشرى و الأمل و الرجاء. لذلك كان لا بد له من استعمال المرونة، و الحكمة التي تقتضيها الظروف فكتّم نبأ الوفاء خفية و احتياطا لنفسه . فلا يتخذ بعض الناقمين، و المعارضين من الحادث فرصة

##PAGE=240##

للقيام باضطرابات أو ثورة سريعة ربما أطاحت بالدولة، و بالأسرة الفاطمية معا.

و أدخل فى حسابيه أن القواد لم يبايعوه، و لا ولاء الأقاليم، و لا العلماء، و لا رؤساء القبائل، و كل هذا جعله يعلن للناس بأن الخليفة يشكو من مرض بسيط، وأنه لا يلبث أن يتعافى و يخرج للناس، و من جهة ثانية أرسل بطلب المخلصين، و الأتباع، و المقربين، و خاصة «الكتاميين» فكان يطالبهم بالبيعة حسب رغبة المهدي التي أرادها أن تتم قبل وفاته، و لم يتأخر عن ذلك أحد من القواد و الولاة و العلماء و أصحاب الرأي فى الدولة، و بعد أن تم كل شئ أعلن القائم بأمر الله عن الوفاء رسميا، و قيل أن المدة التي استغرقها إخفاء الأمر تجاوزت السنة.

ودّع الشعب القائد الحكيم الوداع الأخير، و دفنه بين الدموع و الحسرات فى تراب المدينة التي أراد أن تحمل اسمه، و هنا لا بد من التساؤل، هل كان تدبير القائم بأمر الله بتأجيل اعلان الوفاء كافيا لإخماد ثورة المعارضين، و الناقمين، و المتربصين، و الحد من مؤامراتهم، و هل قضى بتدبيره هذا على كل آمالهم .. و هل عمّ الهدوء و الأمن، و الاستقرار كافة أرجاء الدولة بعد وفاة المهدي؟

إن الجواب على هذا السؤال، سيظهر جليا واضحا فى أجزاء أخرى من هذه الموسوعة التي نتناول فيها حياة «القائم بأمر الله» و كافة التفاصيل و الوقائع لتلك المدة التي قضاها على كرسى الخلافة.

شخصيات أدبية عاصرت «عبد الله المهدي»

لم يذكر التاريخ إلا أسماء بعض شخصيات أدبية عاصرت المهدي و عملت معه، و هؤلاء هم:

١- «النعمان بن حيون المغربي التميمي» .. دخل فى خدمة المهدي سنة ٣١٣ هـ ... [سنفرد له حيزا فى الأجزاء القادمة].

٢- «أحمد بن محمد بن هرون البغدادي» .. عاش فى الأندلس، و نعم فى خيراتها، و حاز على تقدير أهلها، دخل فى خدمة عبد الله المهدي

##PAGE=241##

فعينه كاتم أسرارهم، و ظل قائما بهذه المهمة حتى عهد الخلفيتين القائم بأمر الله، و المنصور بأمر الله، كان على جانب كبير من العلم و الفضل و المعرفة.

٣- «ابن سعدون الوريثي» .. التحق هذا الشاعر بعبد الله المهدي، و قال فيه الكثير من الشعر، و لكنه ضاع كما ضاع تراث الفاطميين .. حياة هذا الشاعر ما زال يكتنفها الغموض، و كل ما ذكر عنه لا يروى غليلا . و هذه الأبيات مدح بها المهدي:

لقدومه أركان كل أمير

هذا أمير المؤمنين تضععت

أمنت مغاريها من المحذور

هذا الإمام الفاطمي و من به

من مهرب من جيشه المنصور

و الشرق ليس لشامه و عراقه

٤- «جعفر بن محمد بن أحمد البغدادي» .. من نوابغ عصره في الكتابة، وقرض الشعر، عاش في بغداد، و عند ما ساءت العلاقة بينه وبين وزير المقتدر العباسي «علي بن عيسى» خطط الوزير لقتله فتمكن من الفرار إلى «القيروان» في المغرب، والدخول في خدمة عبد الله المهدي، و من المشهور أنه مدحه بغرر القصائد، فولاه أعلى المناصب.

٥- «أبو أحمد النسفي» من الدعاة الكبار الذين عاصروا دور الستر في سلمية، ظهر نشاطه في «فارس» ما بين سنة ٣٠٢ هـ و سنة ٣٢٩ هـ. فخلال تلك الفترة تمكن من التأثير على «نصر بن أحمد الساماني» و إدخاله في الدعوة الإسماعيلية، و هكذا بالنسبة إلى حر داوىء الديلمي أمير طبرستان.

ولد عبد الله المهدي في مدينة سلمية سنة ٢٥٩ هـ. و مات و دفن في مدينة المهدية بتونس سنة ٣٢٢ هـ. ثم نقل رفاته فيما بعد إلى القاهرة- المعزية. فيكون قد عمّر ثلاثة و ستين عاما، أمّا خلافته فخمسة و عشرون عاما تبتدىء سنة ٢٩٧ هـ و تنتهى سنة ٣٢٢ هـ.

لم يذكر التاريخ إلّا القليل عن طفولته و نشأته، كما أنه لم يتطرق إلى أساتذته الذين درس عليهم العلوم و الآداب، و لعلّ الستار الكثيف من السرية الذي كان يخفى كل شىء من حياة هؤلاء «المستورين» هى من الأسباب التى أوجدت هذا التعتيم الكثيف.

و لكن عند ما نعلم أن عبد الله المهدي هو سليل الأسرة التى وضعت أول دائرة معارف عربية، و أول من أرسوا دعائم الفلسفة و العلوم

##PAGE=242##

يهون علينا الأمر، و نخرج إلى القول عنه بأنه كان و لا شك على جانب كبير من الثقافة، متفوقا في العلوم و المعارف.

ولد المهدي في بيت علم و أدب و فل سفة، و اشتهر بأنه كان فصيح اللسان، و يمتلك قدرة عجيبة على الإقناع، مهيب الطلعة، يؤثر في السامع، محبا لعمل الخير، جريئا بهدوء، لا يعرف التردد، مغرما بالمطالعة و التزود من العلم، و اقتناء الكتب النادرة، و تربية الخيول و طيور الصيد، و كان كريما إلى حد كبير و هو أول من تسمى خليفة للمسلمين من بين أئمة الإسماعيلية، و أول من سمى دولته «الفاطمية».

اختلفت الآراء في إمامة عبد الله المهدي، فقال البعض أنه ما كان إماما مستقرا، بل كان حاميا للإمامة و وصيا شرعيا عليها، و كان له أن يورثها أبناءه و لكنه لم يفعل، بل التزم بالقانون الإمامي الإسماعيلي، و بما التزم به وجدانه من أخلاق و مثل، و أعاد الإمامة إلى صاحبها مدلا بذلك على خلق رفيع و ايمان راسخ و عقيدة ثابتة، و قال آخرون بأنه كان إماما مستقرا و أنه أورث الإمامة ابنه القائم.

و تؤكد المصادر الاسماعيلية الموثوقة و غيرها، هذه الرواية.

و حسبہ أن يكون مؤسس الدولة، و القائد الذى استطاع بفضل ما أوتيته من قوة الشخصية، و بما جعل عليه من الصفات و الذكاء أن يوطد أركان الخلافة الفاطمية فى أرجاء العالم الإسلامى كافة، كما استطاع أن يقض مضاجع الخلفاء العباسيين، و يجعلهم فريسة للمخاوف، كما أنه قضى فى المغرب على دول كبيرة و إمارات عديدة كانت قواعد عباسية، و أقام على أنقاضها دولته الفاطمية التى ما لبثت أن اقتطعت خيرة بلدان الدولة العباسية، و ذهبت أخيرا إلى حد تركيز أعلامها فى بغداد.

إنه لمن الصعوبة بمكان إيفاء عبد الله المهدي حقه من المدح. و ما ذا نقول عن قائد شاهد انتفاضة «القرامطة» و هى أعظم ثورة منظمة ثارت عليه، و مع ذلك ظلّ يصابروهم و يهادنهم، و يعمل بهدوء و يراقب حركاتهم، و لمّا وجد نفسه عاجزا عن الوقوف بوجه تيارهم غادر سلمية إلى المغرب تحت و ابل من العيون، و جيش من الجواسيس العباسيين الذين جندوا لملاحقته و القبض عليه، و مع ذلك ظلّ يسير بهدوء و ثقة و ثبات حتى وصل إلى المغرب.

##PAGE=243##

أحداث و مفاجآت^{٢٢}

إن النظام الفكرى الإسماعيلى لم يتوقف عن العطاء و تحقيق الانتصارات منذ أن قدم أئمة الإسماعيلية من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق إلى سلمية، فأرسلوا دعائهم إلى الأقاليم و البلدان الإسلامية حاملين التعاليم و الأفكار و المبادئ، و فى فترة قصيرة انضوى تحت لوائهم أعداد من الأنصار و المؤيدين الذين لا يمكن إحصاؤهم، و هؤلاء تمّ تأليفهم فى حلقات و هيئات و جماعات حتى لم يبق بلد من البلدان إلّا و فيه جماعة منهم يعملون و يبشرون بأفكار جديدة و مبادئ اصلاحية تكفل سعادة الأمة، و تقودها إلى حياة أفضل.

و بعد أن أعلن عبد الله المهدي عن إمامته طرأ على الدعوة الإسماعيلية الكثير من التطورات، و ذلك أنه بإخراج «الإمامة» من السرية المطلقة إلى العلنية، يكون قد أنهى دور «الستر» المعروف، و ذلك بعد أن شعر بأن أسباب التستر قد زالت و لم يعد هناك مبرر لإخفاء الأسماء و الأدوار عن الناس. و لكن هذا التدبير لم يرض فئة كبيرة من الإسماعيلية، و هى التى عرفت فيما بعد «بالقرامطة»، فأعلنت عن استنكارها، و رفضت الرضوخ لأوامر الإمام الحاضر، و كان عليهم أن يدعموا قولهم ببيانات و تصريحات كثيرا ما تناقلها و أعلنها أفراد هذه الأسرة، و كلها تؤكد أنهم ليسوا سوى دعاة للإمام المستور من ولد اسماعيل. و هكذا وقع ما كان يخشاه كل غيور على مصلحة الدعوة، و لم تنفع التدابير و المساعي التى بذلها المخلصون لاصلاح ذات البين، و العودة بالدعوة إلى عهدى الأول.

##PAGE=244##

و كان الأئمة الإسماعيليون قد اتخذوا من سلمية قاعدة لهم، و منطلقا لنشاطهم الفكرى و السياسى و ذلك بعد فرارهم من العراق و فارس.

^{٢٢} (*) الآراء التى وردت فى هذا الكتاب لا تتفق و ما ورد فى كتابنا «القرامطة» أو «ثورة القرامطة الاشتراكية» و سبب ذلك ان مصادر عديدة قد ظهرت حديثا عن «القرامطة» لم يكن متيسرا الحصول عليها بالأمس، و هذه المصادر جعلتنا نعيد النظر و نغيّر بعض آرائنا فى هذا الموضوع المهم.

و من الواضح أن نزولهم في هذه البقعة المنعزلة البعيدة عن أنظار الدولة العباسية قد مهد أمامهم السبيل، لاطلاق دعائهم و عمالهم بحرية و أمان إلى الأفطار العربية و الإسلامية للتبشير بأفكارهم، و نشر مبادئ دعوتهم، و قد ساعدتهم على ذلك اتخاذهم السرية المطلقة، و كتمان الأسماء مبدأ عاماً لهم، و الاعلان عن أنفسهم بأنهم جاءوا من بلاد فارس للعمل في التجارة، و استتجار الأراضي الزراعية، و غير هذا من الأعمال الحرة، و أنهم شيعة يقولون بإمام مستور من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق.

إن إخفاء شخصياتهم و مقاصدهم في بداية أمرهم قد ساعد على ايجاد المراكز الدعائية، و إقامة فروع للدعوة، و اكتساب المؤيدين و الأنصار، و خاصة عند ما تغلغلوا في صفوف عامة الشعب . و أوغروا صدورهم على الحكم القائم الجائر، و اتفقوا معهم على العمل لتقويض دعائم الدولة العباسية الحاكمة التي كانت تعاني من نقمة العامة، و إقامة نظام متين على أنقاضها يستند إلى مبدأ حرية الفرد و المساواة و إقامة العدل و إنعاش المجتمع، و توفير الأمن، و الرخاء، و الحياة الأفضل . و كان التبشير بقرب ظهور إمام يملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً و ظلماً، هو أساس دعوتهم . و كان القول بإمام يتولى الخلافة الإسلامية، يلقي كل ترحيب و قبول، في نفوس العامة، و الخاصة على السواء، في منطقة الخليج العربي و الكوفة و سواد العراق، و بلاد الشام، فالتاس في هذه البلدان كانوا في حالة من القلق و التبرم، يتظلمون من حياة الظلم و الفساد، و الاستتار، و إهمال مطالب الشعب، و هضم حقوقه من قبل هؤلاء العباسيين الذين اغتصبوا مركز الخليفة، و لم يقوموا بواجبهم الديني و الإنساني، و لم يفوا بوعودهم التي قطعوها للشعب.

و على العموم فإن الشعوب الإسلامية كانت في تلك الفترة تعيش في فراغ فالفائدة الروحي الأمين الذي يتولى إبعاد الأمة، و تأمين الاستقرار، و الأمن، و الحياة للفقراء، و المحرومين، و الضعفاء غائب، و لا أثر له، مع أن الحاجة إليه أصبحت ماسة. و كل هذا قرب القلوب، و جعل الناس يهرعون للانضواء تحت لواء الدعوة

##PAGE=245##

الإسماعيلية التي أخذت على عاتقها التمهيد لهذا الظهور.

أما العباسيون فكانوا في تلك الفترة، أي فترة ظهور عبد الله المهدي يعيشون في ظل العواصف، و الأحداث، و الاضطرابات، تتقاذفهم الأمواج الصاخبة، و الرياح العاتية من الداخل و الخارج منذرة بالخراب و الدمار، و لكن الأهم من هذا كله كان ظهور التعاليم السياسية الإسماعيلية و هي تحمل الدعوة إلى العصيان على الدولة، و شق عصا الطاعة عليها. و من الجدير بالذكر أن العباسيين كانوا على اتصال وثيق بكل ما يجري، يتلقون التقارير السرية، و المعلومات المفصلة من عمالهم في الأقاليم عن وجود قاعدة كبيرة في قلب البلاد تغذي حركة المعارضة، و تمهد لانقلاب عام يشمل كل شيء حتى مقام الخلافة. و لكن مكان القاعدة ظل مجهولاً بادية الأمر. و هكذا الأشخاص الذين ينطلقون منها للدعاية، و إثارة الناس، و بالنسبة للأئمة المستورين من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق، هؤلاء لم يمكنوا دعائهم من معرفتهم، فكيف بأعدائهم العباسيين. و الحقيقة لو أنه تم لهم ذلك، لما كانوا أحجموا عن إرسال جيوشهم مع الأوامر بالاستئصال و الإبادة.

و تتغير الأوضاع العامة فجأة عند ظهور عبد الله المهدي، فهذا الرجل الشجاع، رأى أن الوقت قد حان للاعلان عن إمامته، فالتقات المحاربة التي تأتمر بأمره لا يمكن قهرها . و هذا ما جعل الخليفة العباسي المكتفى بترث باتخاذ أية خطة، و لا يدري أحد سبب هذا التقاعس، فهناك من يقول: إنه أثر الانتظار ليرى ما نتيجة الصراع الداخلي القائم بين عبد الله المهدي

و أتباعه. أما عبيد الله المهدي فإنه لم يكن مرتاحا بعد تسلمه شؤون القيادة إلى البنية الداخلية للنظام الذي ورثه، و لا لوجود بعض الدعاة، فعمد إلى ادخال بعض التعديلات على الأنظمة الداخلية القديمة، و الاستعاضة عنها بأنظمة و أفكار جديدة تتلاءم و أوضاع النظام الذي خرج عن سريته المطلقة إلى العلنية و الوضوح، و بالإضافة إلى كل ذلك، كان عليه إيجاد جو من التفاهم و التعاون بين دعائه المنتشرين في الأقاليم، و تهديدهم بالعزل و التسريح في حال انحرافهم، أو عدم تطبيقهم للأوامر العليا.

نداء إلى رؤساء هذه المجموعة العسكرية، يحذرهم فيه من القيام بأية أعمال عسكرية و خاصة ضد الدولة العباسية، لأن أى عمل من

##PAGE=246##

هذا النوع سابق لأوانه، فالدولة العباسية لا تزال تمتلك القوة الجبارة التي تكفل لها النصر، لهذا فإن الانتصار على جيشها أمر مشكوك فيه. و لكن رئاسة الدعوة في الكوفة هزأت بأقواله، و ردّت عليه ردا عنيفا بإعلانها دستور الدولة الذي ستقوم عليه الحياة السياسية، و يتلخص هذا الدستور بإيجاد ثلاث مج الس . الأول للشورى، و الثانى للتشريع، و الثالث للدفاع . و هذه المجالس الثلاث هى التى تقوم بانتخاب رئيس الدولة، و مساندته فى الحكم و الإدارة.

و قد ألغى هذا الدستور مبدأ الحكم الوراثى. أمّا الإمامة فقد حدد صلاحياتها و جعلها قاعدة للدين، و لا علاقة لها بالسياسة أو الدولة.

فاعتبر المهدي هذا كله هجوما مباشرا، أو مؤامرة تستهدف مقام «الإمامة» و تهديم أركانها، أو بالأحرى اقتلاع جذورها، و تحويلها إلى قاعدة دينية لا شأن لها، و لا تملك من الصلاحيات، و المعنويات إلّا الاسم.

كان عبد الله المهدي يعلم بكل ما يبيته له القرامطة، كما يدرك ما أعدّه العباسيون، فهو بين فكي عدوين مفترسين يتسابقان على التهامه، و كانت الأخبار التى يتناقلها الناس قد جاءت تحمى اندفاع جيش القرامطة بقيادة الحسن بن زكرويه صاحب الشامه على القرى، و المدن الشامية، و وضعه مدينة سلمية هدفا له . فعجل بالذهاب، و خرج من سلمية تحت جنح الظلام إلى مدينة حماه، و كان يرافقه ولى العهد القائم بأمر الله و زوجته و ابنتاه، و ابنه الصغير، و بعض الخدم، و خادمه المخلص جعفر الحاجب الذى ذكر فى سيرته أنه أخذ معه كل ما خف حمله، و غلا ثمنه من المجوهرات و الأموال، و دفن الباقي فى حفرة فى صحن قصره إلى جانب بحيرة الماء التى كانت تظللها شجرة النخيل دون أن يطلع عليها أحدا، و من حماه انتقل إلى قرية «سلحب» التى تبعد خمسة و عشرين ميلا إلى الجهة الغربية من حماه، فبقى فيها ليلة فى ضيافة أحد أتباعه المشرف على تربية خيوله الأصيلة، و هناك مصد ر آخر يذكر أنه ذهب إلى قرية «طيبة الإمام» الواقعة إلى شمالى مدينة حماه على بعد عشرة أميال، و هذه القرية كان قد اشتراها أحد الأئمة و سماها باسمه، و كانت من المراكز المهمة لتربية الخيول و المواشى. و من هناك توجه إلى دمشق ..

فكان يسير فى الليالى، و يستريح فى النهار و من ضواحي دمشق انتقل

##PAGE=247##

إلى حوران ثم إلى الأردن، فنبلس، وأخيرا وصل إلى «الرملة» الواقعة إلى الشمال الشرقي من القدس، وهناك حلّ ضيفا على داعيته المخلص «أبي الكوثر» وهو يخفي شخصيته عن كل الناس إلّا عن داعيته صاحب المنزل، وكان على جانب كبير من النفوذ والجاه في البلدة، مضافا إلى مروته وخبرته وسعة نظره، فنصح المهدي بالترث، و عدم متابعة السفر إلّا بعد التحقق من خلو الطريق من عيون العباسيين و عملائهم الذين انبثوا في كل مكان يراقبون الطرقات، و الممرات التي توقعوا أن يمر بها المهدي.

و هكذا أقام عبد الله المهدي في الرملة يراقب الأحداث، و ينتظر سnoch الفرصة لمتابعة السفر . أما سلمية بالنسبة إليه فكانت موضع تذكرو وأفكاره. لقد كان يعتقد أن القرامطة مهما بلغ بهم الجنون و الحقد، فلن يتجسروا على مدهمة المدينة التي نهلوا من ينابيعها معرفتهم و أفكارهم، و لا على الأسرة التي وجهتهم، و وضحت لهم سبل الحياة، و لكن الأمور، و الأحداث جاءت على غير ما تصوره، فإن الحسن بن زكرويه بعد ما فرغ من تدمير معرة النعمان و حماة، جاء إلى سلمية، ففرض عليها الحصار . و كان يحسب أن عبد الله المهدي فيها، فامتنت المدينة على ه بادىء ذى بدء و لكنه عاد و هادن أهلها، و بعد مفاوضات طويلة أقنعهم بأنه ما جاء محاربا، و لا غازيا، بل جاء مسالما و موادعا، و قاصدا الاجتماع إلى المهدي تمهيدا لإعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية، و أقسم على ذلك، و أعطى العهد و الأمان، ففتحو له الأبواب بعد أن وثقوا بأقواله، و عند ما تم له دخول المدينة أعمل السيف في رقاب السكان دون تمييز، و منع أحدا من الخروج من الأبواب، و كما ذكرنا فإنه قتل جميع سكانها دونما استثناء و لم يسلم حتى صبية الكتائب، كما أمر بقتل الحيوانات الأليفة، و الطيور الأهلية . و جاء أخيرا إلى قصر الأئمة الواقع في الجهة الجنوبية على مقربة من القلعة، و بمحاذاة المسجد الكبير «ذى المحارب السبعة»، فأخرج كافة أفراد أسرة المهدي إلى الساحة العامة للقصر، و أمر أحد السيافين فتولى قطع رؤوسهم الواحد تلو الآخر، ثم رمى بجثثهم في أحد الآبار العميقة . و يذكر التاريخ أن عددهم بلغ / ٨٣ / بين رجل و امرأة و طفل، و بعد هذا انتقل إلى قصر العباسيين، و كان يقع في الجهة الشمالية للمدينة، و هذه الأسرة تنتمي إلى عبد الله بن صالح

##PAGE=248##

ابن علي بن عبد الله بن عباس نجل الصحابي المشهور، و مستشار الإمام علي، و الفقيه الكبير عبد الله بن عباس، و كان والد عبد الله الثاني المذكور عاملا على «قنسرين» و «حمص» و «دمشق» من قبل العباسيين فنزل سلمية، و أجرى فيها الأنهر، و امتلك الأراضي و البساتين، و مما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأسرة كانت تتمتع بثقة الخلفاء العباسيين في بغداد، حتى أن الخليفة «المهدي» العباسي زارها في سنة ١٦٣ هـ و كان في طريقه إلى القدس، يضاف إلى ذلك أنه زوج عبد الله من أخته، و عيّنه عاملا على أحد الأقاليم العراقية و كان جعفر بن علي الهاشمي أحد أفراد هذه الأسرة معروفا بصداقته للشاعر «عبد السلام بن رغبان» المعروف بـ «ديك الجن».

و نعود إلى الحسن بن زكرويه : فإنه بعد فراغه من إبادة الأسرة الإمامية جاء إلى قصر العباسيين كما ذكرنا فأباد الأسرة المذكورة عن بكرة أبيها، و ذكر أن عددها بلغ / ٥٧ / نفسا.

هذه الدماء الغزيرة لم تشف غليل حسن بن زكرويه، و لم تحقق أحلامه ... كان يأمل أن يلتقي بعدوه الأكبر «عبد الله المهدي» و يحاسبه على كل الأمور، و لكنه لم يعثر عليه، و هذا ما جعله قلقا و متبرما و أخيرا عاد لينزع إلى الحيلة، و هو يظن أنها تحقق رغباته، و توصله إلى أهدافه، فكتب كتابا إلى عبد الله المهدي، و أمر ابن عمته «عيسى» أن يذهب إلى

الرملة، أو إلى أى مكان آخر يكون قد وصل إليه، فيسلمه الرسالة، و يؤكد له بأنه ما جاء إلى سلمية إلا للاجتماع إليه، و لمبايعته بالزعامة، و القيادة، و أن الناس الآن بانتظاره على أحر من الجمر فى سلمية.

وصل الرسول إلى «الرملة» و بعد جهود مضيئة تمكن من الالتهاء إلى مقر عبد الله المهدي فدخل عليه، و سلمه الرسالة، و كانت الأخبار الموثوقة وصلت إلى المهدي صحيحة مفصلة عن الهجوم الذي تعرضت له «سلمية» و عن إبادة أسرته. فى تلك اللحظات العنيفة تتجلى عظمة المهدي و متانة أعصابه، فلم تظهر عليه أية دلائل تشير إلى أن ه قد سمع بالأخبار، بل كان استقباله للرسول عاديا و حارا، فتسلم منه الرسالة فلما وقف على ما جاء فيها أعلمه بمرافقته على العودة بعد خمسة أيام، أى بعد أن تكون زوجته قد استعادت صحتها، ثم حمّله رسالة إلى الحسن يخبره بما عزم عليه.

##PAGE=249##

بعد ذهاب الرسول أدرك عبد الله بأن بقاءه فى الرملة لم يعد مفيدا، بعد أن علم القرامطة بمكانه، و ربما يتوصل العباسيون إلى معرفة مقره أيضا، فغادر الرملة تحت جنح الظلام باتجاه الأراضى المصرية عبر «غزة» و الواحات الصحراوية، و كان يرتدى ثياب تجار الفرس هو و أفراد عائلته، و فى الأراضى المصرية لم يجد ما كان يخشى منه، بل على العكس وجد فى كل مكان الترحيب و الاحترام، و لكن كل هذا لم يحل دون القبض عليه و هو فى موقع «الوجه البحرى» و كان قد وافاه إلى ذلك المكان أحد دعائه الأقرباء المكلف بشؤون مصر، و هو:

محمد بن على بن محمود المقيم و لهذا الداعى يعود الفضل بتسهيل مهمته، و ايصاله فيما بعد حتى حدود برقة.

جاء الجند بعبد الله إلى مقر القائد الأعلى، أو الحاكم العسكرى لمصر من قبل العباسيين فى ذلك الوقت، و اسمه محمد بن سليمان، و كان الخليفة المكتفى قد انتدبه لطرد آخر ولاء الطولونيين من الديار ال مصرية. فتمكن فى فترة قصيرة من تنفيذ مهمته، و عند ذلك أمره الخليفة العباسى بالبقاء لفترة أخرى، و خلال وجوده وصل المهدي إلى مصر، و عند ما جاء به الجند طلب المهدي الاجتماع إليه على انفراد، و بعد خلوة قصيرة خرج محمد بن سليمان ليعلن للناس بأنه ليس هو المهدي المطلب، و أمر الجند بالحفاظ عليه حتى وقت سفره.

بعض المصادر التاريخية ذكرت بأن الذى قبض عليه هو عيسى النوشرى عامل العباسيين على مصر، و لكن الحقيقة غير ذلك، لأن المصادر المذكورة عادت و قالت أن محمد بن سليمان بعد أن عاد إلى بغداد قبض عليه الخليفة العباسى المكتفى و قتله بعد ثبوت تهمة الرشوة، و قبض الأموال من المهدي لقاء اطلاق سراحه، و هناك احتمال بأن يكون محمد بن سليمان من أتباع المهدي الإسماعيليين المستورين.

يحدثنا جعفر الحاجب فى سيرته بأن عبد الله المهدي دخل مصر متسترا فى زى التجار، و كانت الكتب من بغداد قد وصلت إلى مصر بصفته، و لكن بعض أهل خاصة والى مصر كانوا مؤمنين بدعوة المهدي، فأسرع إليه بعضهم بالخبر، و لطف فى أمره، إلى أن خرج من مصر، و معه القائم بأمر الله، و بعض عبيده، و يزيد جعفر على قوله:

##PAGE=250##

سرنا أى المهدي و رجاله من الرملة إلى مصر، فاستقبلنا، أبو على الداعي و كان مقيما فى مصر، و يدعو بها، و أكثر دعاء الإمام من قبله، و كان الداعي فيروز هو الذى رعاه و رباه و زوج ابنته «أم أبى الحسين» إلى ولده ...

فتقدم إليه المهدي قبل دخولنا مصر، بأن لا ينزلنا عنده، و لا عند من يشار إليه بشىء من أمرنا، و أن ينزله عند من يثق به، فأنزله عند ابن عياش.

و يروى المؤرخ المسيحي حكاية نقلها عن ابن محمد على الداعي المقيم فى مصر، و هذا كان رفيق المهدي أثناء وجوده فى الديار المصرية، عند ما كان فى طريقه الى شمالي افريقيا .. قال:

كنت يوما قائما على الجسر بمصر مع الامام ال مهدي الى أن سمعت الجرس و النداء يقول : ألا برئت الذمة من رجل آوى رجلا صفته كذا و كذا، و نعتة كذا و كذا، و وصف صفة المهدي، فمن أتى به فله عشرة آلاف دينار حاللا طيبا ... فقال المهدي: يا أبا على ... المقام بعد هذا عجز، ثم ركب الجسر، و سرت معه، و سألته أن أرحل معه الى بلاد المغرب. فقال: على من ادع من لى هنا .. فبكيت فأنشدنى شعر امرىء القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه و أيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

و يروى المسيحي قصة أخرى عن وصول المهدي الى مصر، و عن رحيله عنها فى زى التجار، و هذه القصة سمعها من أحفاد أبى على الداعي المقيم الذى رافق المهدي أثناء اقامته فى مصر .. فقال:

صلى المهدي صلاة الصبح فى الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر، و معه أبو على الداعي، فلما خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم المهدي و قال له: قد حصلت لى عشرة آلاف دينار .. فقال له: و كيف ذلك؟

قال: لأنك الرجل المطلوب ... فضحك المهدي ثم ضرب بيده على كتف الرجل و أخذ به الى صدر الجامع و قال له : عليك عهد الله، و غليظ ميثاقه، إذا جمعت بينك و بين الرجل الذى تطلبه كان لى عليك و لصديقى هذا خمسة آلاف دينار، ثم أخذه بيده، و أتى به الى حلقة قد اجتمع الناس فيها، فأدخله من جانب، و فارقه بسرعة من باب الجانب الآخر، و لم يلتقيا بعد ذلك.

خرج المهدي من مصر، واضعا أمام أنظاره «برقة»، فاستراح فى بريتها بضعة أيام، ثم تقدم عبر الصحراء و الواحات التابعة للمغرب الأدنى أى «ليبيا» اليوم، و كان يسلك طرق القوافل التجارية، و ما زال

ينتقل من مكان الى آخر متحملا الحر، و المشاق، و خشونة قطاع الطرق، و اللصوص، و الحراس، و كان المهدي يعرض عليهم الهبات و الأموال، و يستخدمهم في قضاء بعض الحاجات الضرورية حتى اجتاز أخيرا مراحل الخطر، و عند ما أصبح على مقربة من طرابلس علم به «زيادة الله بن الأغلب»، و لكنه غض الطرف عنه، رغم الأوامر العباسية إليه بضرورة القبض عليه، و يقال إنه لم يتأكد من شخصه، و هناك رأى آخر، هو أن المهدي أهداه بعض التحف الثمينة، و الجواهر النادرة، و من هناك تابع سيره مجتازا أطراف المغرب الأوسط «تونس» عبر الواحات، و التلال و الصحراء . فبدلا من أن يتوجه الى المنطقة التي استولى عليها قائده الكبير أبو عبد الله الشيعي توغل في أراضي المغرب الأقصى على حدود الصحراء حتى وصل الى «سجلماسة» و هناك قبض عليه صاحبها أليسع بن مدرار، و وضعه تحت الإقامة الإجبارية، و هكذا وقع في نهاية الشوط في ما كان يخشاه، و ذلك في سنة ٢٩٦ هـ.

المصادر التاريخية لا تذكر لنا الأسباب التي جعلت المهدي يسلك هذا الطريق الصحراوي البعيد ليصل الى أرض لا يعرف أحدا فيها، مع قدرته على سلوك طريق آخر يصل به الى الأراضي التي يسيطر عليها داعيه، فهل ضلّ المهدي الطريق، أم أن هناك أسبابا أخرى؟

تلك أسئلة لا جواب عنها لدى المؤرخين، ربما لأنهم لم يفكروا بها أصلا.

هذا و قد وقعت في كتاب «الناصر الأموي» لمؤلفه «سيمون حايك» على نص يقول:

إن المهدي كان في سجلماسة يقيم اقامة جبرية معززة بالحراسة الشديدة في منزل تملكه امرأة من آل مدرار تسمى مريم و هي عمّة اليسع بن مدرار، و كانت تقيه ورعة، و ذات تأثير على ابن أخيها، و إليها يعود الفضل بحقق دم المهدي و نجاته من الأخطار، فكانت تقف بوجه كل من يحاول الإساءة إليه، أو إلى أي فرد من أفراد أسرته و لقد حفظ المهدي للسيدة يدها، فأغدق عليها الأموال و الهدايا و أمر بعد خروجه من سجنه، بالمحافظة عليها و أبقى لها أملاكها و أحاطها برعايته هي و أبناءها طيلة مدة حكمه.

هذا و لا نحسب أن القول في رحلة المهدي الشاقة العجيبة قد انتهى .

فالأسرار ما زالت تكتنفها و الكثير من الأسئلة ما فتىء ينتظر جوابا.

##PAGE=252##

و من يدري فقد يكون الجواب أيسر مما نظن و نحسب كأن نقول بأن القدر و حسن الطالع و اليمن كانت وراء ما حققه دون أن نغفل ما كان عليه من جسارة و عبقرية و حسن تدبير و هي شمائل سهلت له العسير فتخطى العقبات و تجشم الأخطار حتى بلغ ما يصبو إليه.

و عند ما علم القائد أبو عبد الله الشيعي و هو يتابع فتوحاته في المغرب الأوسط بما وقع للإمام المهدي في «سجلماسة» قابل الخبر ببرودة أعصاب، و عدم اهتمام، مقدرا بأن أي تحرّك من جانبه، أو أي حماس يظهره يكون حافزا [لا ليسع] الى ارتكاب جريمة قتل المهدي، و مما يجب أن نشير إليه أن هذا الموقف جعل «اليسع» يشك في شخصية المهدي بقوله الى المقربين منه: لو أنه المهدي لتحرّك أبو عبد الله حقا، ثم لماذا جاءنا هذا الرجل من المغرب الأدنى إذ كان بإمكانه الدخول

الى البلاد التي يسيطر عليها صاحبه ما دام هو المهدي؟ كل هذه الاحتمالات وضعها «اليسع» أمامه، و اكتفى أخيرا بإرساله رسالة الى الخليفة العباسي في بغداد، وفيها تفاصيل قصة التاجر الايراني المقبوض عليه، و لكن جواب الخليفة تأخر، و ذاك التأخير جاء لمصلحة المهدي، و حسن حظه . أما أبو عبد الله الشيعي، فإنه تابع زحفه، و فتوحاته كالمعتاد، دون أن يجعل سببا لأحد كي يشك بخطته، و ما زال يتقدم من نصر الى نصر حتى وصل الى ضواحي «سجلماسة» التي تركنا «عبد الله المهدي» أسيرا فيها، و قد استغرقت هذه الرحلة ما يقرب من الشهرين . و مما يجب أن نشير إليه أن «سجلماسة» اشتهرت بجمال طبيعتها، و مناخها، ففيها يجري نهران أصلهما واحد، اذا قرب تشعب الى نهرين يسلكان شرقا و غربا . أما موقعها ففي سهل واسع، و حولها أرباض كثيرة، و تبعد عن القيروان ستة و أربعين فرسخا، و كان بنو مدرار قد جعلوها عاصمة لدولتهم.

بعد أن وصل أبو عبد الله الشيعي الى سجلماسة أحكم عليها الحصار، و أنذر حاكمها اليسع بالاستسلام، و لكن «اليسع» رفض الإنذار. و أخيرا وجد أن لا قدرة له على الوقوف بوجه هذا الجيش الجرّار الذي يحمل ألوية النصر، ففرّ تحت جنح الظلام مع أفراد عائلته، و كان قد أعدّ نفقا تح ت الأرض خاصا للهرب، و ينفذ الى خارج المدينة، و بعد فراره الذي تمّ في سنة ٢٩٦ هـ دخل القائد الاسماعيلي أبو عبد الله الشيعي المدينة وسط الأهازيج، و أغانى

##PAGE=253##

النصر، و تقدّم فورا الى سجن المهدي فأخرجه و أركبه على حصانه، و جاء به الى الساحة العامة و قدمه للجيش و للشعب بقوله:

«هذا هو المهدي الذي كنت أبشركم به».

إن التاريخ الطافح بالأحداث، و الأخبار، و القصص الشيقة لم يفصح لنا عن الأسباب التي حدثت بآليسع بن مدرار الى الاحتفاظ بالمهدي هذه المدة التي تقرب من الشهرين، فهل كان يخشى أن لا يكون الرجل المقبوض عليه هو المهدي الحقيقي، فيرتكب بقتله جريمة يؤاخذ الله عليها، أم أن المهدي تمكن من شراء سكوته بما قدمه إليه من أموال و هدايا، كما فعل مع غيره أثناء رحلته، و هناك من يقول إن اليسع كان يريد أن يساوم أبا عبد الله الشيعي على المهدي، و ينقذ بلاده و ملكه به، لو أن أبا عبد الله أظهر الجزع أو الخوف.

##PAGE=255##

الإسماعيلية في مصر

##PAGE=257##

لم تكن دولة المهدي الفاطمية في المغرب، لتظهر على مسرح الدنيا العربية و الإسلامية بهذا الشكل القوي، أو تعيش طويلا وسط المؤامرات الخارجية، و الثورات الداخلية لو لم يكن شعارها اقامة مجتمع أفضل يرتكز على أسس العدالة و الحرية و المساواة، و احلال النظام و القانون، و اعتماد الإدارة و التنظيم، و قطع دابر الظلم و التحكم و الفساد . فعبد الله المهدي عند ما أرسى قواعد دولته الفاطمية، وضع نصب عينيه منافسة العباسيين و الأمويين، و سبقتهم في كل ما يتعلق بالحكم و توفير

الأمن و الرخاء للرعية، و تطبيقه المبادئ الإنسانية التي تجعل المساواة قائمة بين جميع الطبقات، فاعتمد الدعاة، أو بلغة أصح أعاد مدرسة الدعوة من جديد الى سابق عهدها، و أناط بدعائه مهمة نشر الدعاية للدولة في أقطار المشرق و المغرب كافة، و خاصة في الديار المصرية التي كانت تتأثر باهتمام آبائه و أجداده قبل ظهور دولته، و هكذا وجّه إليها الدعاة و أمدهم بالمعلومات، و رسم لهم الخطوط.

و من المعلوم أنه لم يكن لهؤلاء الدعاة السريين بالأمس سوى قاعدة سرية، لا سلطة زمنية لها . أمّا اليوم فقد أصبح لهم دولة كبرى تؤمن لهم الحماية و الرعاية . و لهذا فإن نشاطهم تضاعف، و في فترة قصيرة تغلغلوا في صفوف الشعب المصري حاملين إليه الأفكار الجديدة، واضعين أمامه مساوئ الحكم العباسي، و أخلاقية خلفاء بغداد، و استعمل هؤلاء الدعاة كل أسلحة الدعاية من ثقافية، و فكرية، و أدبية. فتحدثوا إلى رجال الدين، و إلى الأدباء، و الشعراء، و عرضوا لما تعلقه الدولة الفاطمية على الأدب و العلوم و الثقافة من أهمية في

##PAGE=258##

حياتها، كما كشفوا لهم عن النظم، و الإدارة، و معاملة الرعية، و القوانين التي اعتمدتها الدولة للترفيه عنهم، و إشاعة العدل و الحرية بينهم، و هكذا قربوا الأدباء، و استقطبوا العلماء، و وضعوا أمامهم الحلول للخلاص من الحكم الجائر، لأن كل دولة لا يكون للعلم و للثقافة فيها نصيب، فإنها لا تلبث أن تنهار، و تذهب طعما لتيارات الجهل و الغاوة، و ليس غريبا أن تخطو الدولة الفتية هذه الخطوات و هي في بدء عهدها، فقائدها المهدي عاش و تربى في المدينة التي انبثقت من إحدى جهاتها جمعية الدعوة المسماة «إخوان الصفاء و خلّان الوفاء»، و هي أول أكاديمية عرفها العالم.

و في عهد عبد الله المهدي كان الداعي «فيروز» هو المسؤول الأول عن الدعوة في القطر المصري، و كان من أجل الناس عند الأئمة، و من أعظمهم منزلة، و كان من دعاة المهدي أيضا و من دعاة القائم بأمر الله أبي جعفر الجزري . و قد ذكر أن المهدي أوكل إليه أمر حريمه و أمواله عند ما خرج من سلمية، و لكن هذا الداعي مات في «رقادة»، فكيف تمكن من الإفلات من الحصار الذي فرضه «الحسن بن زكرويه» على سلمية. أما أبو علي الداعي المقيم فقد ذكره جعفر بن منصور اليمني في كتابه «الفترات و القرانات»، و قال عنه بأنه عرف «بالشيخ الأجل المفيد»، و هو أحد تلاميذ فيروز، و زوج ابنته، و قد أنجب ولدا هو محمد الذي بلغ في عهد المهدي، و القائم، و المنصور، و المعز المكانة الجليلة بالرغم مما كانت تعاني منه الدولة الفاطمية، و هي في بدء عهدها، فإن قائدها المهدي لم يتوقف لحظة عن تنفيذ ما رسمه . ففي سنة ٣٠١ هـ، أعد جيشا من المغاربة، و جعل أكثريته من قبيلة «كتامة»، و سلّم قيادته للقائد الكتامي حباسة بن يوسف الذي كان واليا على «برقة» من قبل الفاطميين، و فوّض إليه مهمة احتلال القطر المصري، فزحف «حباسة» إلى الديار المصرية باتجاه الاسكندرية، فدخلها بسهولة، و احتل كامل الوجه البحري دون أن يلقي مقاومة تذكر، و عند ما علم الخليفة العباسي المقتدر بهذا الهجوم المباغت بعث مؤنس الخادم على رأس حملة كبيرة فجاء الى مصر، و اشتبك مع الجيش الفاطمي في معارك عديدة انتهت بانتصاره و ارغام حباسة على التراجع، و لم تنفع الامدادات التي أرسلها المهدي بقيادة ولي العهد، القائم بأمر الله. و ممّا تجدر الإشارة إليه أن الجيش

##PAGE=259##

العباسي كان أكثر عددا، و تنظيما من الجيش الفاطمي الذي لم يكن قد وصل بعد الى حد خوض الحروب الكبرى البعيدة عن بلاده.

و تذكر المصادر أن الشعب المصري في تلك الفترة وقف موقفا عجيبا، فقد انقسم الى فريقين : فريق مؤيد للفاطميين، و فريق مؤيد للعباسيين، و كان من الطبيعي إزاء هذا الوضع أن يندلع القتال بين الفريقين، و لكن الجيش العباسي تمكن من إخماده.

هذه الهزيمة التي تعرض لها الجيش الفاطمي لم تثن المهدي عن إعادة الكرة .. ففي سنة ٣٠٧ هـ، جهّز حملة عسكرية ثانية أكثر عددا و عدة، و زودها بالمؤونة و السلاح و العتاد، و عهد الى ولي العهد القائم بأمر الله مهمة قيادتها، فزحف من المغرب عبر طرابلس و برقة، و تمكن في فترة قصيرة من الاستيلاء على الاسكندرية، و الجيزة، و الوجه البحري، و عند ما علم الخليفة العباسي بهذا الهجوم جهّز حملة ثانية قدر عدد أفرادها بستين ألفا، و عهد بقيادتها الى مؤنس الخادم أيضا فجاء الى مصر و اشتبك مع الفاطميين في معارك طاحنة انتهت بهزيمة الفاطميين . هذا و قد أحرق «مؤنس» بعض مراكزهم و سفنهم التي كانت راسية في مياه بحر الاسكندرية، و هكذا عاد القائم بأمر الله الى المغرب دون أن يحقق أى تقدم، و حول هذه المعركة ذكر جعفر الحاجب الذي رافق المهدي في رحلته من سلمية الى المغرب كما ذكرنا القصة التالية:

عند ما غادر عبد الله المهدي مدينة سلمية اصطحب معه مجموعة من الكتب كان يحرس عليها أشد الحرص، و يقول جعفر: بينما كنا في طريقنا الى المغرب عند واحات «برقة» طلع علينا بعض اللصوص، فسلبوا منا أشياء كثيرة، و من جملتها الكتب المذكورة، و عند ما رجع ولي العهد «القائم بأمر الله» من غزو مصر عرج على المكان، و ضرب حصارا حوله، ثم قام بالتحريات بنفسه، و فتش عن الكتب، و عاد بها الى المغرب قائلا: لو لم يكن من أمر غزوة مصر إلا استرجاع هذه الكتب، لكفانا نصرا.

و قد اعتبر بعض المؤرخين هذه الكتب أنها مجموعة «رسائل إخوان الصفاء و خلّان الوفاء» و هناك من قال غير ذلك .. و الله أعلم.

و بين سنة ٣٢١ هـ و سنة ٣٢٤ هـ أعاد المهدي الكرة على مصر للمرة الثالثة، فجهّز حملة و صفت بأنها أكثر عددا و عدة و تنظيما، و عهد

##PAGE=260##

بقيادتها الى القائد الكتامي حبشي بن أحمد فتمكن في فترة قصيرة من الاستيلاء على أكثر مدن و قرى القطر المصري، مما دعا زعماء البلاد و الشيوخ الى المشول بين يديه و اعلان الطاعة و الولاء ... و من الجدير بالذكر أنهم اتفقوا معه على توقيع معاهدة صلح معتبرين أنفسهم من رعايا الدولة الفاطمية، و بعد هذا الانتصار عادت اكثر جيوش الفاطميين الى المغرب سوى عدد ضئيل ظلّ لحراسة المدن و المواقع، و لكن الإخشيديين تجندوا لمحاربة الفاطميين بعد أن أمدهم العباسيون بالسلاح و الأموال، فتمكنوا من قتل الجنود الفاطميين، و خلال فترة قصيرة أعادوا البلاد الى الحضيرة العباسية .. و من الواضح أن أتباع الفاطميين في مصر لم يستطيعوا الوقوف بوجه الإخشيديين، فاستسلموا للأمر الواقع، و باتوا على مضض.

و مهما يكن من أمر فإن المحاولات الثلاث التى ق ام بها الخليفة المهدي لاحتلال مصر، و إن تكن قد منيت بالفشل، و أثقلت كاهل الدولة بالنفقات و الأموال، فإنها لم تغير من أهداف الفاطميين أو تنهيم عن التطلع الى مصر.

و قد ظلت هذه الأمنية تراود أفكارهم الى أن جاء الخليفة الفاطمى الرابع الامام المعز لدين الله فأرسل قائده الكبير جوهر الصقلى الذى حقق ما كان يتمناه أجداده، فبنى القاهرة و أقام جامعة الأزهر ...

و كل هذا سنذكره فى موضعه.

«مصر الفاطمية»

لبست مصر فى عهد الفاطميين حلة الازدهار و الثراء، و مثلت أدوارا مهمة فى السياسة و الحضارة، و فى الآثار التى خلفها الفاطميون الدليل الساطع على عظمة المظاهر التى أبدعها المجهود البشرى العامل فى سبيل النهوض بالقيم الإنسانية و الحضارة و الثقافة الإسلامية.

هذا و قد أجمع المؤرخون الذين عايشوا تلك الفترة، أن بلاد الكنانة عاشت فى كنف ذلك الماضى المجيد عيشة الرغد و السعة مما جعلها حديث الركبان فى العالم، بعد أن خرج بها الفاطميون الى مقام الأولية فجعلوها مركزا للخلافة الإسلامية التى فاقت فى عظمتها و أبتها و حضارتها جميع الخلافات السابقة، و كأن الفاطميون أرادوا عند ما أنشأوا القاهرة أن يجعلوها منها عاصمة كبرى تنبعث من

##PAGE=261##

أرجائها طاقات جديدة يستعيد بها الإسلام قواه التى كانت تشكو الوهن و العجز بعد فتور بغداد و ضعفها و قعودها عن قيادة الأمة الإسلامية.

و كانت مصر بموقعها الاستراتيجى مركزا وسطا بين الشرق و الغرب و بين الشمال و الجنوب و على البحر الذى كانت ترصد منه مختلف التيارات.

لقد كانت القاهرة مركزا سياسيا و معقلا لقوة جبارة تمثل البقاء و الازدهار، فعن طريقها توزعت خيرات المشرق و ذخائره نحو أوروبا و المغرب قبل وجود قنال السويس فلا غرابة اذا ما ازدهر اقتصادها و أصبحت محل اعتبار مختلف الدول الغربية جميعها و خاصة التجارى و فى الوقت نفسه كانت هدفا للحملات و للمؤامرات الاستعمارية .

بعض المؤرخين يذكرون أن ازدهار الاقتصاد فى مصر الفاطمية راجع الى الأموال التى نقلها الفاطميون ^{٢٣} من المغرب، و لكنهم لم ينسوا الثروة الكبيرة التى تركها الإخشيديون، فضلا عن الأموال التى كانت تتدفق من صقلية و هى الجزيرة الكبرى التى ظلت تابعة لمصر.

^{٢٣} (*) الإمام العزيز بالله عند ما سار إلى بلبس في طريقه إلى المشرق سنة 385 هـ. كان معه خمسة آلاف حمل على كل حمل صندوقان كبيران مملوآن أموالا.

لقد وضع الوزير يعقوب بن كلس سنة ٣٦٣ هـ، برامج أو نظم جباية و ضريبة و مكوسا على التجارة و الصناعة، و على البضاعات التي ترد أو تمر بمصر فضلا عن المراكب البحرية. من هنا كان الدخل العام يزداد يوما بعد يوم و قد عمّ الازدهار كافة الجوانب، و دلّت تصرفات الخلفاء على البذخ و الكرم و العطاء، و كل هذا ذكره صبح الأعشى و المقریزی و نستدل منه على ثراء مصر و ازدهارها الاقتصادي، و الزراعي، و قد مرّ معنا أن الامام المعز لدين الله عمل على شق مساحات كبيرة من الأرض كانت بورا بشبكة من الخلجان و الترغ و الجسور، و جرت في عهده العادة بقياس نهر النيل لمراقبة فيضانه و اتخاذ الاحتياطات المحكمة لتفادي المكروه، و رتبت الأرض حسب تربتها لتزرع بأنواع البقول و الغلال الملائمة لها كما رتبت الزراعة لتكون المحاصيل موزعة على أيام العام الشتوية منها و الصيفي،

##PAGE=262##

و عنى الفاطميون بصورة خاصة بزراعة الفواكه من كرمة و تين و تفاح و توت و لوز و خوخ و مشمش و نخل و موز و بالزهور و الرياحين من ورد و نرجس و ياسمين و فل و قرنفل كل ذلك على نسق و ترتيب ما كانوا يعملون به في تونس. و يقول المقریزی:

إن الإمام المعز لدين الله عمم زراعة الليمون «التفاحي» و كان يؤكل بدون سكر لقلّة حموضته و لذّة طعمه و الليمون الشتوي، و الليمون السائل، و استورد النصب للنفاح من بلاد الشام و كان يسمّى الشامي و هو مضرب المثل.

و عنى الفاطميون عناية فائقة بتوزيع مياه النيل على المزارعين توزيعا عادلا بحيث لا يحدث أى نزاع أو تجارة أو استغلال أو مادة للبيع و الشراء، فقد وقرّ الفاطميون الانتفاع بمياه النيل بربط سدين هما : سد عين شمس، و سد سردوس، و كان يطلق على سد عين شمس «خليج أمير المؤمنين».

و ذكر الرحالة ناصر خسرو:

بأن مصر في عهد الفاطميين كانت تنتج عسلا كثيرا و سكرا. و من جهة أخرى فقد كان لمصر في ذلك العهد ميزة في تربية الدواجن و خاصة في تربية الدجاج بالترقيد الصناعي على النحو المتعارف عليه اليوم، و هذه الطريقة لم يستعملها أحد غير المصريين.

أمّا الصناعة المصرية فقد فاقت جميع الصناعات المعروفة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، و ذلك لأن القاهرة بوصفها عاصمة الخلافة قد جلب إليها أمهر الصناع من مختلف العواصم التابعة لها، و ذلك لدعم الصناعات المصرية. فمن المعروف مثلا أن القائد جوهر عند ما خرج من القيروان الى مصر كان مصحوبا بنخبه من أهل الصناعات و أنفس النفائس من التحف المصنوعة في المنصورية في تونس، و علينا أن ننظر في الربة الصغيرة البديعة الصنعة المحفوظة في المتحف الأثرى بمدريد و التي تحمل كتابة مرصعة بالعاج تفيد أنها صنعت في صبرة المنصورية في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، و قد كان يصنع مثلها المئات في القيروان، لهذا يجب التمييز في الآثار الفاطمية بين المغربي و المصري.

أما صناعة النسيج على اختلاف أنواعه فقد ازدهرت في مصر وخاصة نسيج الكتان الرفيع الذي كان يصنع في الفيوم و تنيس

##PAGE=263##

و دمياط، و المنسوجات الحريرية النفيسة و المنسوجات المذهبة للثياب المصنوعة بديق، و فيها أيضا كانت تصنع كسوة الكعبة المشرفة.

و كانت تصدر منها أقمشة رائجة في ذلك العصر موشاة و مطرزة بالذهب و الفضة في زخارف و كتابات غاية في الجودة و الروعة و تتضمن معلومات تاريخية من النفاسة بمكان.

و كان الخشب قليلا في مصر لهذا فان السلطات المصرية الفاطمية كانت تستورده من لبنان و من صقلية خاصة لصناعة السفن و تدعيم الأسطول المصري الكبير و في عهد الإمام المعز لدين الله بنى أكثر من ستمائة سفينة في دار الصناعة في المقس.

و عني الفاطميون بصناعة الجلود التي حذقوها، و قد استعملوها في تجليد الكتب و هكذا قل عن صناعة الزجاج و زخرفته و تحليلته بالذهب و الدهون، و امتاز بالرقعة و الجمال و هو نوعان مغربي و مصري و بينهما اختلاف بالشكل.

أما الخزف فقد تقدمت صناعته في مصر تقدما هائلا و طلوه بالذهب، فكان منه الأقداح و علب البخور و العطور، و كان لمصر الأولية في فن الترصيع و الفسيفساء و صناعة الذهب و الفضة و تحلية الأقمشة و السروج و السيوف و المصاحف و تجميل أواني النحاس و البرونز.

و كانت مصر الفاطمية مزدحمة بالأوروبيين الذين كانوا يحلون في فنادق على نسق القيسريات و هي شبه قلاع مخصصة للجاليات الأجنبية، و هؤلاء كانوا يأتون ببضائع من بلادهم ثم يتزودون من مصر بما يحتاجون.

إن موقع مصر في مفترق الطرق بين الشمال و الجنوب، و بين المغرب و المشرق قد جعلها في المحور الرئيسي الذي كان يدور حوله دولاب التجارة العالمية. فكانت القاهرة «العزبة» نقطة التجمع للبضاعة الآتية إليها، و كانت المنطلق لترويجها و توزيعها في البلدان الراغبة في اقتنائها، و ذلك إما غربا أو شمالا. فهناك غربا سلسلة من الموانئ تشمل على الاسكندرية فبرقة فطرابلس فالمهديّة، و كانت هذه من أعظم الموانئ المذكورة قبل وجود القاهرة منذ كانت المهديّة عاصمة الفاطميين، و كانت السلسلة تمتد الى الأندلس عبر المغرب الأوسط و المغرب الأقصى مؤلفة في ذات الوقت طريقا بحريا للحج الى بيت الله الحرام.

##PAGE=264##

فهذا هو الباعث على هذا النشاط الاقتصادي و المحرك لتجوال السفن، و في ذلك العصر كانت مصر تصدر الى قرطبة و بلنسية و غرناطة و اشبيلية البضاعة الواردة إليها من المشرق، و كانت تشمل على العطور و التوابل و القمارى و خشب الساج و الجواهر و الباقوت و الماس و العقيق و البخور و كانت السفن المصرية تعود حاملة الخشب الطرطوشى و الفضة و

الزئبق و تتزود من المغرب بطريقها بالقمح و الشعير و التمور و الصوف و العسل و زيت الزيتون المشهور من صفاقس و من الجزائر و تونس، و كانوا يأخذون المرجان و الاسفنج و الحرير و الفواكه.

و كان لمصر علاقة مع الجمهوريات الإيطالية و مبادلات تجارية، كما كان لها علاقة جيدة مع النوب ة فملوكها كانوا يكونون المودة للفاطمين فيرسلون إليهم أنواع الخشب و العاج و التبر و الماس حتى إن الامام العزيز بالله كان يذهب اليها لاصطياد الأسود، فيستقبل استقبالاً رائعاً. و هكذا كان بالنسبة للمشرق كسوريا و فلسطين و لبنان.

الأسطول الفاطمي

تمتع البحر المتوسط منذ أقدم العصور بموقع جغرافي مهم، جعله مطمع كل قوة تريد لنفسها الحكم و السلطان . و على الرغم من هذا فلم تستطع أية قوة أجنبية أن تفرض الاستقرار و البقاء الذي تمتع به العرب على شواطئ هذا البحر.

هناك أكثر من حضارة قامت على شواطئ هذا البحر الكبير فازدهرت و بلغت الذروة، ثم أتى عليها الزمن، فاندثرت . و أصبحت أثراً بعد عين، و كانت الحضارة العربية نغماً خالداً بين أترابها، و ما زالت أقدام العرب راسخة ممتدة الجذور إلى يومنا هذا في رقعة شاسعة تضم شواطئ الشام و مصر و أفريقيا، بما يعادل نصف شواطئ المتوسط، و يعزى سر هذا الخلود إلى أن العرب اتخذوا أهبتهم لامتطاء أمواجه وفق خطوات منظمة بعيدة عن الفوضى منذ أن لامست أقدامهم مياهه في القرن السابع للميلاد حاملين راية الإسلام.

و سرعان ما اشتد عود الأسطول العربي الفتى، فهزم بحرية الروم، و انتزع منها سيادة البحر المتوسط الذي زالت عنه صفة «بحر»

##PAGE=265##

الروم» فغدا بحيرة تابعة للدولة الفاطمية، و هكذا تمكنت الدولة الفاطمية بفترة قصيرة أن تتبوأ المنزلة العليا في تاريخ البحرية العربية.

من المعلوم أن الفاطميين قضوا على «الأغلبة» و ورثوهم، ثم تحول الصراع إلى صقلية سنة ٢١٢ هـ أو سنة ٨٢٧ م، فألمست منذ ذلك الحين إحدى القواعد البحرية للانطلاق، و لما جاء الفاطميون حولوا الجزيرة إلى مركز للهجوم محاولين اكتساب مواقع جديدة فهم كانوا في صدد إقامة امبراطورية كبرى ذات قواعد بريّة و بحرية و من الطبيعي أن يحتاج هذا إلى أسطول بحري و إلى موانئ لإنشاء المراكب. فاهتم عبد الله المهدي أول خليفة فاطمي في تونس بجزيرة صقلية و رأى أن الاحتفاظ بها قوية منيعه من أهم أهداف الدولة الفاطمية هذا فضلا عن أن الجزيرة المذكورة فيها كنوز طبيعية مثل الذهب و الفضة و النحاس و الرصاص، كما أنها منطقة زراعية تنتج التفاح و الجوز و الفواكه الأخرى . و قد واجه الأسطول الفاطمي في بدء وجوده أسطولا أندلسيا يحاول إزالة حكم الفاطميين عن أماكن عديدة، بعد ما تبين أن طموحهم لا يقف عند حد، فما كان منهم إلا أن تحالفوا مع الروم للوقوف بوجه هذا المد، و قد ذكر التاريخ أن عبد الرحمن ال ناصر حسن علاقته مع صاحب بروقانس الذي كان حاقدا على الفاطميين بسبب غزوهم موانئ جنوا- كما تحالف مع إمبراطور بيزنطة قسطنطين الثامن سنة ٣٤٩- سنة ٤١٩ هـ. الذي كان يأمل باسترجاع صقلية، بالإضافة إلى إرسال مراكبه إلى مصر لمحاربة أسطول الفاطميين، و تحسين علاقته مع الإخشيديين، و لكن خطط عبد الرحمن أخفقت

أما الحرب بين الروم و الفاطميين فقد تميزت باستلام الفاطميين زمام المبادرة و مهاجمتهم للروم فى مقر دارهم، فهذا عبد الله المهدي يرسل قائده «صابر الفتى» سنة ٣١٥ هـ على رأس حملة بحرية مؤلفة من أربعة و أربعين مركبا، فشنّ هذا غارة كبرى على سواحل الروم و مدنهم فقتل و غنم و عاد سالما، ثم أعاد الكرة فى السنة التالية فافتتح عدة موانىء و استولى على ما فيها و أجبر اصقاعا أخرى على دفع الأموال، ثم أعاد الكرة سنة ٣١٧ هـ فالتقى بسبعة مراكب و هو فى أربعة فهزم خصومه و هكذا فإن المهدي عبد الطريق لمن جاء

##PAGE=266##

بعده. و تعتبر المعركة التى قادها يعقوب بن إسحق فى آخر حياة المهدي من أشجع المعارك و فيها استولى على جنوى و سردينيا، و قد قال آدم متر عن اتصال الأسطول الفاطمى بالبحر الغربى للمتوسط ما نصه:

«و لم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادى، فقد كان بحرا عربيا، و كان لا بد لمن يريد أن يقضى لنفسه أمرا أن يخطب ود العرب كما فعلت نابولى و غيته و أمالقي».

و فى سنة ٣٢٢ هـ. استطاع أسطول الفاطميين فى عهد المهدي أن يغزو جنوب فرنسا . و ظل الاهتمام بالأسطول متواصلا و خاصة فى عهد الخليفة الثانى «القائم بأمر الله» ففى عهد هذا الخليفة تضاعفت الغارات على الموانىء الرومية. و يقول المؤرخ ابن خلدون:

و كان أبو القاسم الشيعى و أبناؤه يغزون بأساطيلهم من المهدية جزيرة جنوا و يقفون بوجه الأعداء سادين عليهم الطرق».

فهذا النص يبين لنا مدى الدور الخطير الذى شغله الفاطميون فى الدفاع عن الغرب الإسلامى.

أما فى عهد المعز لدين الله فقد كان للبحرية الفاطمية شأن يذكر فى بلاد المغرب و مصر، و قد ذكر التاريخ أن المهدية سوسة اتخذت موانىء لشن الهجمات على الروم، و يجب أن نذكر:

أن المعز لدين الله بفضل أسطوله، جعل غربى البحر المتوسط بحيرة فاطمية، و هذا الأسطول كان العامل الأكبر فى انتصارات الفاطميين البحرية و تزويد قائده جوهر الصقلى بالإمدادات أثناء فتحه مصر.

فإلى هذا الأسطول يعود الفضل فى فتح مصر بأسرع وقت، فقد كان همزة الوصل بين جيوش جوهر الصقلى الغازية و بين المعز فى المغرب، و فى حراسة هذا الأسطول كانت الإمدادات و المؤن تصل إلى جوهر فى سهولة و يسر . و لهذا فإن الإمام المعز لدين الله اتخذ فى بعض المدن المصرية دورا لصناعة السفن فأنشأ فى المقص دار صناعة ضخمة، و يبدو أن المعز لدين الله لم يهمل دار صناعة الفسطاط و دمياط و الإسكندرية.

مصر بالإضافة إلى أهداف الخليفة المعز لدين الله التى ترمى إلى التمركز فى الشام و اتخاذها ممرا للعبور إلى بغداد لهذا فإنه استولى على موانىء صور و عكا و عسقلان فحشد فيها الشلنديات و الشوانى

##PAGE=267##

و لم يكن سبب بناء السفن في مصر خوف الفاطميين من غارات الروم و القرامطة على مصر و الشام فحسب، بل كان أيضا رغبتها في بسط نفوذها على البلاد التي قد يتخذها الأعداء طريقا يغيرون منها على و المسطحات و الطرادات و العشاريات و الحراقات، و قد رأينا كيف اتخذ جوهر الصقلي من عكا و عسقلان مستودعات للإمدادات التي كانت تتدفق على جيوش الفاطميين في بلاد الشام . و قد قدرت المراكب الراسية في هذه الموانىء بستمائة مركب ... و لكن هذا العدد انخفض في أواخر عهد الدولة الفاطمية إلى مائة قطعة.

و كان للأسطول الفاطمي أمير يدعى «قائد القواد» و قد سمي بذلك لأنه كان يرأس عشرة قواد، كما كان يطلق عليه «أمير الجيش»، و قد بلغ من عناية الإمام المعز و من جاء بعده من الخلفاء، أن الخليفة كان ينفق عليه بنفسه، و يساعد وزيره - و لم تكن بحارة الأسطول في مرتبة واحدة، فهناك مراتب كبيرة و صغيرة، و لأصحاب المراتب رواتب حسب درجاتهم . أما أمير الأسطول فكان من كبار الأمراء و الأعيان و كان الخليفة يقطع رجال الأسطول إقطاعات عرفت باسم «أبواب الغزاة». و كان الخليفة يترك للبحارة الغنائم و المال و المتاع و الثياب.

و عنى الإمام المعز لدين الله بالأسطول التجارى الذى كان ينقل البضائع المصرية إلى البلدان الأخرى ثم يعود محملا من هذه البلدان، و كان للفاطميين أسطولان تجاريان أحدهما فى البحر المتوسط و الآخر فى البحر الأحمر، فكانت الإسكندرية و دمياط فى مصر، و عسقلان و عكا و صور و صيدا فى بلاد الشام من أهم الموانىء الفاطمية فى البحر المتوسط، كما كانت عيذاب من أهم موانىء البحر الأحمر و كانت مزودة بأسطول حربى يقوم على الحماية.

##PAGE=268##

النسب الفاطمي و أسطورة القدّاح

لست هنا فى موقف الانتصار للإسماعيلية، و لا أرتضى أن أسند لنفسى مهمة الدفاع عنها، و لكنها الحقيقة تأبى على الوقوف موقف الصامت من قضية يتمثل فيها الظلم و التجنى و الاستهتار، و أعنى بها «أسطورة القداحيين» التى اعتمدها بعض المؤرخين، و اتخذوا منها منطلقا للطعن بأئمة الإسماعيلية، و القول عنهم بأنهم من الفرس، و أحيانا من اليهود، و كأنهم لم يكفهم كل ما ألحقوه بهذه الأسرة، حتى قاموا أخيرا بتهمونها بالخروج عن الإسلام و العروبة.

و أمام هذا الواقع لا بد من القول الآتى:

فرّ محمد بن إسماعيل، الإمام السابع بنفسه من سيوف العباسيين، إلى بلدة تدمر فاتخذها دار هجرة و مبالغة منه فى التستر على نفسه، انتحل اسم «ميمون» و عرف بالقدّاح، فكانت الأسطورة. و نحن - اتماما للفائدة - نورد هنا، ما قاله بعض الباحثين من عرب و أجانب، فى هذه المسألة:

فالمستشرق الفرنسى «سيلفستر دى ساسى»، جانب الهوى، فألقى بصيصا من نور عند ما استظهر مقتطفات دونه الشريفة «أخو محسن العلوى الشيعى» المعروف بعمالته للعباسيين، و نقلها ابن النديم فى الفهرست (الفن الخامس من المقالة الخامسة) و لكنه نسبها خطأ إلى ابن رزام، و لقد ناقش المؤرخ النويرى فى «نهاية الأرب» و المقرئى فى «تعاظ الحنفا» أقوال «أخى محسن» و خلاصا إلى اعتبارها مغرضة، لا تتفق و الحقيقة. قال دى ساسى:

«.. و حتى و لو صحَّ أن عبد الله المهدي كان دعياً حقاً و لا ينحدر من صلب على بن أبي طالب، فإن أبناء هذا الحقيقين، لم يعرف اليأس إلى نفوسهم سبيلاً، و لا فقدوا الأمل بحلول اليوم الذي يستخلصون فيه حقوقهم، و يفضحون فيه هؤلاء الأدعياء ..» وأضاف «إن نسب الفاطميين لأحد أعقد مسائل الشرق و أشدها غموضاً و إبهاماً، و في يقيني أن كتاب التاريخ في ذلك العصر، قد كتبوا ما كتبوه تحت وطأة الخوف من سطوة خلفاء بني العباس ..».

و قال المستشرق «كاترمير».

«على أن بعد الزمن، و ما ساد العقول من أوهام، و ما تسلط على نفوس

##PAGE=269##

الرجال من ميول و نزعات، فمنهم من كتب متأثراً بسلطان العباسيين، و منهم من قام بهذا العمل، معاداةً منه لهذه الأسرة و حقداً عليها، و كل هذا أحاط مسألتهم بظلام دامس، و على الرغم من تباين آراء الكتاب الأقدمين، فإنني أميل إلى القول باطمئنان و ثقة بأن إلحاق نسب الفاطميين بعلي و فاطمة صحيح لا غبار عليه».

و يعلق بعض المؤرخين على قصيدة الشاعر الكبير، و الفقيه العلوي الشريف الرضى التي أثارت و حركت أحقاد و حنق الخليفة العباسي «القادر» و قد نقل المؤرخ المقرئ عن هلال الصابي و ابنه محمد بأن الشريف الرضى لم يودع هذه القصيدة ديوانه خوفاً من الخليفة العباسي، و ذلك لأن فيها دعماً لنسب الفاطميين، و دليلاً على قرابته منهم، و هي على العموم وثيقة تاريخية دامغة تثبت قرابة الرضى من خليفة الفاطميين في مصر.

مقول صارم و أنف حمى

ما مقامى على الهوان و عندى

و بمصر الخليفة العلوى

احمل الضيم فى بلاد الأعادى

ى إذا ضامنى البعيد القصى

من أبوه أبى و مولاه مولا

س جميعا محمد و على

لف عرقى بعرقه سيدا النا

أما المؤرخ ابن الأثير، فقد جعل لقصيدة الشريف الرضى هذه أهمية تاريخية كبرى فقال:

إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب، فلم يرتابوا فى أن الفاطميين من أولاد على و فاطمة.

و يأتى المؤرخ ابن خلدون ليدحض فى مقدمته كافة الأقوال التي أنكر فيها الكتاب و المؤرخون صحة نسب الفاطميين فيقول:

«من الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين في العبيدين خلفاء الشيعة في القيروان والقاهرة من نفيهم عن أهل البيت، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل (بن جعفر الصادق) يعتمدون في ذلك على أحاديث لفتت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلزلا إليهم بالقدح فيمن ناصبهم العدا».»

أما المؤرخ المقریزی فيقول:

«فقد شدد القول على هؤلاء القائلين بعدم صحة نسب الأئمة الفاطميين، فقد اعتبر في مراجعهم أنهم بأن نسبهم إلى القداح أسطورة سخيفة».

و يضيف:

##PAGE=270##

«و أن أئمة الإسماعيلية في «تدمر و سلمية» لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم، و إن العامة لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأئمة، كما أن دعائهم أنفسهم كانوا يختلفون قصدا في ذكر أسمائهم، و ذلك لكي يحوطوهم في سياج من المنعة و التخفي».

كل هذا أوجد نوعا من الاضطراب لدى المؤرخين، فبعضهم ذهب إلى القول بأن الإمام محمد بن إسماعيل هو ميمون القداح الديصاني و اليهودي و بعضهم يقول بأنه تسمى بهذا الاسم (ميمون القداح) لأنه عمل في طبابة العيون متسترا، و المصادر الإسماعيلية تؤكد بأن ميمون القداح و ابنه عبد الله كانا داعيين للأئمة.

لكن مصادر النوبختي و القمي و الطبري و عريب بن سعد و غيرها من المصادر الموثوقة، لا تذكر على الإطلاق إن القداح كان على علاقة بالإسماعيليين.

##PAGE=271##

الاسماعيلية في اليمن

بدأ النشاط الإسماعيلي في اليمن في عهد الإمام الحسين بن أحمد (الأهوازي) حينما تمكن من استقطاب منصور اليمن و على بن الفضل .. و كان قد التقى بهما في الكوفة أثناء عودتهما من الحج، و كانا يدعوان إلى الحسن العسكري إمام الشيعة الإثني عشرية.

كانت الجزيرة العربية في تلك الآونة نهبا للاضطرابات و فريسة الدعوات الجديدة و الثورات الداخلية في قلب الدولة العباسية. كمعارضة العلويين المسلحة في بلاد الحجاز و اليمن و الدعوة السرية الإسماعيلية . التي كانت تهدف إلى قلب نظام الحكم السائد و تغيير الأنظمة الاجتماعية القائمة ...

و قد كان لهذه الأحداث أثر بارز في مجرى الحياة الإسلامية العامة .. و من الواضح: أنها عزلت بلاد اليمن عزلا تاما، و جعلتها مفككة الأوصال دون وحدة تجمع شمل الأقاليم و الولايات التي أنهكتها المنافسات الداخلية و المذهبية، و أصبحت

شبه مستقلة عن الدولة العباسية إداريا وسياسيا، ولكن هذا الاستقلال ظل مرتبطا ببغداد دينيا، لأن الولاة كانوا لا يستغنون عن بيعه الخليفة وذلك لتثبيت سلطانهم. فكان «بنو زياد» في «زبيد» وهؤلاء من ولد عبيد الله ابن زياد بن أبي سفيان و كان محمد بن زياد قد ولي اليمن من قبل الخليفة المأمون العباسي.

و كان «بنو يعفر» في صنعاء، وهؤلاء قامت دولتهم في اليمن في أواخر عهد المتوكل العباسي . و كان جدّهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي.

نائباً عن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي كان واليا للخليفة العباسي المعتصم على ن جد و اليمن، و لما توفي عبد الرحيم خلفه ابن يعفر و هو رأس الدولة، و باعث استقلالها، و استمر أعقابها في صنعاء حتى سنة ٢٨٧ هـ. و يرجع نسبه إلى «التبابعة» من حمير، ثم إن بني يعفر دخلوا تحت سيادة «بنو زياد» حيث استمرّ حكمهم إلى حين إقدام أبي الجيش إسحق بن إبراهيم على خلع طاعة العباسيين سنة ٢٨٩ إلى سنة ٢٩١ هـ.

و ظهر الإمام الزيدى المعروف بالهادي يحيى بن الحسين بن القاسم

##PAGE=272##

الرسى سنة ٢٨٠ هـ، فنزل مدينة «صعدة» و تبعته قبائل عديدة كانت ميالة للتشيع بالفطرة.

و كانت اليمن في تلك الفترة مقسمة إلى ثلاث ولايات:

الزبادة في زبيد، و اليعافرة في صنعاء، و الزبيديين في صعدة، فأدى ذلك إلى نزاعات و حروب متواصلة بين الولايات، و مهد لظهور الطلائع الإسماعيلية على أرض اليمن، و نتيجة لهذا الظهور الذي تم على يد الداعيين منصور اليمن، و علي بن الفضل. فلقد اضطربت الأطراف على عام ل العباسيين «أبي الجيش» مما دفعه إلى المهادنة، و ترك الأمور تجري على طبيعتها، فقد كان لموقع اليمن الجغرافي، و بعدها عن بغداد عاصمة الدولة العباسية، و اعتماد الإسماعيلية أساليب جديدة مذهلة في نشر دعوتها و مبادئها أثر ظاهر فيما تحقق من انتصارات.

و مهما يكن من أمر .. فإن الإمام الحسين بن أحمد الأهوازي عاد إلى سلمية و معه منصور اليمن . و علي بن الفضل، فوضعهما في مدرسة الدعوة حيث أكبا على الدراسة، و بعد أن أكملتا تحصيلهما الإسماعيلي جهزهما الإمام الحسين و أرسلهما إلى اليمن، و كان قد أعلن لهما بأنه يعلق على جهادهما الآمال بقوله:

«و الله إن الفرصة ممكنة في اليمن، و إن الذي تدعون إليه جاهز هنالك».

و يقول منصور اليمن الذي قيل أنه ينتسب إلى «عقيل بن أبي طالب»:

و كان الإمام يخصني، و يقربني، و يرمز بقرب ظهور الأمر، و دنو النصر ...

و كثيرا ما قال لي: «يا أبا القاسم ... البيت يمانى ... و الركن يمانى ..

و الكعبة يمانية ... و لن يقوم هذا الدين، و يظهر إلا من قبل اليمن ... يا أبا القاسم .. هل لك فى غربه فى الله .. فقلت: يا مولاي .. الأمر إليك، فما أمرتنى به امتثله .. قال: اصبر كأنى برجل أقبل إلينا من اليمن، و ما لليمن إلا أنت . فقلت: سأستعين بالله على ما يرضيك».

و كان على بن الفضل شابا وسيما ممتلئا صحة و نشاطا، و من أهل بيت عرف بتشيعه، قد تجند لمرافقة منصور .. فأوصى الإمام الحسين منصورا أن يكون لعلى رفيقا صالحا، و أخا كريما، و كرر له القول:

«إلى «عدن لاعة» أقصد .. و عليها اعتمد .. فمنها يظهر أمرنا، و منها تعزّ دولتنا و منها تفرق دعائنا».

ثم أمره بالاستتار، و الاعتماد على علم التأويل، و اتخاذ التشيع

##PAGE=273##

وسيلة لتحقيق الأهداف، و أن يقول بقرب ظهور «المهدى» و أن يجمع المال و الرجال، و يلزم الصوم و الصلاة و التقشف، و أن يعمل بالظاهر، و لا يظهر الباطن. و أوصاه أيضا قائلا:

«إذا ورد عليك ما لا تعلمه، فأسأل من يعلمه».

و قال عن على بن الفضل لجعفر:

«إنه شاب قريب عهد بالأمر .. فانظر كيف تسوس أمره».

و قال لعلى عن جعفر:

إن هذا الرجل الذى نبعث به معك بحر علم. فانظر كيف تصحبه، و اعرف له حقه، و لا تخالفه فيما يراه لك.

خرج الداعيان من سلمية إلى القادسية، و ذلك فى آخر سنة ٢٦٧ هـ.

و يقول منصور:

«ودعت الأهل و الأحبة متشوقا إلى إقطاع الغربه .. فلما خرجت من القادسية أوجست خيفة .. و لكنى سمعت حاديا يقول:

يا حادى العيس مليح الزجر: بشر مطاياك بضوء الفجر

فسررت و استحسنت ذلك الفأل لما سمعته، ثم وصلت مكة، و منها تابعت مع على بن الفضل، جنوبا حتى وصلنا سنة ٢٦٨ هـ، إلى بلدة «غلافقة» و كانت فى ذلك الوقت بندرا لمدينة زييد على ساحل البحر الأحمر».

بعد وصول الداعيين إلى غلافقة افترقا، فاتجه منصور إلى مدينة «الجند» وكانت غايته «عدن لاعة». ولما وصل إليها سأل عن الداعي الإسماعيلي أحمد بن عبد الله بن خليع الذي كان فيها، فعلم أنه مات في السجن بعد ما قبض عليه الأمير ابن يعفر، فنزل في داره و تزوج ابنته فيما بعد، وهذا يدل على أن الدعوة الإسماعيلية تسربت إلى اليمن منذ عهد الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل.

و على هذه الصفحات سنأتي بإيجاز على ذكر ما حققه الداعيان من فتوحات و انتصارات، و كيف انتهى أمرهما.

بعد عامين من وصول منصور اليمن، و ابن الفضل، أصبح لكل منهما جماعة كبيرة تأتمر بأمره، و تخلص له أشد الإخلاص، و طبعي في مثل هذه الأحوال أن يصبح هم كل منهما الحصول على الأموال الكافية لتنفيذ الأغراض، و نشر المبادئ و الأفكار، و الاستيلاء على

##PAGE=274##

المراكز الهامة، و المواقع الحساسة، فأصدر منصور أوامره بجمع الأموال وفق الخطة المتبعة في المشرق لدى أئمة الإسماعيلية، و فعل على بن الفضل فعله، و بعد فترة قصيرة تمكن منصور من احتلال «عبر محرم» ثم جمع جمعا من رجاله، و استولى على جبل «الجميعة» كما هاجم «بيت ريب» و هو رأس «مسور» ثلاث مرات حتى استولى عليه، و كانت هنالك خطط مدبرة، و كان يسير من نصر إلى نصر.

عند ما استولى على جبل «مسور» من أعمال صنعاء، كان معه ثلاثة آلاف محارب، فبنى في هذا الجبل حصنا، و جعله قاعدة لشن الهجمات على المواقع الأخرى و استمر في زحفه حتى استولى على بلاد «عيان» و «بنى شاور» و «حملان» ثم على «ذخار»، و امتلك «شباب حمير» و جبل «كوكبان» .. و هنا أقبل عليه الناس يدخلون في طاعته طوعا أو كرها، فانضوى الكثير من بنى يعفر و ملوك حمير في الدعوة الإسماعيلية طائعين أو كارهين، و قويت في أرض اليمن هذه الدعوة المنظمة.

و لم يقف نشاط منصور عند هذا الحد، بل أرسل جيشا لمساعدة «ابن الفضل» حين أحيط به قرب «تهامة»، و كان من أثر ذلك أن عاد «ابن الفضل» إلى قاعدته سالما، و كان قد احتل «لحج» و «أبين» و دخلت قبائل «مذحج» في طاعته، و أخيرا احتل «المذبحرة» سنة ٢٩٤ هـ. ثم دخل حصن «التعكر» و منه جاء إلى بلاد «يحصب» فدخل «منكت» ثم هجم على صنعاء و دخلها لأول مرة سنة ٢٩٥ هـ.

و استمر «ابن الفضل» في فتوحاته حتى دانت له جميع بلاد تهامة و زبيد . و في تلك الفترة كانت قد ظهرت بوادر غير مرتقبة في مركز الدعوة الإسماعيلية في سلمية، فتسلم شؤون الإمامة «عبد الله المهدي» الذي وضع ثقته بمنصور دون ابن الفضل، و خصه بعاطفته و ثقته . و أناط به تعيين الدعاة في الأقاليم، و اعتبره المسؤول الأول عن الدعوة في اليمن، و قد كان هذا من الأسباب الرئيسية التي حفزت ابن الفضل على الخروج ثم الدخول في حرب مع منصور.

كان ابن الفضل يظهر التقشف، و الورع، و التقوى في حياته، فكان يصوم نهاره و يقوم ليله، فأنس إليه و أحبه كل من عرفه، و قلده أمرهم، و جعلوه حكما بينهم، حتى أن بعض أتباعه جاؤوا إليه مرة

يطلبون منه أن ينزل من حصنه في جبل «سرو يافع» ليسكن بينهم.

فقال:

«لا أفعل هذا، ولا أسكن بين قوم جهال، إلا بعد أن يعطوني العهود والمواثيق ألا يشربوا الخمر».

ففعّلوا ذلك، وأقسموا له على الطاعة، وأن لا يخالفوا له أمرا.. وهكذا وعدهم خيرا ولبى مطلبهم.

وكان ابن الفضل رجلا ذا شخصية بارزة، وقائدا بارعا، وحاكما ناجحا، فخورا بقحطانيته . حكيم السياسة في السلم و الحرب مع شهامة وإقدام وكرم وحماية للمظلوم، ونصرة الحق، فلم يستطع «منصور» أن يقلل من نفوذه، أو يعزله عن الدعوة- أو يطرده من اليمن، على الرغم من وقوفه على ميوله الاستقلالية و علمه بطموحه و تطرفه في الحكم، و مبالغته في قحطانيته، و إنه تعدّى حدود الدين حتى أبت عليه عزة نفسه الرضوخ لأحد أو الدخول تحت حكم أحد.

بيد أن رئاسة الدعوة في سلمية كانت بجانب منصور، فرأت أن ابن الفضل قد نكث بالعهد، و استهواه الشيطان و أضلّه . فخرج من الدعوة، و افترى على الله و أوليائه، و اقتدى بالمضلين من قبله، و استمال الجهال، فكانوا له من الأنصار و الاتباع، و ارتكب المحارم، و مال إلى الإباحات، و كفر بعد إيمانه.

أما منصور فقد ظلّ على ولائه حتى آخر يوم من حياته يتلقى الأوامر من أئمتّه، و يستعين بإرشاداتهم قائما بواجباته، و لم تكن تخفى عليه نيات رفيقه ابن الفضل الذي اتخذ خط المخادعة و المماطلة حياله ..

بقوله: «إنما أنا سيف من سيوفك»، و لكن هذا لم يقنع المنصور، و لم يذهب من قلبه التخوف من المستقبل، و لكن كان عليه أن يداريه، لأنه كان يخشى انهيار البنيان الكبير الذي بناه، و الدليل أنه اجتمع إليه سنة ٢٩٩ هـ. بعد استيلائه على صنعاء، فأظهر فرحه و قال له:

«يا ابن الفضل ... لقد ملكنا اليمن بأسره، و لم يبق منه إلا القليل، فعليك بالتأني، و الوقوف في صنعاء سنة كاملة، و أنا في «شبام» فليصلح كل واحد منا ما فتحه، و بعد ذلك يكون لنا نظر آخر».

و لكن ابن الفضل لما وصل إلى هذا الحد حدثته نفسه في تكوين دولة مستقلة في اليمن، فكتب إلى منصور يقول:

«إذا أنت لم تنزل إلي، و تدخل في طاعتي، نابذتك الحرب».

فأجابه المنصور يعاتبه، و يذكره بالعهود و المواثيق التي أخذت عليه، كما ذكره بخطر الانقسام قائلا : «كيف تخلع طاعة من لا يوجد خير منه» ...

فأجابه ابن الفضل: «إنما هذه الدنيا شاة، فمن ظفر بها افترسها» ...

و من الجدير بالذكر أن منصوراً تابع إرسال الرسل إليه يذكره، و ينهاه، و لكنه ظل على تماديه فى غيه متباهياً بإصراره فكان ذلك فاتحة الصراع بينهما، و الإنذار الأخير لمنصور بان يستعد للقتال، و كان لا بد له من ملاقاته الصدمة، و الدخول مرغماً فى حرب جر إليها جراً فى وقت كان عبد الله المهدي قد استقر فيه بالمغرب، و أعلن قيام الدولة الفاطمية، و لكن المؤسف أنه كان عاجزاً عن إرسال أية مساعدة لمنصور و هو فى موقف يحتم عليه بناء الدولة الحديثة، و إطفاء الثورات الداخلية التى هبت فى أنحاء المغرب فى وجهه.

و أخيراً:

حصّن منصور موقعه، و نزل إلى ساحة القتال ضد رفيقه ابن الفضل، و فى الأيام الأولى تمكّن من الاستيلاء على «شباب حمير» و حاصر بلدة «المظلمة» حيث كان ابن الفضل و أتباعه، فقطع عنهم الزاد حتى أصابهم الجوع الشديد ... و لكن ابن الفضل تمكن من الإفلات، و عاد إلى صنعاء فامتلكها ثم زحف باتجاه مواقع منصور فحاصره ثمانية أشهر، و عند ما طلب منصور الصلح قال له ابن الفضل:

«لست أبرح و قد علم أهل اليمن قصدى من محاصرته إلاً بعد أن ترسل إلى بعض أولادك فيكون ذلك لى مخرجاً عند الناس، و يعلمون بذلك أنك قد دخلت فى طاعتي».

فأرسل منصور إليه ولده . و عندئذ عاد ابن الفضل إلى «المذيخرة»، و أقام عنده ابن منصور مدة عام، و بعد ذلك رده إلى أبيه، و هذا العمل لم يفض النزاع بل زاد هوة الخلاف اتساعاً، مما مهد لقيام ثورة يمنية ضد الفريقين . و فى خاتمة المطاف، لم يستطع ابن الفضل تحقيق أهدافه و ظلّ فى كفاحه و حروبه حتى مات مسموماً سنة ٣٠٣ هـ، بيد أحد الأطباء المأجورين، و بعد وفاته، زحف الأمير أسعد بن أبى يعفر إلى صنعاء، و حارب أتباعه و قتلهم واحداً واحداً، ثم قطع رؤوس أكثرهم، و أرسلها إلى مكة فعرضت فى موسم الحج.

##PAGE=277##

أمّا منصور اليمن فظلّ مقيماً على عهده للفاطميين، و لكن الحروب الداخلية مع ابن الفضل انهكته فالتجأ إلى «مسور» و أقام مع أتباعه فى الأماكن النائية، و فى ظل الستر و التقيّة، حتى وافته المنية سنة ٣٠٦ هـ.

بعد وفاة «منصور» قام ولده الحسن، و أعلن عن نفسه بأنه الداعى الأكبر بعد والده، و كان والده قد أوصى لعبد الله الشاورى، فطلب حسن من الخليفة الفاطمى عبد الله تعيينه مكان أبيه، و لكن الخليفة المهدي رفض طلبه، و عين الشاورى الذى تتلمذ و درس على منصور.

و هذا التعيين حفز الحسن بن منصور على اعلان العصيان أولاً، ثم قتل الشاورى، و جرّد جيشاً كانت مهمته القتل و التدمير، و الظلم، و هذا الخروج شجع الأعداء، فجاءوا إليه و قتلوه، و أبادوا جميع أفراد أسرته، فلم ينج منهم إلاً ابن منصور الثانى «جعفر» الذى فرّ إلى القيروان و استقر فيها تحت لواء الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله.

##PAGE=278##

فهرس الأعلام

- أ- آصف بن على ٢٩

ابراهيم بن أحمد ١٠٣

ابراهيم بن الأغلب ٢١٧، ٢٢٣

ابراهيم بن حبشى ٢٢١، ٢٢٢

ابراهيم بن عبد الله ٩٨

ابراهيم بن الوليد ٥٤

ابراهيم طباطبا بن اسماعيل ١٠١

ابن أبى سفيان، عبيد الله بن زياد ٢٧١

ابن أبى العافية، موسى ٢١٠

ابن أبى العساكر، تاج الدين ١٨٦

ابن أبى يقظان، يقظان ٢٢٢

ابن الأثير ٢٦٩

ابن الأغلب، زيادة الله ٢٥١

ابن أياس ٢٥

ابن تغرى بردى ٢٥

ابن جرير الطبرى ٢٣

ابن حوارتكين ١٧٣

ابن حوشب، قاسم بن فرح ١٣٣

ابن حوقل ٢٤، ١٦٦

ابن خلدون ٢٤، ٢٦٩

ابن خلكان ٢٤

ابن رزام ٢٦٨

ابن الرضى، خالد الدين ١٩٩

ابن الرومى ١١٦

ابن الزبيى، عبد الله ٢٠٥

ابن سيار ٥٦

ابن سينا ١٤٣، ١٤٤

ابن طباطبا، أبو محمد القاسم ٢٥، ١٠١

ابن طولون، هرون بن خمارويه بن أحمد ١٣٣، ١٧٠

ابن عبد المطلب، حمزة ٤٠

ابن العبرى ٢٥

ابن العديم ٢٥

ابن القلانسى ٢٤

ابن الموصلى، أحمد ٢٩

ابن ميسر ٢٥

ابن النديم ٢٤، ٢٦٨

أبو إسحق ابراهيم بن المقتدر ٦٢

أبو اسحق محمد بن الرشيد ٦٢

أبو اسحق محمد بن الواثق ٦٢

أبو الأغر ١٧٠، ١٧١

أبو بكر الصديق ٣٩، ٤١، ٤٣، ٤٧

أبو جعفر عبد الله بن الرشيد ٦١

أبو جعفر عبد الله بن القادر ٦٢

أبو جعفر عبد الله بن محمد ٦١

أبو جعفر محمد بن المتوكل ٦٢

أبو جعفر هارون بن المعتصم ٦٢

أبو جعفر هارون بن المهدي ٦١

أبو سلامة ٢٩

أبو العباس أحمد بن إسحق المقتدر ٦٢

أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم ٦٢

أبو العباس عبد الله بن محمد ٦١

أبو عبد الله محمد بن المتوكل ٦٢

أبو عبد الله محمد بن منصور ٦١

أبو عبيدة بن الجراح ٤٣

أبو العباس أحمد بن المتوكل ٦٢

أبو العباس أحمد بن المقتدر ٦٢

أبو العباس أحمد بن الموفق ٦٢

أبو غفير ٢٨

أبو الفداء ٢٣

أبو الفضل جعفر بن المعتصم ٦٢

أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع ٦٢

أبو الفوارس ١٦٧

أبو القاسم عبد الله بن محمد ٦٢

أبو القاسم عبد الله بن المكتفى ٦٢

أبو القاسم الفضل بن المقتدر ٦٢

أبو مسلم الخراساني ٥٦، ٥٨

أبو محمد الحسن ١٠٣

##PAGE=279##

أبو محمد على بن المعتضد ٦٢

أبو محمد موسى بن المهدي ٦١

أبو منصور محمد بن المعتضد ٦٢

أبو موسى محمد بن الرشيد ٦١

أحمد الإمام ١٠٣

أحمد بن الحسن ١٠٤

أحمد بن الحسين ١٠٣، ١٠٤

أحمد بن سليمان بن محمد ١٠٢

أحمد بن عبد الله بن خلع ٢٧٣

أحمد بن القاسم ١٠٤

أحمد بن قرهب ٢٣٤

أحمد بن كيغلف ١٧٢

أحمد بن يحيى ١٠٥، ١٠٢

أحمد، نور الدين ١١٨

أخوان الصفا ١٣٧، ١٤١، ١٤٢، ١٤١، ١٤٨

إدريس بن عبد الله ٥٩، ٩٩، ٢٠٩

الإدريسي، محمد بن القاسم ٢٣١

أرسطو ١٤١، ١٤٢

أرسلان، قليج ١٨٨

أسامة بن منقذ ٢٠٢

الاستراباذي ٢٤

إسحق بن إبراهيم ٢٧١

إسحق بن زيد ٩٢

إسحق بن عمران ١٧٣

إسحق بن كيداخ ١٧٢

أسد بن عبد الله ٦٣

اسماعيل بن إبراهيم الخليل ٣٥

اسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق ٩٧، ١١٣، ١٤٩، ١٨٦، ٢٤٣

اسماعيل بن الحسن ٨٩

اسماعيل بن القاسم ١٠٣

الأسود العنسي ٣٥

الأشرف خليل ١٨٩

الأشعري، أبو الحسن ٢٤

الأصفهاني، حمزة ٢٣

الأعظمي، محمد حسن ٢٩

الإغريق ٥٤

الأغلب، زيادة الله ٢٢١

الألموتي، حسن بن اسماعيل العجمي ١٩٨

الألياني، القاسم بن علي ١٠٢

اليسع بن مدرار ٢٢٣، ٢٥٣

الأهوازي، الحسين بن أحمد ١٣٢، ١٣٣، ١٥٣، ٢١٤، ٢٧١

الأيوبي، صلاح الدين ١٨٨، ٢٠١

الأيوبي، الكامل ١٨٨

ب البابلي، عكرمة ١٥٢

باريس، موريس ١٩٨

بدر بن أحمد بن يحيى ١٠٥

بدر الحمامي ١٧٠

بدوي، عبد الرحمن ٢٦

البرمكي، الفضل بن يحيى بن خالد ٩٩

البستي ١٣٨

البغدادي، أبو منصور ٢٤

البغدادى، أحمد بن محمد بن هرون ٢٤٠

البغدادى، جعفر بن محمد بن أحمد ٢٤١

البكرى، ابن عبد العزيز ٢٥

البورانى، أبو حاتم ١٦٧

بوهمند الثانى ١٩٥، ١٩٨

ت الترمذى، أبو الحسن ٢٩

تقى الدين عمر ١٨٨

تمستوكل ١٧٩

التميمى، بيان بن سمعان ٨٧

التميمى، النعمان بن حيون المغربى ٢٤٠

التوحيدى، أبو حيان ١٣٨، ١٣٩

تيمور لئك ١٨٤

ث ثابت بن سنان ٢٤

##PAGE=280##

ج جابر الأنصارى ١١٣

جابر بن حيان ١١٣

الجزرى، القائم بأمر الله أبى جعفر ٢٥٨

جعفر بن عبيد ٢٣٥

جعفر بن فلاح ٢٠٢

جعفر بن القاسم ١٠٢

جعفر بن محمد الصادق ١١٢، ١١٣، ١٢٨، ١٣٠

جعفر الحاجب ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٩

الجنابي، أبو سعيد ١٥٥، ١٦٦

الجنابي، سليمان بن الحسن أبو طاهر ١٧٦

ح الحاكم بأمر الله ١٢٨

حامد بن حمدان ٢١١

حاكك، سيمون ٢٥١

حباسة بن يوسف ٢٥٨

حبشي بن أحمد ٢٦٠

الحر بن يزيد ١١٠

حسن بن رباح ٢٣٣

الحسن بن زكرويه ١٧٠، ١٧١، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٨

الحسن بن عبد الرحمن ١٠٢

الحسن بن علي ١٠٨

الحسن بن محمد ١٠٠

حسن بن نزار ١٩٦

حسن، جلال الدين ١٩٧

حسن، حسن ابراهيم ٢٥

الحسن المثنى بن الحسن ٩٧

الحسين بن أحمد ١٠٢، ١٣٣

الحسين بن علي بن أبي طالب ٥٢، ٧٤، ١٠٠، ١٠٩

حسين بن فلان ١٠٣

الحسين بن القاسم ١٠١، ١٠٢

الحسين بن المتوكل ١٠٤

حسين، طه ٢٥

حسين، محمد كامل ٢٥

الحسين المنصور ١٠٤

الحكم الأول ٦٩

الحكم الثاني ٦٩

حلمي، محمد مصطفى ٢٥

حمدان بن الأشعث ١٣٧، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٨

الحنبلي، جمال الدين بن الجوزي ٢٤

خ الخثعمي، جياذ ٢٩

خسرو، ناصر ١٦٢، ١٦٦، ٢٦٢

الخشاب، يحيى ٢٥

الخوري، فارس ٩٠، ١٦١، ٢١٤

خولة بنت قيس ١٠٧

د الداخل، هشام بن عبد الرحمن ٦٩، ٢٠٩

الدمشقي، سيف الدين بن عمرو ١٩٥، ١٩٧

الدوري، عبد العزيز ٢٦

دی ساسی، سیلفستر ۲۶۴

الدیلمی، شبل ۱۶۹

ر الرازی، أبو بکر ۷۴، ۷۵

الرازی، أبو حاتم ۷۵

الرازی، جلندی ۱۵۲

راشد الدین، سنان ۱۹۹، ۲۰۱

ز الزاهر، محمد بن سنان ۱۱۳

الزبیدی ۴۲

زرارة بن أعین ۹۲

الزطی، أبو حاتم ۱۷۳

زکرویه بن مہرویه ۱۵۲، ۱۵۳، ۱۶۹، ۱۸۴

الزمخشري ۴۲

الزنجانی ۱۳۸

زید بن رفاعۃ ۱۳۸

زید بن علی بن الحسین ۱۰۰

س سامان ۶۳

##PAGE=281##

۲۴

سلطان محمد شاه آغافان ۱۸

^{۲۴} تامر، عارف، تاریخ الاسماعیلیه، 4 جلد، ریاض الیس للکتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

سلمى بنت مالك ٣٥

سليمان بن عبد الملك ٥٤، ٨٦، ١٠٠

سليمان المستعين بالله ٦٩

السوداني، إسحق ١٥٢

سيف الدولة الحمداني ١٨٤

السيوطي ٢٤

ش الشاوري، عبد الله ٢٧٧

شرف، طه أحمد ٢٥

الشريف الرضي ٢٦٩

الشعراني، نجم الدين ١٩٧

شمس الدين أحمد بن عبد الله ١٠٣

شهاب الدين أبو الفرج ١٩٧

الشهرستاني ٢٤، ٤٣، ١١٣

شيركوه، أسد الدين ١٨٨

ص الصادق، جعفر بن محمد ٧٧

صالح بن الفضل ١٧٢

صالح بن مرداس ١٨٥

الصالحى، محمد بن قلاوون ١٩٩

صبيح الأعشى ٢٦١

الصقلي، جوذر ٢٧، ٢٨

الصقلي، جوهر ٢٠٢، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧

صلاح الدين بن المطهر ١٠٣

صليبا، جميل ٢٥

الصنهاجي، صالح بن سعيد ٢٣٠

ط طارق بن زياد ٢٠٧

الطبري ٢٧٠

طنج بن جف ١٧٠

الطياوي، عبد اللطيف ٢٦، ١٣٨

ظ الظاهر بيبرس ١٨٩، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٩

ع عامر المعتز ١١٦

العامري، عبد الله بن سعد بن أبي سرح ٢٠٥

العباس بن الحسين ١٠٤

العباسي، موسى الهادي ٢٠٩

عبد الله بن الحارث ٨٦، ٨٧

عبد الله بن الحسن ٩٨، ٩٩

عبد الله بن حمزة ١٠٢

عبد الله المهدي ٢٧، ٢٨، ١٤٩، ١٥٥، ١٦٩، ١٨٩، ٢١٣، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٥ - ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٧ - ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٧٤

عبد الرحمن الثاني ٦٩

عبد الرحمن الثالث ٦٩

عبد الرحمن الرابع ٦٩

عبد الرحمن الخامس ٦٩

عبد الملك بن مروان ٥٤، ٢٠٦

عبد الملك بن نوح ٦٥

عبيد الله بن زياد ١٠٩، ٢٧١

عثمان بن عفان ٤٢، ٤٧، ١٠٠، ١٠٧

العراقي، أبو الفتح محمد ١٩٦

عروبة بن يوسف ٢٣٠

عريب بن سعد ٢٧٠

عزاوي، عباس ٢٦

عقبة بن نافع ٢٠٥، ٢٠٧

عقيل بن أبي طالب ٢٧٢

علقمة بن علاثة ٣٥

العلقمي، محمد بن عماد الدين ١٩٩

علي بن أبي طالب (الإمام) ١٣، ٣٩، ٤٧، ٩٧، ١١٣، ١٤٩، ١٨٣

علي بن الحسين ١١١

العلي، اسماعيل ١٨٩

علي بن الفضل ٢٧١

العلي، صالح ١٩٨

العليشي، أبو بكر ١٩٩

العليقة، محمود ٢٠٠

عمر بن الخطاب ٤٠، ٤٣، ٤٧

عمر بن عبد العزيز ٥٤، ١٨١

##PAGE=282##

عمر بن نائلة ١١٣

عمر بن زرارة ١٠١

عمرو بن الليث الصفار ٦٣

عنان، محمد عبد الله ٢٦

العنبري، محمد بن صدقة ١١٣

العوفى ١٣٨

عيسى بن زيد بن علي ٨٩

عيسى بن موسى ١٧٤

غ غالب، مصطفى ٢٩

الغزالي ١٤٢

الغساني، حسان بن النعمان ٢٠٦

ف الفارابي ١٤٢، ١٤٤

الفارسي، سلمان ٤٠

فاطمة بنت أسد بن هاشم ١٠٧

فيصل بن الحسين ١٩٦

فيلازي، شمس ١٨

ق القاسم بن أحمد ١٠٢

القاسم بن الحسين ١٠٤

القاسم المنصور ١٠٣

القдах، عبد الله بن ميمون ١١٩، ١٣٢، ٢٦٨

القرطبي، غريب بن سعيد ٢٣

القسري، خالد بن عبد الله ٦٣

قسطنطين الثامن ٢٦٥

القمي ٢٧٠

ك كاترمير ٢٦٨

كازانوف ١٣٨

الكتامي، الحسن بن أحمد ٢٣٣

الكتامي، ريحان ٢٣١

كثير عزّة ٨٥

الكرمانى ٧٩

الكشى، محمد بن عبد العزيز ٢٤

الكلابى، خلف بن ملاعب ١٨٤، ١٨٩

الكوفى، أبو محمد ٢٩

ل لويس، برنارد ١٥٠

م ماسينيون، لوى ١٧

ماكدونالد ١٣٨

الماوردى ٢٥

المتنبى، أبو الطيب ١٨٦

محمد الأول ٦٩

محمد بن اسماعيل ٢٦٨، ١٣٠

محمد بن الحسين ١٠٤

محمد بن الحنفية ٦٠، ٧٤، ٨٥، ٩٩، ١٠٧

محمد بن خزر ٢٠٧

محمد بن سليمان ١٧١

محمد بن عبد الله بن الحسن ٥٩

محمد بن علي بن الحسين ١٠٤

محمد بن القاسم بن علي ٨٩

محمد بن قطبة ١٧٣

محمد بن اسماعيل الهادي ١٠٤، ٢٧٠

محمد بن الحسن ١١٦

محمد بن عبد الله ١٠٣، ١٧٣

محمد بن علي الباقر ١١١

محمد بن القاسم ١٠٣

محمد بن المطهر ١٠٣

المطهر بن يحيى ١٠٣

محمد الثاني ٦٩

محمد الثالث ٦٩

محمد، ناصر الدين ١٨٨

المختار بن أبي عبيد ١٠٩

المراكشي، ابن عذارى ٢٤

المرتضى، محمد بن يحيى ١٠٢

مرداويج بن زيار ٦٦

مرهف نصر بن علي بن نصر ١٨٥

مروان بن الحكم ٥٤، ٥٦

مروان بن محمد ٥٤

المرتضى، عبد الله ٢٩

المسعودي ٢٣

مسكويه ٢٣

مسلم بن عقيل ١٠٩

##PAGE=283##

مصالة بن حيوس ٢١٠، ٢٣١، ٢٣٢

مصياف ١٩٥

المطهر بن محمد ١٠٣

معاوية بن أبي سفيان ٥٤، ١٠٧

معاوية بن يزيد ٥٤

المعز لدين الله ٢٧، ٢٨، ٨١

المغربى، أبو سعيد ٢٣٤

المغربى، النعمان بن حيون ٧٧، ٧٩

المفضل بن عمر ١١٣

المفضل بن عمرو ٧٨

المقتدر العباسى ١٧٤

المقدسى ١٣٨

المقريزى ١٥١، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٨، ٢٦٩

المنتصر داؤد ١٠٣

المنذر ٦٩

المنصور بالله ٧٩

منصور بن نصر ٦٥

المنصور على ١٠٤

المهدى بالله ٧٩

المهدى القاسم ١٠٤

المهدى، محمد بن أحمد بن الحسن ١٠٤

المهرجاني ١٣٨

مهرويه بن زكرويه ١٣٣

مهنا بن عيسى ١٨٩

موسى بن العافيه ٢٣١

موسى بن نصير، الوليد بن عبد الملك ٢٠٦

مؤنس (الوزير) ١٧٢

ن الناصر بن الحسين ١٠٢

الناصر، عبد الرحمن ٢١١، ٢١٢، ٢٦٥

النجاشي ٢٤

نجم الدين بن شمس الدين ١٩٦

النسفي، أبو أحمد ٢٤١

نصر بن أحمد ٦٣

نظام الملك ٢٣

نقاش، زكي ٢٦

النوبختي ٢٧٠

النوشري، عيسى ٢٤٩

النويري، شهاب الدين ٢٣، ٢٦٨

النيسابوري ٢٤

النيلي، عطيف ١٥٢

ه الهاشمي، يحيى ٢٥

الهاشمي، جعفر بن علي ١٨٧، ٢٧١

هانيء بن عروة ١٠٩، ١١٠

هشام الأول ٦٩

هشام بن عبد الملك ٥٤

هشام الثاني ٦٩

هشام الثالث ٦٩

هلال الصابي ء ٢٣، ٢٦٩

همذاني، حسين ٢٩

الهند ٥٤

و الورجيلي، ابن سعدون ٢٤١

هولاكو ١٨٨

الوليد بن عبد الملك ٥٤

الوليد بن يزيد ٥٤

ي ياقوت الحموي ١٧٩

يحيى بن إدريس ٢٣٠

يحيى بن الحسين ١٠٢

يحيى بن حمزة ١٠٣

يحيى بن زكرويه ١٧٠

يحيى بن زيد ١٠١

يحيى بن عبد الله ٩٩

يحيى بن محمد بن حميد الدين ١٠٥

يحيى حميد الدين ١٠٤

يزيد بن عبد الملك ٥٤

يزيد بن معاوية ٥٤، ٢٠٥

يزيد بن الوليد ٥٤

يعقوب بن اسحق ٢٦٦

يعقوب بن كلس ٢٦١

اليماني، محمد ٢٧، ٢٨، ١٣١

يوسف بن اسماعيل ١٠٤

يونس بن عبد الرحمن ٩٢

##PAGE=284##

فهرس الأماكن

أ الاتحاد السوفياتي ١٧

الاحساء ١٦٦

أذرعات ١٧٢

الأردن ٢٤٧

الاسكندرية ٢٥٨، ٢٦٣، ٢٦٦

أفاميا ١٨٢

أفريقيا الشمالية ٢٠٥، ٢٣٦، ٢٤٩، ٢٦٤

أفغانستان ١٧، ٦٣، ٦٦

الأندلس ٥٧، ٢٠٦، ٢١١-٢١٣، ٢١٦، ٢٣٧

أنطاكية ١٨١، ٢٠٢

الأهواز ٦٧

أورنت ٢٣٥

ايران ١٨، ٦٣

ايطاليا ٢٣٧

ب باغايه ٢٠٥

البحر الأحمر ٢٦٧

البحر الميت ٥٦

البحرين ١١٩، ١٣٢، ١٦٦، ١٧٥

بخارى ٦٤

برقه ٢٥٨

البصرة ٦٧، ٦٨، ٨٩

بصرى ١٧٢

بغداد ٥٧، ٦٠، ٦٥، ٦٨، ١١٩، ١٥٥، ١٨٣، ٢١٤

بلاد حوران ١٧٢

بلاد الديلم ١٣٠

بلاد السند ٦٣

بلاد الشام ٢٧، ٥٩، ٦٠، ١١٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٦٩، ١٨٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢٤٤، ٢٦٧

بلخ ٦٣

بوصير ٥٧

البيزنطيه ٣٥

ت تارنت ٢٣٥

تاھرت ٢٠٦، ٢١٩، ٢٢٩

تدمر ١٣٠

تلمسان ٢٠٦

تونس ٢٦٤

ج جبال البلعاس ١٨٠

جبال البهرة ١٩٥، ١٩٦

جبل ايكجان ٢١٥

جبل مسور ٢٧٤

جبله ٢٠١

جرجان ٦٧

الجزائر ٢٠٨، ٢٦٤

الجزيرة العربي ٣٤

جنوى ٢٦٦

ح حلب ١٧١

حماء ١٧١، ١٨٨، ١٨٩، ٢٠٢، ٢٤٦

حمص ١٨٣، ١٨٩، ٢٤٨

حوران ٢٤٧

خ خراسان ٥٦، ٦٦، ٦٧

خناصره ١٨١

خوارزم ٦٦

د دمشق ٨٦، ١١٩، ١٨٣، ٢٤٦

##PAGE=285##

ديار بكر ٦١

دير الزور ١٨١

ر الرصافة ١٨٠

رقادة ٢١٨، ٢٢٧

الرقعة ١٧٠، ١٧١

الرملة ٢٤٨

الرها ٦١

الرى ٦٧

ز زواغة ٢٠٦

زويلة ٢٣٧

س سالاميس ١٧٩

سامراء ١١٦

سجلماسة ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٥١

السحنة ١٨٠

سردينيا ٢٦٦

السريان ٥٤

سلمية ٢٧، ٢٨، ٦٠، ١٣١، ١٥١، ١٥٣، ١٥٩، ١٦٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٨، ١٩٠، ٢١٤، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٥٨، ٢٧٥

سمرقند ٦٣

سورية ١٧، ١٨، ١٩٤، ٢٦٤

ش الشاش ٦٣

ص الصحراء السورية ١٧٩، ١٨١

الصحراء العربية ٣٦

صقلية ٢٨، ٢٢٩، ٢٦٣

صنعاء ٢٧٦

صور ٢٦٦

الصين ١٧

ط طبريا ١٧٢

طبنه ٢٢٠

طرطوس ١٩٨

طنجة ٢٠٦

ع العراق ٥٢، ٥٣، ٦٣، ٦٧، ١٠٩، ١٣٢، ١٥١، ٢٤٤

عسقلان ٢٦٦

عكا ٢٦٦

غ غدير خم ٤١

ف فارس ١٧، ٥٣، ٦٧، ١١٩، ١٦٦، ١٩٤

فاس ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٣١

فرنسا ٢٣٧، ٢٦٦

فلسطين ٥٦، ٢٦٤

فيا فارقين ٦١

ق القدس ٢٤٧، ٢٤٨

قرطبة ٢١٢

القسطنطينية ٣٥، ٢١٣، ٢١٥

قسطنطينية ٢٢٢

قنشرين ٢٤٨

القيروان ٢٠٦، ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٧٧

ك كتامة ٢١٥، ٢٥٨

##PAGE=286##

كربلاء ٩٨

كرمان ٦٧

الكوفة ١٠٠، ١١٩، ٢٧١

كيليكيا ٦١

ل لبنان ٢٦٣، ٢٦٤

لواتة ٢٠٦

ليبيا ٢٥٠

م المحيط الأطلسي ٢٠٧

مصر ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٦٠، ٩٩، ١٣٣، ١٤٩، ١٦٦، ١٧٩، ١٨٨، ٢١٣، ٢٣٤، ٢٣٦-٢٣٨، ٢٤٩، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١-٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٧

مطماطة ٢٠٦

معة النعمان ١٧١، ٢٤٧

المغرب ٢٤، ٢٨، ٦٠، ٩٩، ١٤٩، ١٧٩، ٢٢٣، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٦

مقبرة السبع ١٠١

مكة ٣٩، ١٠٩

مكناس ٢٣٠، ٢٣١

مكناسة ٢٠٦

مملكة نوميديا ٢٠٧

الموصل ٦٧

ن نابلس ٢٤٧

نجد ٢٧١

نصيبين ٦١

نهر الأكسوس ١٧

نهر جيحون ٦٦

نهر الفرات ١٥٥

نيسابور ٦٥، ١٣٠

ه هجر ١٧٥

هراء ٦٣

الهند ١٨

هندوكوش ١٧

هواره ٢٠٦، ٢٠٩

و وادي البطان ١٧٠

وادي السوس ٢٠٦

وادي العاصي ٢٠٢

وادي نفيس ٢٠٩

و ليلة ٢٠٩

ى اليمن ١٨، ١٣٣، ٢١٤، ٢٧١

اليونان ١٤١، ١٩٦

##PAGE=287##

فهرس القبائل و العائلات و الفرق

أ آل الجنابى ١٦٧، ١٧٥

آل حمدان ١٥٤

ال حيدر ٢٠٢

آل ريشة ١٨٩

آل زريق ٢٠٢

آل غيبور ٢٠٢

آل الفضل ١٨٨

آل مهروية ١٥٤، ١٦٩

الأبو هاشمية ٨٦

الأخشيديين ٢٦٠

الأدارسة ٢٠٩، ٢٣٠

الإسحاقية ٩٢

الإسماعيليون ١٣، ١٤، ١٨، ٢٧، ١٣٨، ١٦٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٤٤

الاغريق ٢١٧

الأمويون ٥٨، ٢٠٦، ٢١٠، ٢٥٧

الأيوبيون ١٨٨

ب الباقرية ٩١

البتريه ٩٠

البربر ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٣٧

البزيعه ٩١

بنو الأصبع ١٧٢

بنو الباوى ١٦٩

بنو رستم ٢١٩، ٢٣٠، ٢٣٢

بنو زياد ١٦٩

بنو العباس ٢٣

بنو عجلان ١٦٩

بنو عجيل ١٧٣

بنو عقيل ١٦٩

بنو العليص ١٦٩

بنو عليم ١٦٩

بنو فخذاش ١٦٩

بنو قريظه ٤٠

بنو قشير ١٦٩

بنو كلب ١٦٩، ١٧٣

بنو مالک ١٦٩

بنو مدرار ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٧، ٢٢٨

بنو معرض ١٦٩

بنو النضار ١٦٩

بنو النضير ٤٠

بنو الهانجين ١٦٩

بنو هذيل ١٦٩

بنو يعفر ٢٧١

البويهيون ٥٩

البيانية ٨٧

البيزنطيون ٣٦، ٦٠

ج الجارودية ٨٩

الجعفرية ٩٠

ح الحارثية ٨٧

الحميرية ٨٧

الحسنية ٨٨

خ الخطابية ٩٠

الخوارج ٥٣، ٢٠٧

ل الداودية ٩٣

ر الراوندية ٨٦

الرومان ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٧، ٢٣٤

ز الزرارية ٩٢

زناتة ٢٠٦، ٢٣٢

الزناتيون ٢٢٩، ٢٣٢

الزیدیون ٥٩، ٨٨

س السليمانية ٩٠، ٩٣

السومريون ١٨٢

ش الشمیطیة ٩١

ص الصليبيون ١٨، ٢٠١، ٢٠٢

صنهاجة ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠

ط الطولونيون ١٧٠

ع العباسيون ٥٤، ٥٦، ٦٠، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٧٣، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٥٩

العلويون ٥٦، ١٠٠، ١٤٩، ١٩٦

العمارية ٩٢

العميرية ٨٨

ف الفاطميون ٢٣، ٢٤، ٢٨، ١٦٢، ١٧٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٩

الفرس ٣٦، ٥٤، ١٤١، ١٨١

فرغانة ٦٣

الفينيقيون ٢٠٧

ق القاسم شاهية ٩٤

القرامطة ٢٣، ٢٧، ٦٠، ٩٣، ١٣٣، ١٤٧، ١٤٩ - ١٥١، ١٥٩، ١٦٦، ١٦٧ - ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٤، ١٨٦، ٢٠٢، ٢٤٢،
٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٦٧

القرطاجيون ٢١٧

القطعية ٩٢

ك الكريبة ٨٧

الكيسانية ٨٥

م المباركية ٩١

المحمدية ٨٨

المسلمون ١٣ - ١٥، ٣٥، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٥٦، ٧٣، ٧٩، ١٠٩، ١٤١، ١٤٢، ١٦٢، ٢٢٧، ٢٣٤

المعمرية ٩١

المنصورية ٨٨، ٢٦٢

المؤمنية ٩٤

ن الناوسية ٩١

النزارية ٩٣

النصيرية ٩٠

ه الهاشميون ٥٦، ٩٨، ١٨٨

الهشامية ٩٢

الهكسوس ١٨٢

ى اليعقوبية ٩٠

اليونانيون ٢٠١

اليونسية ٩٢

المصادر

المصادر العربية

- ابن سينا فى موانع اخوان الصفاء - عارف تامر.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - المقرئى.
- اثبات النبوات - السجستانى - عارف تامر.
- أخبار مصر - المسبحى.
- أخبار ملوك بنو عبید و سيرتهم - ابن حمّاء القاضى.
- أخبار ملوك بنو عبید و سيرتهم - فوندر.
- أروى بنت الیمن - عارف تامر
- أساس التأویل - النعمان بن حیون - تحقيق عارف تامر.
- استتار الأمن - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- أعيان الشيعة - محسن الأمين العاملى.
- افتتاح الدعوة «النعمان بن حیون» تحقيق وداد القاضى.
- الإمام المستنصر بالله الفاطمى - عبد المنعم ماجد.
- البيان المغرب فى أخبار المغرب - ابن عذارى.
- تاج العقائد (على بن الوليد) تحقيق عارف تامر.
- تاريخ أخبار القرامطة - ثابت بن سنان و ابن العديم.
- تاريخ الاسلام السياسى و الدينى - حسن ابراهيم حسن.
- تاريخ الإسماعيلية السياسى حتى سقوط بغداد - طه أحمد شرف.

تاريخ جوهر الصقلي - على ابراهيم حسن.

تاريخ الرسل و الملوك - الطبرى.

تقويم البلدان - أبو الفداء.

تميم بن المعز لدين الله - عارف تامر.

ثورة القرامطة الاشتراكية - عارف تامر.

جوهرة الصقلي «القائد» - عارف تامر.

الحاكم بأمر الله - عارف تامر.

الحاكم بأمر الله المفترى عليه - عبد المنعم ماجد.

الحاكم بأمر الله و أسرار الدعوة الفاطمية - محمد عبد الله عنان.

حركات الشيعة المتطرفين - محمد جابر عبد العال.

حضارات الاسلام - جوستاف فون جرونوم.

دراسات فى العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدورى.

دعائم الاسلام (النعمان بن حيّون) تحقيق آصف فيضى.

دولة النزاريّة - طه أحمد شرف.

راحة العقل و الكرمانى - محمد مصطفى حلمى و محمد كامل حسين.

##PAGE=290##

الرياض - (الكرمانى) - تحقيق عارف تامر.

سيرة الاستاذ جودر الكاتب - محمد كامل حسين و محمد عبد الهادى شعيرة.

سيرة جعفر الحاجب - (اليمانى) مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة.

شرح ديوان ابن هانئ الأندلسى - عارف تامر.

صلة تاريخ الطبرى - غريب بن سعد.

الصليحيون فى اليمن - حسين همدانى.

عبقريه الفاطميين - محمد حسن الأعظمى.

عبيد الله المهدي - إمام الشيعة الإسماعيلية و مؤسس الدولة الفاطمية - حسن إبراهيم حسن.

العزير بالله - عارف تامر.

العصر العباسى الأول - شوقى ضيف.

العصر العباسى الأول - عبد العزيز الدورى.

عيون الأخبار - ادريس عماد الدين.

الغزالى بين الفلسفة و الدين - عارف تامر.

الغلو و الفرق الغالية فى الحضارة الاسلاميه - عبد الله سلوم السامرائى.

الفاطميون فى مصر - حسن إبراهيم حسن.

الفرق بين الفرق - الإمام أبو منصور البغدادى.

فرق الشيعة - النوبختى.

فصول و أخبار (مخطوط - نور الدين أحمد).

فى أدب مصر الفاطمية - محمد كامل حسين.

القرامطة - عارف تامر.

كتاب البلدان - اليعقوبى.

كشف أسرار الباطنية و أخبار القرامطة - الحمادى اليمانى

كنوز الفاطميين - زكى محمد حسن.

لمعة من أخبار المعز - مؤلف مجهول.

المجالس المستنصرية - الداعي ثقة الإمام.

المجالس و المسابيرات - النعمان بن حيّون.

المجلة الذهبية - على محمد جبارة.

مروج الذهب - المسعودي.

معجم البلدان - ياقوت الحموي.

المعز لدين الله - حسن ابراهيم حسن و طه أحمد شرف.

المعز لدين الله - عارف تامر.

الملل و النحل - الشهرستاني.^{٢٥}

الموسوعة التاريخية للخلفاء الفاطميين - عارف تامر.

المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي - محمد كامل حسين.

الناصر لدين الله - سيمون حايك.

##PAGE=291##

نزهة الأفكار - ادريس عماد الدين.

النظم السياسية - حسن ابراهيم حسن و على ابراهيم حسن.

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام و العراق - محمد جمال سرور.

نور مبين قبل الله المتين - على محمد جبارة.

الهمة في آداب اتباع الأئمة - محمد كامل حسين.

وفيات الاعيان - ابن خلكان.

المصادر الأجنبية

^{٢٥} تامر، عارف، تاريخ الاسماعيليه، 4 جلد، رياض الريس للكتب و النشر - لندن، چاپ: اول، 1991 م.

.

.